فى التاريخ الأندلسى (٢)

تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين والموحدين

وحتى سقوط دولة بنى الأحمر



تأليف

د/ إيناس حسنى البهجي

كلية الآداب - جامعة الخرطوم - سابقاً



دار التعليم الجامعى

٢١ش شادى عبد السلام - برج زهرة الأنوار - ميامى - الإسكندرية - ج.م.ع.

تليفاكس: ٠٠٢-٠٣/٥٥٦٣٩٦١ موبايل: ٠٠٢/٠١٠٠١٨٣١٧٩٦

٠٠٢/٠١١١٩٩٩٥٠٠٩

Email:dartalemg@yahoo.com


مكتبة
طريق العلم

في التاريخ الأندلسى(٢)

تاريخ المغرب والأندلس

فـــى

عصر المرابطين والموحدين

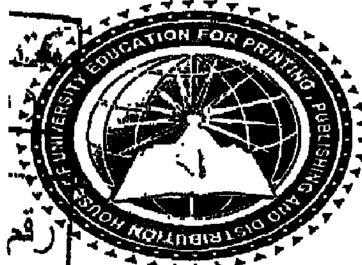
وحتى سقوط دولة بنى الأحمر

تأليف

أ . د / إيناس حسني البهجي

كلية الآداب ـ جامعة الخرطوم ـ سابقاً

٢٠١٥



رقم

دار التعليم الجامعى

٢١ش شادى عبد السلام - برج زهرة الأنوار - ميامى - الإسكندرية - ج.م.ع.

تليفاكس: ٠٠٢-٠٣/٥٥٦٣٩٦١ موبايل: ٠٠٢/٠١٠٠١٨٣١٧٩٦

٠٠٢/٠١١١٩٩٩٥٠٠٩ Email:dartalemg@yahoo.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية



البهجي ، ايناس حسني
تاريخ المغرب والاندلس فى عصر المرابطين والموحدين حتى
سقوط دولة بنى الاحمر / تاليف ايناس البهجى ط ١ - الإسكندرية:
دار التعليم الجامعي، ٢٠١٥
ص ٤ سم. (فى تاريخ الاندلس ٢،)
تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٧٣٣ ٠٢٨٢

١- المغرب ـ تاريخ ٢- الاندلس - تاريخ .
٣- المرابطون ٤ ـ الموحدون
أ - العنوان

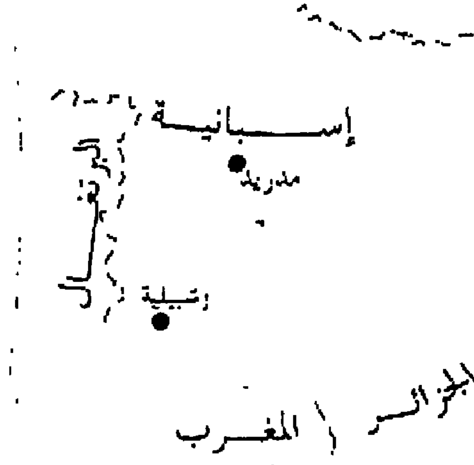
رقم الإيداع /٥٨٦١ ٩٦٤

الإهداء

إلى زوجي الغالي

إيناس

مقدمة



بلاد الأندلس هي اليوم دولتا إسبانيا والبرتغال، أو ما يُسمَّى: شبه الجزيرة الأيبيرية، ومساحتها (مجموع الدولتين) ستمائة ألف كيلو متر تقريبًا؛ أي أقل من ثُلثي مساحة مصر.

ويفصل شبه الجزيرة الأندلسية عن المغرب مضيق أصبح يُعرَف منذ الفتح الإسلامي بمضيق جبل طارق، (ويسميه الكُتّاب والمؤرخون العرب باسم درب الزقاق)، وهو بعرض ١٢,٨كم بين سَبْتَة وجبل طارق.

جغرافية الأندلس

تقع شبه الجزيرة الأيبرية في الجنوب الغربي من أوربا، على مثلّث من الأرض، يضيق كلما اتجهنا نحو الشرق، ويتّسع كلما اتجهنا إلى الغرب، وتتصل في الشمال بفرنسا (بلاد الفرنجة) بواسطة سلسلة جبلية تُعرف بجبال البرينيه (جبال البرتات)، وباستثناء تلك الناحية فإن المياه تُحيط بها من كل جانب؛ مما جعل العرب يُطلقون عليها «جزيرة الأندلس» على سبيل التجوّز؛ فالبحر المتوسط يُحيط بها من الشرق والجنوب الشرقي، ويُحيط المحيط الأطلنطي بها من الجنوب الغربي والغرب والشمال.

فجبال البرينيه هي الفاصل البري الوحيد الذي يربط شبه الجزيرة مع أوربا، فتلتقي في الشمال مع المحيط الأطلنطي، وفي الجنوب مع البحر المتوسط.

وجبال البرينيه التي تمثِّل فاصلاً بين فرنسا وإسبانيا تجعل الجزيرة وكأنها تُوَلِّي وجهها عن أوربا، فيما تتجه به إلى المغرب، وهذا ما أجمع عليه الجغرافيون المسلمون الذين عدُّوها امتدادًا لإفريقيا، وليست رقعة من القارة الأوربية، والمعروف أن شبه الجزيرة تتشابه مع المغرب في كثير من المعالم النباتية والحيوانية؛ وبخاصة منطقتي سَبْتَة وطَنْجَة.

أمَّا داخل الجزيرة فسنرى أنفسنا أمام هضبة كبيرة تُعْرَف بالمسيتا، تقطعها الجبال بشكل أفقي، وتكثر فيها الأنهار فكأنها تعيش فوق شبكة من المياه.

لماذا سميت «الأندلس»؟

وعن سبب تسميتها بالأندلس-فقد كانت هناك بعض القبائل الهمجية التي جاءت من شمال إسكندنافيا من بلاد السويد والدنمارك والنرويج وغيرها، وهجمت على منطقة الأندلس وعاشت فيها فترة من الزمن، ويُقال: إن هذه القبائل جاءت من ألمانيا، وما يهمنا هو أن هذه القبائل كانت تسمى قبائل الفندال أو الوندال باللغة العربية؛ فسُمِّيت هذه البلاد بفانداليسيا على اسم القبائل التي كانت تعيش فيها، ومع الأيام حُرِّف إلى أندوليسيا فأندلس.

وقد كانت هذه القبائل تتسم بالوحشية، و (Vandalism)في اللغة الإنجليزية تعني همجية ووحشية وتخريبًا، وتعني -أيضًا- أسلوبًا بدائيًّا أو غير حضاري، وهو المعنى والاعتقاد الذي رسخته قبائل الفندال، وقد خرجت هذه القبائل من الأندلس، وحكمتها طوائف أخرى من النصارى عُرِفت في التاريخ باسم قبائل القوط (GOTHS) أو القوط الغربيين، وظلُّوا يحكمون الأندلس حتى قدوم المسلمين إليها.

الفصل الأول

عصر السيطرة المرابطية ٤٨٤ - ٥٤٠ هـ

قبيلة جدالة وأصل المرابطين

تاريخ المغرب قبل المرابطين في أعماق صحراء موريتانيا، وبالتحديد في الجنوب القاحل، حيث الصحراء الممتدَّة، والجدب المقفر، والحرُّ الشديد، وحيث أناس لا يُتْقِنُون الزراعة ويعيشون على البداوة.. في هذه المناطق كانت تعيش إحدى القبائل الأمازيغية (البربرية) الكبيرة، والتي تُدْعَى قبيلة صنهاجة، كانت هذه القبائل مجوسية تعيش في الصحراء بعيدًا عن أي عمران؛ حتى إن الرجل منهم ربما يُعَمِّر دهرًا طويلاً ويموت دون أن يرى في حياته خبزًا، فضلاً عن أن يتذوَّقه، وظلُّوا هكذا حتى انتشر فيهم الإسلام في القرن الثالث الهجري.

ومع ابتعادهم في أعماق الصحراء في أقصى المغرب فقد استمروا على جهالتهم وبداوتهم فكأن لم يعرفوا الإسلام وتعاليمه وكأنه لم يدخل بلادهم، ثم اجتمعوا كلهم حول مَلِك واحد، ثم مات ملكهم وخلفه حفيده، ثم ابن حفيده الذي ثار عليه الصنهاجيون فقتلوه، واختلف أمرهم، وصاروا طوائف عديدة، ثم اجتمعوا بعد فترة أخرى حول ملك آخر كان من لمتونة (وهي قبيلة كبيرة من صنهاجة)، واسمه ابن تيفاون اللمتوني.

غير أنه لم يُعَمِّر طويلاً، فقد مات في إحدى المعارك، فخلفه صهره يحيى بن إبراهيم الجدالي، الذي كان من قبيلة جدالة (وتنطق الجيم مثل الكاف الفارسية أو الجيم القاهرية)، التي هي -أيضًا- قبيلة كبيرة من صنهاجة مثلها مثل لمتونة، فصار يحيى بن إبراهيم رئيس صنهاجة.

ومن أعْجَبُ ما يرويه المؤرخون عن الجهل التام بتعاليم الإسلام ذلك الذي ساد الناس في هذا الزمن، أن يُخرج «أحدهم ابنه وابنته لرعي السوام، فتأتي البنت حاملاً من أخيها، فلا يُنكرون ذلك، وكان من دأبهم الإغارة بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضًا»، وانتشر بينهم الزنا، ومصادقة الرجل للمرأة المتزوجة بعلم زوجها وحضوره. وكان الرجل منهم يتزوج ما يشاء من النساء بلا عدد؛ حتى إن يحيى هذا -رئيسهم- كان متزوِّجًا من تسع نسوة، فهم لا يعرفون من الإسلام لا صلاة ولا زكاة ولا شرائع، اللهم إلا الشهادتين فحسب.

لقد كانت هذه الأوضاع أشد وطأةً مما نحن عليه الآن، فلننظر كيف يكون القيام، ولنتدبَّر تلك الخطوات المنظَّمة التي سار أصحابها وَفق منهج رسول الله ﷺ في بناء الدولة وإصلاح أحوال الأُمَّة.

يحيى بن إبراهيم يحمل هم المسلمين

أبو عمران الفاسي

أراد يحيى بن إبراهيم الجدالي أن يحج، وكان الحج في هذا الزمان يعني -أيضًا- رحلة في طلب العلم، فاستخلف ابنه إبراهيم وسار إلى الشرق، وفي طريق عودته ذهب إلى القيروان، وقابل هناك أبا عمران موسى بن عيسى الفاسي، وهو شيخ المالكية في مدينة القيروان، وكان المذهب المالكي هو المنتشر في بلاد شمال إفريقيا وإلى عصرنا الحاضر، كما كان هو المذهب السائد في بلاد الأندلس آنذاك، قابل يحيى بنُ إبراهيم أبا عمران الفاسي، ذلك العالم الكبير الذي يقول عنه الحميدي: فقيه القيروان، إمام في وقته، دخل الأندلس، وله رحلة إلى المشرق وصل فيها إلى العراق، وسمع بالقيروان وبمصر وبمكة وكان مكثرًا عالمًا. كما وصفه الحميري في الروض المعطار بالفقيه الإمام المشهور بالعِلْم والصلاح.

ونقل ابن فرحون صاحب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (المالكي) أنه كان من أحفظ الناس وأعلمهم؛ جمع حفظ المذهب المالكي إلى حديث النبي ، ومعرفة معانيه، وكان يقرأ القرآن بالسبع ويُجَوِّده، مع معرفته بالرجال وجرحهم وتعديلهم، أخذ عنه الناس من أقطار المغرب والأندلس، واستجازه مَنْ لم يَلْقَه، وله كتاب التعليق على المدونة، كتابٌ جليل لم يُكْمل، وغير ذلك.

لا نشكُّ في أن يحيى سمع من الفقيه أبي عمران ما أدهشه وأيقظه، وعرَّفه بأن قومه يعيشون في جاهلية كبرى، ولا نشكُّ كذلك في أن يحيى – وهو الزعيم الحريص على أهله وقومه- حمل الهم الكبير لما اكتشفه من حقيقة الحال، وما هو إلا أن أخبر يحيى شيخه أبا عمران بأنه من قوم لا يعرفون شيئًا عن أمور دينهم، فعامَّة الناس لا يعرفون إلاّ الشهادتين، وقليل من الخاصة مَنْ يُصلُّون، وأنَّ لا علم لهم من العلوم ولا مذهب لهم من المذاهب؛ لأنهم منقطعون في الصحراء، لا يذهب إليهم إلاّ بعض التجار الجهَّال، وأن فيهم أقوامًا يرغبون في تَعَلُّم العلم، والتفقُّه في الدين، لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فاختبره الفقيه حتى تأكد من حقيقة هذه الفاجعة.

فعرض الفقيه ذلك على طلابه فأبَوْا، فأرسله إلى أحد فقهاء بلاد المغرب ويُدعى وجاج بن زلو اللمطي، وكان من طلابه، وكان قد تَفَقَّه وجلس للتدريس، فرحل إليه يحيى الجدالي، فأرسل معه الفقيه وجاج واحدًا من ألمع وأذكى تلاميذه وهو عبد الله بن ياسين.

بناء دولة المرابطين

المبحث الأول

الجذور التاريخية للمرابطين

تعتبر قبائلُ صنهاجة أقوى قبائل البربر وأشدها وأمنعها, واشـــتهرت بقُوّة شكيمتها, وكثرة رجالها الذين ملأوا الشّمَال الإفريقـــي وســـكنوا جبالــــه، وسهوله وخصوصًا من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى.

واعتبرَ بعضُ المؤرخين قبائل صنهاجة مثلث شعبًا انــضوتْ تحــت لوائه أكثر من سبعين قبيلة بربرية، ومِن أهم هذه القبائل وأشـــهرها لمتونــــة، وجدالة، ولمطة، ومسوفة، وهى التى تكوَّنت منها دولة المـــرابطين الـــسُّنيَّة. وبعض المؤرخين يجعل القبائل الصنهاجية لها أصل من حمير بن سبأ أى: إن أصلَهم يمانيّون.

والبعض الآخر يذهب إلى أنهم برابرة لا علاقة لهم بالعرب[1].

١ـ تسمية الملثمين:

اشتهرتْ القبائل الصنهاجية فى التّاريخ باسم المُلَثَّمين، وأصبح اللثـــام شعارًا عُرفوا به إلى أن تسمَّوا بـــالمرابطين، ويـــرى بعـــض المـــؤرخين إن المُلَثَّمين ينتسبون إلى قبيلة لمتونة إحدى بطون صنهاجة, وكانت لمتونة تتولى رئاسة سائر قبائل مسوفة، ومسراته، ومداسة, وجدالة، ولمطة، وغيرها، ثـــم آلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة على عهد الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي[2].

ويبدو أن إطلاق اسم المُلَثَّمين فى بدايته كان خاصًا بقبيلة لمتونة ثـــم توسع وأصبح شعارًا لكل من حالف لمتونة ودخل تحت اسم سيادتها.

---

[1] انظر: دولة المرابطين فى المغرب والأندلس، د. سعدون عباس ص (١٢-١٣).

[2] انظر: تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين، د. حمدي عبد المنعم، ص (٢٧).

٢ـ سبب تسميتهم:

وأمّا سبب تسميتهم فقد وردت أقوال كثيرة فى سبب تسميتهم بذلك، منها: إن أجدادهم مِن حِمْيَر كانوا يتلثمون لشدة الحرّ، ويذهب إلى هذا الرأى مَن ظنّ إن أصل قبائل صنهاجة يرجع إلى الهجرات القديمة من المشرق لأسباب متعددة، منها اقتصادية, وسياسية.

ومنها: أنّهم آمنوا بالرسول (ﷺ) وكانوا قلة فاضطرُّوا للهرب لما غلبهم أهل الكفر فتلثّمُوا بقصد التمويه، وقيل: إن طائفة منهم أغارت على عدو لهم فخالفهم إلى مواطنهم وهى خالية إلا مِن النساء والأطفال والشيوخ، فأمر الشيوخُ النساءَ بأن يرتدين لباسَ الحرب ويتلثَّمنَ، ففر الأعداء وهكذا اتخذوا اللثام سنة يلازمونه وارتقى عندهم إلى مستوى رفيع فى حياتهم وأعرافهم ومما قيل فى اللثام:

قَوم لهم درك العلا فى حمير ... وإن انتموا صنهاجة فهمُ همُ
لما حَوَوْا إحْرَازَ كُلِّ فضيلة ... غلبَ الحياءُ عليهمُ فتلثَّموا[٣]

٣ـ موطن الملثمين:

سكن المُلَثَّمون الصحراء الكبرى الممتدة من غدامس شرقًا إلى المحيط الأطلسى غربًا، ومِن جبال درن شمالاً إلى أواسط الصحراء الكبرى جنوبًا.

ولم تكن هذه الأماكن والمواطن تجرى بها أنهار دائمة, وكانت قليلة الأمطار وأحيانًا تُحبَسُ عنها الأمطار لسنوات عديدة؛ فيتعرض سكانها للمجاعة فيرتحلون لطلب الماء والكلأ، فتفرقوا حول الواحات الصغيرة فى تلك

[٣] انظر: وفيات الأعيان (ج٧/١٣٠).

الصحارى الممتدة الأطراف، وكوّنوا قرى بدائية تتماشى مع ظروف حياتهم الرعوية[4].

٤- حياتهم الاقتصادية:

توزّع المُلَثَّمون حول الواحات بحثًا عن المياه وعملوا في الزراعة وخاصّة زراعة الشعير الذى ينبت في الأرض الفقيرة ويكفيه قليل من الماء، وقد ازدهرت زراعته فى منطقة أزكى التى تسكنها قبيلة لمتونة.

وكان النخيلُ مِن أهم أشجارهم، وكانت مدينة سجلماسة من أهم واحات الصحراء عمرانًا بشجر النخيل, واستفاد المُلَثَّمون من ظل أشجار النخيل؛ فزرعوا البطيخ والقرع والكوسى والقثاء، وشهدت بعض الواحات زراعة الذرة، وازدهرت فى واحة سجلماسة زراعة القطن وقصب السُكّر. وكانت وسيلة الزراعة فى تلك الواحات الصحراوية المحراث البدائى الذى تجرُه الجمال.

وكانت تلك القبائل تهتم بتربية الحيوانات للحصول على قوتهم ولكى يستعملوها فى تنقلاتهم، ومن أهم الحيوانات التى اهتَمُّوا بها الإبل، والتى كانوا يشربون ألبانها ويأكلون لحومها ويستفيدون من أوبارها وجلودها لصناعة العباءات والألبسة والنعال وأسقف البيوت الصغيرة.

وكذلك اهتَمُّوا بتربية البغال والحمير لاستخدامها فى النقل المحلي[5].

واهتَمُّوا بتربية المواشى مِن بقرٍ وغنم وماعز لاستعمال ألبانها ولحومها فى غذائهم, وجلودها وأصوافها فى لباسهم، واهتَمُّوا بتربية النحل

---

[4] انظر: دولة المرابطين فى المغرب والأندلس، ص (١٣).

[5] انظر : دولة المرابطين, ص(١٥).

للحصول على العسل والشمع, وقد مارسوا الـصيدَ وخاصـة صـيد البقـر الوحشي.

وازدهرت الصناعات المحلية للاكتفاء الذاتي، وتطـوَّرت فـي الكـم والنوع الصناعات المنزلية, وكذلك الأدوات الحربية التـي ازدهـرت بـسبب الحروب المستمرَّة بين المُلَثَّمين وجيرانهم الوثنيين من السودان وغانا, واهتَمُّوا بصناعة السروج ولجم الخيل، وازدهرت الـصناعات الغذائيـة فاسـتخرجوا الزيت من ثمر الفرتى وذلك بعصر قشره، واستعملوه فى طهى الطعام وإنارة السُّرج ليلاً، وكانوا يمزجونه بالرمل ويطلون به أسطح المنازل فيخفـف مـن شدة الحر، ويمنع تسرُّب الماء، واشتهرت مدينة تارودانت بـصناعة قـصب السكر، والمنسوجات والألبسة من الصوف والقطن والوبر, وكانوا يـصنعون من ثمار القرع أوانى يضعون فيها الملح والبهارات.

ومِن أهم المعادن فى بلاد المُلَثَّمين؛ الملح ويكثر فى أوليل وتغـاري، والأخيرة تضم معظم مناجمه وهى على شكل ألواح يُقطِّعُهَا العبيـد وتحملُهـا الجمال إلى بلاد السودان وغانا، وكان الحمل الواحد يُباع فى أيوالاتن بعـشرة مثاقيل مِن الذهب، أما فى مالى فكان يُباع بعشرين مثقالاً، وربما ارتفع إلـى الثلاثين. كان للملح أهمية فى حياتهم الاقتصادية، إذ كـانوا يقطعونـه قطعًـا صغيرة يقايضون به كالذهب والفضة، وكان الفائض من إنتـاجهم الزراعـي والصناعى يُصدَّر إلى خارج بلادهم[٦].

٥ـ أهمية موقع الملثمين:

كانت بلاد المُلَثَّمين الممرَّ الوحيد بين الأَنْدَلُس وأواسط إفريقية؛ فكانت تسلكه القوافل على ثلاث طرق، فالطريق الأول وهو الطريق الساحلى علـى المحيط الأطلسى ينطلق من أغادير مارًا بنواكشوط حتى مصبِّ نهر السنغال,

[٦] انظر دولة المرابطين، ص (١٦).

يقابله طريق داخلي غير بعيد عنه لجهة الشرق هو طريق تارودانت أويل، أما الطريق الثّانِي وهو الأوسط فيمتد من أواسط المغرب إلى قلب الصحراء حيث بلدان مالي والنيجر,يبدأ هذا الطريق من سجلماسة ويمر بأزكى حتى أودغشت في بلاد النيجر.

والطريق الثالث والأخير وهو طريق الصحراء يمتد من السودان الغربي إلى أواسط الصحراء شرقًا, ولا تخلو هذه الطُّرُق مِن صعوبات طبيعية، فتحرك الرمال يمحي معالمها وتتعرض القوافل المارة بها إلى مخاطر لا تُحمد عقباها، ولذلك احتاجت هذه القوافل للقُصّاص من المُلَثّمين لكي يقودوا القوافل في تلك الصحارى حتى تصل إلى بر أمانها مقابل مبالغ مالية على المجهود الرائع العظيم.

ونشطت حركة التجارة بين إفريقيا الغربية وبلاد المغرب والأنْدلُس بسبب الدور الريادي الذي قامت به قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة التي كوّنت حلقة الاتصال الناجحة والمثمرة للأطراف المشاركة, وكثُرت الأسواق التجارية التي تعرض فيها بضائع بلاد الأنْدلُس والمغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي حيث يتم التبادل بالتقايض,أو بالذهب والفضة على حسب الاتفاق بين المتبايعين، ومن أشهر تلك الأسواق التي اشتهرت في تاريخ البلاد: أوغشت، أغمات، أسيلا[٧].

٦ـ الحياة الاجتماعية في بلاد الملثمين:

وأدى ازدهار التجارة في بلاد المُلَثّمين إلى ظهور طبقة من الأثرياء تجمعت لديهم أموال عظيمة بسبب نشاطهم التجاري، وعلى رأس هذه الطبقة الأمراء الذين استأثروا بالحكم وحافظوا على مصالحهم، وكانت هذه الطبقة مستعدة لمقاومة مَن يُهدّدُ مصالحها,أو يحاول انتزاع مكانتها وثروتها وجاهها،

---

[٧] المصدر السابق ، ص (١٨).

مستخدمين من أجل تلك الأهداف الأساليب المشروعة والمُحرَّمة، ويساندهم فى ذلك الفقهاء المحليون الذين ارتبطت مصالحهم بهم وأصبحت أطماعهم والسعى لتحقيقها فوق أحكام الله.

واحتكرت هذه الطبقة الأراضى الزراعية فى الواحات، وكذلك مناجم الملح وقطعان الماشية، أى جميع مصادر الثروة, وكانت تبنى بيوتها بطريقة تدل على ترفعها عن سائر النَّاس, ومعلوم لدى الدارسين والباحثين فى تاريخ المُجْتَمَعات البشرية أنه عندما تظهر طبقة ذات ثراء مفرط ينتج عنه ظهور طبقة من الفقراء المدقعين فى فقرهم, وهذا ما حدث فى المُجْتَمَع المُلَثَّم، حيث نجد أن عامة النَّاس أصابهم الفقر واضطروا إلى الاشتغال برعى المواشى وبالعمل فى الأراضى الزراعية، ويؤدون الضرائب للأمراء والأعيان الذين استغلوهم استغلالاً مشيناً، وكانت طبقة الفقراء تتعرض للمجاعة فى سنوات الجفاف وكانت منازلهم من أغصان الأشجار ومُغطاة بالجلود كالأكواخ.

وظهرت فى المُجْتَمَع المُلَثَّم كثرة العبيد الذين استُخدموا وسُخروا للعمل فى مناجم الملح، وجلُّهم كانوا أسرى فى الحروب التى نشبت بين المُلَثَّمين والوثنيين، وارتفع شأن العبيد فيما بعد؛فكانوا فرقة خاصة فى جيش المرابطين، واشتهرت المرأة المُلَثَّمة بالجمال، وهى سمراء اللون, وبعض نساء الطبقة العليا كانت لهنَّ منزلة رفيعة فاقت منزلة الرجال فى بعض الأحيان.

وانتشرت عادات خبيثة فى المُجْتَمَع المُلَثَّم تتنافى مع تعاليمْ الإسلام، بل هى عادات غارقة فى مستنقعات ألجاهلية، ومن أبشع هذه العادات السيئة الزواج بأكثر من أربع حرائر، وعادة الزنى، ومصادقة الرجل للمرأة المتزوجة بعلم زوجها وحضوره، وغابت العقيدة الإسلامية الصحيحة عن ذلك المُجْتَمَع واضطربت تصوراتُه وانحرف عن الصراط المستقيم, بعدما كان أجداد هذا المُجْتَمَع قد آمنوا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد (ﷺ) نبيًّا ورسولاً، ونبذوا ديانتهم المجوسية القديمة، بل كان أجداد هذا المُجْتَمَع دعاة إلى الله ،

ورفعوا لواء الجهاد , وخاضوا حروبًا فى سبيل إعلاء كلمة الإســلام الخالــدة التى وصلتهم بعد فتح الأَنْدَلُس.

واشتهرَ مِن ملوك المُلَثَّمين بحرصهم على نشر الإسلام وكسر شــوكة من يعاديه الملك «تيولوثان بن تيكلان اللمتوني» الذى حارب القبائل الوثنيــة ونشر بينها الإسلام، وبعد وفاته سنة ٢٢٢هــ خلفه حفيده الآثر الذى دام حكمه حتى وفاته عام ٢٨٧هــ، فخلفه ابنه تميم الذى قتل عام ٣٠٦هــ/ ٩٢٠م على يد مشايخ صنهاجة.

وبعد ذلك افترقت كلمة المُلَثَّمين, وضاعت كثير مــن تعــاليم الــدين واستمرَّ شتاتهم مدة مائة وعشرين سنة الى أن قام بالأمر الأمير محمــد بــن تيفاوت اللمتوني[٨] الذى وحَّدَهم، وقد استشهد هذا الأمير بعد ثلاث سنوات مــن حُكمِه على يد الوثنيين، فقام بالأمر بعده صهره الأمير يحيــى بــن إبــراهيم الجدالى الذى قاد قَومه نحو دين الله بعد رجوعه مِن حجِّه ورحلته المشهورة.

[٨] انظر: ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص (٧٤٦) نقلاً عن دولة المرابطين ص (١٩).

المبحث الثاني

الأمير يحيى بن إبراهيم (الزعيم السياسي)

كان الأمير يحيى بن إبراهيم سيدًا مطاعًا في قومه لِما عُرِفَ عنه مِن شجاعة وكرم وجود ومقدرة قيادية عالية, واشتهر برجاحة عقلة ونفاذ بصيرته وسداد رأيه وحرصه على هداية قومه.

خرج هذا الأمير الجليل من ديار المُلَثَّمين قاصدًا بيت الله الحرام, لأداء فريضة الحج تاركًا الحكم لابنه إبراهيم عام ٤٢٧هـ - ١٠٣٥م[٩].

وكانت العادة أن يقترنَ الحج بطلب العلم، وبعد أداء الفريضة، انطلق الأمير يحيى يبحث عن المعرفة في مدارس المغرب الفقهية طالبًا للعلم لإرواء روحه الظمأى إلى نور المعرفة الإسلامية التي اندرست معالمها في بلاده, ورمتْ به أقدارُ الله في حَلَقَةِ إمام المغرب في زمانه في مدينة القيروان «الإمام أبو عمران الفاسي» الذي تعلَّقت نفسُ الأمير يحيى بتعاليمه وفقهه, وعرض نفسه على الإمام أبي عمران الفاسي الذي ورث زعامة المدرسة المالكية التي انتصرت على الهيمنة الإسماعيلية العبيدية الباطنية الرافضية، واستردَّت حريتها كاملة بعد جهادهم المرير الذي أصبح مَعلَمًا من معالم أهل السنة في الشَّمال الإفريقي.

وأُعجِبَ الشيخ أبو عمران بالأمير يحيى لما لمسه فيه من حبه للخير وحرصه على التعلم، وتحدث إليه الأمير عن سوء الأحوال الاجتماعية في بلاده، وجهل قبائلها بأصول الدين وفروع الشريعة، وطلب من أبي عمران أن يبعث معه أحد طلبته ليعلم قومه أصول الفقه والشريعة الإسلامية[١٠].

---

[٩] انظر: دولة المرابطين، ص (١٩).

[١٠] انظر: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص (٣٨).

وتذكر بعض كتب التّاريخ، أن أبا عمران الفاسى هو الذى وضع الخطوط الأولى مع الزّعيم يحيى بن إبراهيم لقيام دولة صحراوية سنية فى المغرب على أسس دينية صحيحة، كى تستطيع القضاء على الفوضى السياسية والدينية التى كان المغرب يتخبط فيها منذ سنوات عديدة، وفى ذلك يقول صاحب كتاب «بعض مشاهير أعيان فاس فى القديم»:

«ولما اجتمع أبو عمران مع يحيى بن إبراهيم، ندبه إلى قتال برغواطة، وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم، واستنزال رؤسائهم من الولاية، فوعده يحيى بالنهوض إلى ذلك»[11].

وكان يحيى بن إبراهيم حريصًا على أخذ فقيه وعالم معه إلى قَومه، ورأى أبو عمران الفاسى مِن أجل تحقيق الأهداف التى رسموها، أنه لابُدَّ من المرور بمراحل ضرورية فى بناء الدولة المنشودة، من مرحلة التعريف بالمنهج وتكوين أفراده وتربيتهم عليه، وتنفيذ السياسة المرسومة بعد التكوين للوصول إلى مرحلة القُوَّة والتّمكين.

فأحال أبو عمران أمير المُلَثَّمين على تلميذ له فى بلاد السوس فى أقصى المغرب، وهو الفقيه وجاج بن زلوا اللمطي، الذى كان يقيم فى رباط هناك بمدينة نفيس يسمى دار المرابطين، ومن هذا الرِّبَاط أرسل وجاج صحبة هذا الأمير الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولى ليفقه هؤلاء الصحراويين فى أمور دينهم.

وكان يحيى بن إبراهيم بجانب تفكيره فى إخراج قَومه من الظُّلُمَات إلى النُّور يفكر فى إنقاذ قَومه من الهيمنة الزناتية الظالمة، التى كانت قبائل صنهاجة المُلَثَّمة تعانى من جورها وقسوتها وإذلالها وإهانتها.

---

[11] انظر: فى تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد العبادي، ص (٢٧١).

لقد رأى الأمير يحيى أن طريق عزة قَومه في تمسكهم بالإسلام الصحيح، وقد لاحظ الأمير يحيى بن إبراهيم أن كلَّ مَن حرَّكوا القبائل البربرية وهيأوها لإنشاء الدول، كانوا جميعًا من المتحمسين مِن علماء الدين، أو أصحاب الدعوات الدينية سواء كانت خارجية بدعية، أو إسماعيلية كفرية، أو إدريسية مالكية، مِن أمثال: أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الخارجي، وأبي عبد الله الشيعي الباطني، وإدريس بن عبد الله بن الحسن ابن علي بن أبي طالب, حتى برغواطة ذات الديانة الشركية المجوسية اليهودية تزعَّمَها رجل يدَّعي أنه مِن أهل العلم، وهو ميسرة الفقير، وحتى قبيلة غمارة تزعمها صالح البرغواطي الذي زعم أنه «صالح المؤمنين» الذي ورد ذكره في القرآن[١٢].

لهذه الجولة التاريخيّة التي مَرَّت في ذاكرته حرص على الاهتمام بالشيخ عبد الله ياسين الرجل الفقيه العالم السني ليعلم قَومه ويزكيهم ويفقههم.

كما كان الأمير يحيى بن إبراهيم يخشى من خطر الجنوب ويهتمُّ بدعوة القبائل الوثنية للإسلام.

وبدأ الأمير يحيى في شق طريقه المليء بالأشواك من أجل إنقاذ قَومه وإعزازهم في الدنيا والآخرة، ورجع إلى أهله وعشيرته ومعه الرجل الربَّاني والفقيه المالكي والمربي الصبور والزَّعِيم الديني الإمام عبد الله ياسين، وقبل الدخول في سيرته نترجم للإمام السني المالكي سيد القيروان في زمانه.

[١٢] انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس، د. حسين مؤنس, ص (١٦٠).

المبحث الثالث

أبو عمران الفاسي

مهندس الخطوط العريضة

لدولة المرابطين (٣٦٨ هـ - ٤٣٠ هـ)

ذكر القاضى عياض فى «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» ترجمة أبى عمران الفاسى فقال: «هو موسى بن عيسى بن أبى حاج بن وليم بن الخير الغَفَجُومي، وغَفَجُوم فخذ من زناتة من هوارة، وأصله من فاس، وبيته بها بيت مشهور، يعرفون ببنى أبى حاج، ولهم عقب، وفيهم نباهة إلى الآن»[١٣].

١ـ شيوخه:

تفقّه بالقيروان عند أبى الحسن القابسي، وسمع بها من أبى بكر الدويلي، وعلى بن أحمد اللواتى السوسي، ورحل إلى قُرْطُبَة، فتفقّه بها عند أبى محمد الأصيلي، وسمع الحديث من أبى عثمان سعيد بن نصر، وعبد الوارث بن سفيان، وأحمد بن قاسم، وغيرهم، ثم رحل إلى المشرق، فحج ودخل العراق، فسمع من أبى الفتح ابن أبى الفوارس، وأبى الحسن على بن إبراهيم المستملي، وأبى الحسن الخضر، وغيرهم من العراقيين[١٤]، ودرس الأصول على القاضى أبى بكر الباقلاني، وسمع بالحجاز من أبى الحسن بن أبى فراس، وأبى القاسم السقطي، وبمصر من أبى الحسن ابن أبى جدار، وأحمد بن نور القاضي، ثم رجع إلى القيروان، وسكنها، وأصبح سيدها

---

[١٣] ترتيب المدارك، الطبعة المغربية، (ج٧/٢٤٣-٢٤٤).

[١٤] المرجع السابق.

المطاع، وأقبل عليه طلاب العلم من كل صوب، وطارت فتاويه فى المشرق والمغرب، واعتنى النّاس بقوله[15].

٢ـ أثره وتلاميذه:

ابتدأ نشاطه العلمى سنة ٤٠٢هـ، حين عاد من المشرق، فقد جلس للطلبة فى المسجد، وفى داره أيضًا، وسرعان ما عُرف قدره، واشتهرت إمامته، وطار ذكره فى الآفاق، وقد خلف الإمام القابسى المتوفى سنة ٤٠٣هـ، فى نشر علوم السنة فى إفريقية ورئاسة العلم بها, ورحل إليه النّاس من الأقطار لسماع مروياته واستجازه من لم يستطع الاجتماع به[16].

وكان يجلس فى حلقته العِلميَّة من بعد صلاة الصبح إلى صلاة الظهر، يحدثهم ويملى عليهم، ويقرأ لهم، «فلا يتكلم بشيء إلا كُتب عنه إلى أن مات». وكان يحدثُ بصحيح البُخارى و «التّارِيخ الكبير» له أيضًا، و«تصحيف المُحَدِّثِين» للدارقطني، وكان يحدّث كذلك بمصنفاته فى الحديث والرجال والفقه، وقد انتشرت روايتها فى الأنْدلُس أيضًا عن طريق تلاميذه من أهلها[17].

وكان متضلعًا فى كلام الرواة جرحًا وتعديلاً، ومعرفة سيرهم ووفياتهم وغير ذلك.

وكان العامة من أهل القيروان خصوصًا يرجعون إليه فيما يلم بهم ويستفتونه.

كما كان الموفدون فى مهمات سياسية إلى القيروان يسألونه ويستفتونه ويستفيدون من علمه.

---

[15] انظر: مدرسة الحديث فى القيروان (ج٢/٧٦٥-٧٦٦).
[16] انظر: مدرسة الحديث فى القيروان, (ج٢/ ٧٦٥-٧٦٦)
[17] المرجع السابق.

وكان له اهتمام بالبلاد البعيدة ويرسل إليها من يقوم بنشر العلم كما حدث في اهتمامه بصحراء المغرب، وما نتج عن ذلك الاهتمام من قيام دولة المرابطين في تلك المناطق النائية[18].

وقد تتلمذ عليه عدد كبير من النّاس من أهل إفريقية والمغرب، والأندلس، وصقلية، قال الذهبي: «تخرّج بهذا الإمام خلق من الفقهاء والعلماء»[19].

٣ـ ثناء العلماء عليه:

قال تلميذه الحافظ حاتم الطرابلسي: «لقيتُه بالقيروان في رحلتي بسنة ٤٠٢هـ، وكان من أحفظ النّاس, وأعلمهم وكان جمع حفظ المذهب المالكي، وحفظ حديث النبي (ﷺ) , والمعرفة بمعانيه، وكان يُقرئ بالسبعة، ويُجودها مع المعرفة بالرجال، والمعدلين منهم والمجرحين. . . »[20].

وقال الذهبي: «الإمام الكبير العلامة عالم القيروان. . . أحد الأعلام. . . تخرّج به خلق من الفقهاء والعلماء»[21].

وقال أبو بكر الباقلاني لأبي عمران الفاسي: «لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب بن نصر– وكان إذ ذاك بالموصل – لاجتمع فيها علم مالك: أنت تحفظه, وهو ينصره لو رآكما مالك لسر بكما»[22].

---

[18] المرجع السابق.
[19] سير أعلام النبلاء (ج١٧/٥٤٦).
[20] ترتيب المدارك (ج٧/٢٤٦) الطبعة المغربية.
[21] سير أعلام النبلاء (ج١٧/٥٤٥-٥٤٦).
[22] ترتيب المدارك (ج٧/٢٤٦)

٤. شعره:

عندما كتب محمد بن على الطبنى أبياتًا من الشعر وأرسلها إلى أبـــى عمران الفاسى بمناسبة العزم على الذهاب إلى بيت الله الحرام، أجـــاب أبــو عمران الفاسى بهذه الأبيات:

حيّاك ربّك مِن خلٍّ أخى ثقــة وصان نفسك بالتكريم مولاهـــا

مِن كلِّ غم وشـــان لا يوفقهـــا فهو العليم بما يبديــه مولاهـــا

ولا أضاع لها الرّحمن حرمتها وقولهـــا إن تــسر ودعتـــك الله

الله يجمعنا مــن بعــد أوبتنـــا ويؤتنا من وجوه البر أســـناها[٢٣]

هذه ترجمة موجزة لواضع الخطوط العريضة لدولة المرابطين.

وتُوفى – رحمه الله – سنة ثلاثين وأربعمائة من الهجرة.

---

[٢٣] المصدر السابق (ج٧/٥٢).

المبحث الرابع

الزعيم الدينى لدولة المرابطين

عبد اللّه بن ياسين

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن على الجزولي، أصله من قرية «تماماناوت» فى طرف صحراء غانة[٢٤].

درس على فقيه السوس وجاج بن زلوا، رحل إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقامْ بها سبع سنين[٢٥]، واجتهد فى تحصيل العلوم الإسلامية، ثم أصبح مِن خيرة طلاب الفقيه وجاج بن زلوا فعندما طلب أبو عمران الفاسى مِن تلميذه وجاج ابن زلوا أن يرسل مع يحيى بن إبراهيم فقيهًا عالمًا دينًا تقيًا مربيًا فاضلاً وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين الصنهاجى الذى كان عالمًا بتقاليد قَومه وأعرافهم وبيئتهم وأحوالهم.

ودخل عبدُ الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم فى مضارب ومواطن ومساكن المُلثَّمين من قبيلة جدالة فى عام ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨م فاستقبله أهلُها واستمعوا له، وأخذ يعلمهم، فكان تعليمُه باللغة العربية لطلبة العلم، والإرشاد الدينى للعامة بلهجة أهل الصحراء البربرية.

لاقى عبد الله بن ياسين كثيرًا من الصعوبات، فقد وجد أكثر المُلَثَّمين لا يصلون ولا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وعم الجهل عليهم، وانحرفوا عن معالم العقيدة الصحيحة وتلوثت أخلاقُهم وأحكام دينهم، واصطدمت تعاليمه بمصالح الأمراء والأشراف، فثاروا عليه، وكادوا يقتلوه، إلا أنه ترك قبيلة جدالة، وانتقل إلى قبيلة لمتونة، ومِن ثمَّ اختار رباطه المشهور على مصب

---

[٢٤] دولة المرابطين، ص (٢١) نقلاً عن البكري المغرب، ص (١٦٥).

[٢٥] ابن الخطيب، الخلل، ص (١٩١).

نهر السنغال، بعد انتشار صيته، وتعلّق النّاس بــه، فهرعــوا إليـــه ليـــربيهم وينظمهم ويعلمهم.

ومِن خلال كُتب التّاريخ نستطيع أن نقول: إن عبد الله بــن ياســين – رحمه الله– نجح في رسالته الدعوية لأسباب مُهمّة يجب أن يعرفَها الدعاةُ إلى الله, ألا وهي ما وهبه الله مِن صفات فطرية, وما اكتسبه في حياته من صفات عقلية, وصفات حركية.

أ. ومن أهم الصفات الفطرية التي ظهرت لي من سيرته:

١– **الذكاء:** فكان –رحمه الله– عميقَ الفهم, صاحب حجة، يُقيم الـدليل علـى خصومه من الفقهاء، والمحليين الذين تحالفوا مع الأمراء والأعيـان للقـضاء عليه أو طرده.

واختياره لمكان أنسب لتربية أتباعه وتعليمهم يدل على ذكائــه وبعــد نظره, ويظهر ذلك في حروبه التي خاضها لتوحيد القبائــل الـصنهاجية، ثـم انتقاله للقضاء على المخالفين له في المنهج والمعتقد والتصوُّر.

٢– **الشجاعة:** حيث إنه دخل الصحراء داعيًا إلى الله تعالى مع إن غيره مِــن تلاميذ أبي عمران الفاسي اعتذروا وكذلك من تلاميذ وجاج بن زلوا.

وامتازَ بشجاعة وصلابة عظيمة في دعوتِه وأمره بالمعروف ونهيـــه عن المنكر، وفي جهاده حتى إنه استشهد في إحدى معاركه ضد أعدائه.

فكان شُجاعًا عظيم الاحتمال، ومارس أفـضلَ الـشّجَاعَة، ألا وهـي الصّراحة في الحقِّ، وكتمان السرّ إذ إنه كان قد خطط مع يحيى بن إبــراهيم المراحل العِلمِيَّة ولم يتسرَّب منها شيء لأعدائه حتى أخذت حيز التنفيذ.

والشّجَاعَة في الحق وفي ميادين القتال بالنسبة للمُسلِم تدلُّ علــى قُــوّة عقيدته وسلامتها من غَبش التصوُّر وانحراف المنهج، ومن المعلوم أن صفاء العقيدة يرفع الهمة وينمي الشّجَاعَة، ويلهب المشاعرَ، ويذكي الروح, ويــربط

الفؤاد وينور العقل، ويوسّعُ المدارك، والعاملون فى الدعوة إلى الله ينبغى عليهم أن يكونوا شجعانًا فهى منه وإليه.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وحامل دين الله ينبغى ألا يستكين، ولا يجبن، ولا يخور عزمه؛ لأنه صاحب رسالة مُقدَّسةٍ مِن عند العليم الحكيم، سار على نهجها رسل الله مِن قبل، فنصرهم الله، وانتقم مِن عدوهم.

قال الشاعر:

إن نفسًا ترتضى الإسلام دينًا	ثم ترضى بعده أن تستكينا
أو ترى الإسلام فى أرض مهينًا	ثم تهوى العيش نفس لن تكونا

فى عداد المُسْلِمين العظماء[٢٦]

وكم نحن محتاجون إلى شجاعة الدعاة إلى الله مَن أمثال الفقيه عبد الله بن ياسين لندك بها الباطل، ونزيل بها المنكرات الظاهرة، وندمغَ الشُّبُهات الخادعة بالنورين كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ).

قال الشاعر:

وإذا اضطررت إلى الجدال ولم	لك مهربًا وتلاقت الصفان
فاجعل كتاب الله درعًا سابغًا	والشرعَ سيفك وابد فى الميدان
والسنة البيضاء دونك جُنة	واركب جواد العزم فى الجولان
واثبت بصبرك تحت ألوية	فالصبر أوثقُ عُدة الإنسان

[٢٦] انظر: الصفات اللازمة للدعاة، أحمد القطان، جاسم المهلهل، ص (٢٠).

واطعن برمح الحقِّ كُلَّ معانـد   لله درُّ الفـارس الطعـان

واحمل بسيف الصِّدْق حملـة   متجـرد لله غيـر جبـان[27]

وكم نحن محتاجون للدعاة الذين يتوغلون فى مواطن القبائل التى ابتعدت عن إسلامها ودينها وإيمانها, ليقودوها مِن جديد إلى دعم حركة الإسلام المعاصرة- التى استهدفها كلٌّ مِن النصارى واليهود والملاحدة الحاقدين.

٣- **المهابة:** ومن الصِّفَات التى ظهرت لى فى سيرة عبد الله بن ياسين أنه كان مهيبًا قويًا شديدًا، فمن الأدلة على قوَّته البدنية، خوضه الحروب بنفسه وتقدُّمه فى ميدان الفروسية بل جعل من منهجه الذى ربى عليه أصحابه فى هذا الجانب قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفسَّر الرسول (ﷺ) القُوَّة – فى هذه الآية بالرمى بقوله: «ألا إن القُوَّة الرمي»[28]، والرمية إن لم تخرج من ساعد قوى ومتين فهى لا تُحقِّقُ الهدف المطلوب، وفى السنة نجد القُوَّة البدنيَّةَ لاقت حظًا وافرًا، فالرسول (ﷺ) هو أقوى الأقوياء، وكان يُشجِّع أصحابه ◻ على اكتساب هذه الصفة، بل رُبَّما كان يباريهم، ويصارعهم، ويسابقهم، وكما تحدثنا السيرة عن ذلك، يروى مرة أنه تسابق (ﷺ) مع عائشة رضى الله عنها فسبقها مرَّة، ثم سبقته مرَّة، وكذلك تحدثنا السيرة عن مصارعته (ﷺ) لأحد أصحابه فصرعه.

---

[27] نونية أبي عبد الله القحطاني، ص (٣٩).

[28] رواه مسلم رقم (٩١٠).

ومرَّ (ﷺ) على صبيان يرمون بالسهام؛ فأخذ يرمى معهم ويشجعهم ويذكى فيهم روح البطولة والشَّجَاعَة والقُوَّة، ويقول: «ارموا فإن أباكم إسماعيل كان راميًا»[29].

وهذه الآية والأحاديث الفعلية كانت منهج عبد الله بن ياسين وأصحابه، ولذلك تظهر لنا صلابة وقُوَّة أتباعه فى ميادين القتال.

ومفهوم القرآنِ للقُوَّة عام يشمل كل أنوع القُوَّة، قال السعدى – رحمه الله – فى تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي: «كل ما تقدرون عليه، من القُوَّة العقلية، والبدنية، وأنواع الأسلحة, ونحو ذلك».

فدخل فى ذلك أنواع الصناعات التى تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات، من المدافع والرشاشات والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والقِلاع، والخنادق، وآلات الدفاع، والرأى والسياسة، التى بها يتقدم المُسْلِمون، ويندفع عنهم بها شرُّ أعدائهم، وتعلم الرمى والشَّجَاعَة، والتدبير»[30].

لقد جمع عبد الله بن ياسين – رحمه الله– من القُوَّة الفكرية أنواعًا متعددة؛ من قُوَّة الإدراك، وقُوَّة الصبر، وقُوَّة العلم، وقُوَّة التلقي، وغيرها من القوى.

ومن هنا يتضح لنا حاجة العاملين فى الحركة الإسلامية إلى هاتين القُوَّتَيْن، البدنية والعقلية وجميع أنواع القوى الفكرية لتوظيفها فى الدعوة إلى الله[31].

---

[29] رواه البخاري فتح الباري، (ج٦/٤٣١).
[30] انظر: الصفات اللازمة للدعاة، ص (٢٢).
[31] المرجع السابق.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى قيمة القُوَّة العقلية الفكرية وإلى القُوَّة البدنية فى بنيان أمة مجاهدة تحفز للنهوض بعبء النضال، فى سبيل عقيدتها وحريتها، وكان من صفات قائدها أن الله أعطاه ومنَّ عليه بهاتين القُوَّتَيْن البدنية والعقلية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧]. فبسطة العلم إشارة إلى القُوَّة العقلية، وبسطة الجسم إشارة إلى القُوَّة البدنية، قال الشيخ حسن البنا – رحمه الله – فى الأصل الأول من الأصول العشرين: إن القُوَّة تشمل قُوَّة الإنسان التى تجعله قويًا فى نفسه وبدنه وعقله، وعليه أن يباشر الأسباب التى تجعله قويًا، أمَّا قُوَّة نفسه فبالإيمان، وأمَّا قُوَّة بدنه فبالرياضة والفروسية ونحوها, أما قُوَّة عقله فبالعلم»[٣٢].

والإنسان المُسْلِم الذى وهبه الله القُوَّة العقلية والفكرية والبدنية لا ينسى دائمًا وأبدًا قُوَّة القويِّ العزيز الذى أمده بكل خير وفلاح وصلاح, وما سوى قُوَّة الله فهى قُوَّة ضئيلة هزيلة، مهما أوتيت من وسائل البطش والقُوَّة والتنكيل، فهى بمثابة خيوط العنكبوت: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١][٣٣].

قال سيِّد قُطب – رحمه الله – فى ظلاله: «وإن أصحاب الدعوات، الذين يتعرضون للفتنة والأذى والإغراء والإغواء لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة، ولا ينسوها لحظة، وهم يواجهون القوى المختلفة المعادية، التى تحاول سَحْقَهم وإبادتهم، كلها خيوط عنكبوت فى حساب العقيدة الصحيحة»[٣٤].

---

[٣٢] انظر: رسالة التعاليم، ص (١٠).
[٣٣] انظر: الصفات اللازمة للدعاة، ص (٢٢), نقلاً عن طريق الدعوة فى الظلال.
[٣٤] انظر: الظلال: لسيد قطب، نقلاً عن الصفات اللازمة لأصحاب الدعوات، ص (٢٢).

٤- **الأمانة:** ومن الصفّات الفطرية التى تميز بها الزّعِيم الدينى لدولة المرابطين الأمانة، فحين وجد الفقيه عبد الله بن ياسين أن القلوب التفت حوله، وأصبح الآمرَ الناهى فى قبائل المُلَثَّمين، لم يُنافِس الأمير يحيى بن إبراهيم فى منصبه، بل نجده لم يتجاوز حدوده، ولم يتدخَّل فى سُلطات الأمير يحيى مع مقدرته على إزاحته وإبعاده من الطريق ليتبوأ الزعامة السياسية والدينية معًا، وهذا يدلُّ على أمانة الداعية الفقيه عبد الله بن ياسين. والأمانة صفة مهمة للعاملين فى الحركة الإسلامية، فهى ذات أنوار تشع على من حول الدعاة إلى الله فتجذبهم للانخراط فى ميادين العمل الإسلامى الواسعة والمحتاجة لكل جهد وشخص مخلص لهذا الدين.

والأمانة تحتاج إلى أشخاص أقوياء لحملها. ومفهوم الأمانة فى القرآن واسع جدًا.

وقد وصف الله المؤمنين الذين نالوا الفلاح فى الدنيا والآخرة وورثوا جنة الفردوس بصفات منها الأمانة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

يقول سيِّد قُطب - رحمه الله - فى تفسير هذه الآية: «وراعون لأماناتهم وعهدهم أفرادًا، وراعون لأماناتهم وعهدهم جماعة، والأمانات كثيرة فى عنق الفرد، وفى عنق الجماعة، والجماعة المُسْلِمة مسئولة عن أماناتها العامة، عن عهدها مع الله تعالى، وما يترتب على هذا العهد من تبعات، والنص يحمل التعبير ويدعه يشمل كل أمانة، وكل عهد. ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون، فهى صفة دائمة لهم فى كل حين، وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تُؤدَّى فيها الأمانات وتُرعَى فيها العهود»[٣٥].

[٣٥] فى ظلال القرآن، ص (٢٤٥٦).

فعبد الله بن ياسين – رحمه الله – اتصف بالأمانة فعظم شأنه فى نظر أتباعه وفى تاريخ المُسْلِمين؛ لأنَّه كان أمينًا فى نفسه ومع إخوته، وحمل أمانة الإسلام، وبذل كل ما فى وسعه، وتحرَّك بمنهج الله فى دنيا النَّاس لتحكيم شرع الله، فأكسبته هذه الصفة فى نفوس النَّاس قبولاً.

٥- **الحياء**: والصفة الخامسة الفطرية التى جُبل عليها عبد الله بن ياسين, الحياء الذى هو شعبة من شُعَبِ الإيمان، ويظهر ذلك جليًا عندما طلب شيخه منه الذهاب مع يحيى ابن إبراهيم للدعوة فلم يعارض ولم يناقش بل استجاب لشيخه, كما نلاحظ ذلك في سيرته مع يحيى بن إبراهيم الذى تملك قلبَه حبُّ عبد الله بن ياسين وأسر فؤاده بإحسانه وكرمه وحرصه على دعوة النَّاس لدين الله، فعندما عرض الأمير يحيى على عبد الله بن ياسين رِبَاطًا فى ضفاف نهر السنغال أجابه عبد الله بن ياسين الذى كان عازمًا على ترك جدالة ولمتونة؛ لما أصابه من عنتهم وظلمهم وجورهم فى بداية دعوته لهم. وعرَّف العلماء الحياء فقالوا: «أصل الاستحياء الانقباض عن الشيء والامتناع منه خوفًا من مواقعة القبيح»[٣٦].

وقال الجنيد: «إن الحياء يتولد من مشاهدة النعم ورؤية التقصير»[٣٧].

فالحياء من المعانى والصِّفَات الرائعة التى يتَّصفُ بها النبلاء والشرفاء من النَّاس, وكان الرسول (ﷺ) أشدَّ النَّاس حياءً, وقد وصفه الصَّحَابِى الجليل أبو سعيد الخُدَرِيُّ ﷺ بقوله: «كان رسولُ اللهِ (ﷺ) أشدَّ حياءً من العذراء فى خِدرِها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عَرفناه فى وجهه»[٣٨].

---

[٣٦] الصفات اللازمة لحياة الدعاة, ص (٢٦-٢٧).
[٣٧] المرجع السابق نفسه, ص (٢٦-٢٧).
[٣٨] البخاري، فتح الباري, (ج١٢/١٥١).

وقال رسول الله (ﷺ) : «الحياء لا يأتي إلا بخير»[39]، ومن الحياء غضُّ البصر، وخفض الجناح، وعدم رَفع الصوت إلا في وجه الباطل.

فعلى العاملين في الدعوة إلى الله أن يُلازموا هذه الصفة الجميلة.

فالحياء المطلوب في صفة الداعية والذي تدعو إليه الشريعة وتحثُّ عليه، هو الذي يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصي والوقوع في الآثام، وفي نفس الوقت يحثُّ صاحبه على العمل الدَّءُوب للإسلام، ومناصرة الحقّ والذَّود عنه، والوقوف أمام الباطل بشتى أنواعه.

قال رسول الله (ﷺ) : «الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله, وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[40].

إن هذا الخلق الكريم والصِّفَة الفاضلة لابُدَّ منها في أخلاق الدُّعاة الربَّانيين ولا يمنعهم هذا الخلق أن يُفرّطوا في طلب معالي الأمور والصعود على سُلَّم الفضائل، والوصول إلى الغايات النبيلة من تفقه في الدين وتعلم العلم والحرص عليه.

فعن عائشة –رضي الله عنها– قال: «نِعمَ النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[41].

٦- **الحلم**: والصفة السادسة من الصِّفَات الفطرية التي يلاحظها الباحث في حياة الفقيه عبد الله بن ياسين هي صفة الحِلم، فنجده عندما تمكَّن من قبائل جدالة ولمتونة التي حاربت دعوته عفا عنها وأحسن إليها، وكل من انصاع لأحكام الله من المخالفين والمحاربين له عفا عنه.

---

[39] رواه البخاري (٦١١٧).

[40] رواه مسلم رقم (٣٥).

[41] رواه مسلم (ج١/٢٦١).

والحلم كما هو معلوم سيد الأخلاق؛ فالحليم هو الذى يتحمل أسباب الغضب, فيصبر ويتأنى, ولا يثور.

من هنا ينبغى على الداعية أن يملأ صدره بالحلم, لأن طريق الدعوة محفوفة بالمكاره، والمتاعب والإيذاء، والبطش، والسخرية، وهذه كلها عقبات تزدحم فى وجه الداعية والدعاة إلى الله[٤٢].

ولقد ضرَب الله لنا فى كتابه العزيز نماذج مِن حلم رسله وسعة صدورهم على ما لاقوه من إيذاء وابتلاء من قَومهم، قال تعالى عن هُود عليه السلام: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٦-٦٨].

صوَّرت لنا هذه الآيات مقدار الحلم الذى يتصف به هود عليه السلام وسعة صدره، حيث لم يعبأ بهذا السباب، وبهذه السخرية والشتائم، ولم يطش لها حلمه، بل قابل هذه الشتائم والسباب والسخرية بدعوة التوحيد، ووضَّح لهم مهمة رسالته وأخيرًا نصحهم بالحسنى وأنَّه أمين على ذلك.

أمَّا رسول الله (ﷺ) فكان حلمه، يفوق حد التصوُّر، وخصوصًا إذا علمنا أن حلمه، كان مع القدرة على البطش وردّ الفعل بأنكى وأعتى، فقد روى أنس بن مالك ﷺ قال: «كنت أمشى مع رسول الله (ﷺ) , وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجذبه بردائه جذبة شديدة حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق رسول الله (ﷺ) وقد أثَّرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال: «يا مُحَمَّد, مُرْ لى من مال الله الذى عندك، فالتفتَ إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء»[٤٣].

---

[٤٢] انظر : الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، ص (٣٠).

([٤٣]) أخرجه البخاري فى الفتح (٦٣/٧)، والحديث (٣١٤٩).

إن الدعاة إلى الله تعالى الذين يسعون لإقامة شـرع الله علـى مـنهج النبوة الخالد، لمحتاجون إلى هذه الصفة الرفيعة فى حركتهم الدائبة والمستمرة، وإن كتب التّاريخ الإسلامى تبين لنا أن طلائع الفتح والتّمكين دائمًا وأبدًا تكون هذه الصفة بارزة فى صفوفهم.

٧- **الجاذبية الفطرية:** وهذه الصفة بارزة للعيان فى شخصية الفقيه عبد الله ابن ياسين وبها جذَب قلوب أبناء الصنهاجيين بدون تكلُّف, وهى من أقوى العناصر التى تكونت منها شخصية الفقيه ابن ياسين.

لقد استطاع أن يملك قلوب مَن جالسوه وسمعوا حديثه من أمثال يحيى بن إبراهيم، ويحيى بن عمر، وأبى بكر بن عمر، وغيـْرهم من قادة الصنهاجيين وشيخوخهم، ولا شكَّ إن ما ذكرناه من هذه الصفّات المهمة فى شخصية الداعية هى من العطايا العظيمة التى يهبها الله لفئة من عباده الذين أخلصوا القول والعمل.

وكان قول الله تعالى متمثلاً فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢،١٦٣].

ب- من الصفات المكتسبة فى شخصية الفقيه ابن ياسين:

١- **الصدق:** وظهر ذلك فى أقواله وأفعاله ومخالطته للنّاس، فكان صادقًا فى دعوته وفى عرضها، وفى مخاطبته للنّاس، ولا يهاب أحدًا, ولا يخشى فى الله لومة لائم، ولا همزة هماز، ولا لمزة لمّاز. [٢]

ولمس النّاس صدقه فى أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر, وفى حربه للبدع, وفى تعليمه للنّاس وجهاده فى سبيل الله فتأثر أتباعه به غاية التأثر.

وحثنا القرآن الكريم على التخلّق بهذه الصفة فقال تعـالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وكانت التوجيهات النبوية الكريمة للصحابة رضوان الله عليهم تحـثُّهم على الصِّدْق، فعن ابن مسعود ﷺ، عن النبي (ﷺ) أنه قال: «إن الصِّدْق يهدى إلى البر، وإن البرَّ يهدى إلى الجنَّة، وإن الرَّجل ليصدُق ويتحرى الصِّدْق حتى يكتب عند الله صديقًا»[٤٤].

ويُعتَبَرُ الصِّدْق من أهم صفات المنتسبين للعمل الإسـلامى القـائمين بإرشاد النَّاس إلى دين الله، فليعلم ذلك كل داعية، وليعِ تمامًا أن دعوته جاءت بالصِّدْق، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

وقد شهد المُؤَرِّخُون حتى الذين طعنوا فى دولة المرابطين على صدق زعيمها عبد الله بن ياسين، لقد ساد ابن ياسين فى قبائل المُلَثَّمين بصدقه فـى دعوته.

٢- ضبط النفس والابتعاد عن التهور والانفعال: ويظهـر ذلـك جليًـا فـى شخصية ابن ياسين عندما باشر الأمير يحيى بن عمر اللمتونى القتال, وأمضى الحرب بنفسه فأدَّبه ابن ياسين وضربه بالسوط عشرين مرة, وبيَّن له أن ذلـك خطأ، لأن الأمير لا يقاتل وإنَّما يقف يُحرِّض النَّاس ويُقوِّى نفوسهم فإن حيـاة الأمير حياة عسكره، وموته فناء جيشه.

واعتَبَرَ عبد الله بن ياسين إقدام الأمير يحيى على القتال فيـه تهـور وعدم ضبط النفس.

[٤٤] أخرجه البخاري في الفتح (١٣/١٢١)، الحديث (٢٠٩٤).

كما يدلّ على ضبط نفس الفقيه ابن ياسين، وابتعاده عن التّهوّر أنه لم يعلن الجهاد حتى أعدّ عُدّتَه، واستكمل أمره وأخذه بمراحله، وربى رجاله، ولذلك عندما خاض جهاده كان موفقًا منصورًا، ولم تستطع القُوّة المعارضة له أن تقضي عليه[٤٥].

إن الداعية يتعرض أثناء قيامه بعمله الإصلاحي، إلى كثير من الجدال والتحدى والأذى، فعليه أن يتحلّى بالصبر، وضبط النفس؛ لأن طريق الدعوة كما هو معروف طويل ويحتاج إلى صبر حتى الوصول إلى نهايته.

فعملية ضبط النفس وعدم التّهوّر والإسراع في تهدئة الجو مطلوب من الداعية قبل التورُّط فيما لا تُحمَدُ عقباه.

إن ضبط النفس يتم بموازين مُحددة تقي صاحبها من مغبة انسياقه وراء ما يصوِّر له خياله، ويراه في نظره هو الأسلم فعندئذٍ يغضب، ويندفع ويتعجل الأمور فيتورُّط. ولقد ذكر لنا القرآن قصة تعطي هذه المعاني، وتصوِّرُها لنا تصويرًا كأنّنا نلمسه ونشاهده، تلك قصة الملأ من بني إسرائيل: ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وفي هذه القصة عبر وعظات، فإن أشدّ النّاس حماسة واندفاعًا وتهورًا، قد يكون أشد النّاس جزعًا وانهيارًا وهزيمة ونقضًا للعهد: ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

---

[٤٥] انظر: روض القرطاس ص (٧٩-٨٠).

وهكذا نكثوا وعدهم، وتفلّتوا من الطاعة، ونكصوا عن التكليف، وهذا شأن المتهورين المتسرّعين، الذين لا يُقدّرون الظروف، ولا يحسبون الصحيح ولا يعرفون قيمة للتكاليف الملقاة على عاتقهم[٤٦].

ورحم الله الشيخ حسن البنا حيث يقول: «أيُّها الأخوان المُسلِمون، وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم، اسمعوها منى كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر – فى مؤتمركم هذا الجامع– إن طريقكم هذا مرسومة خطواته, موضوعة حدوده، ولست مخالفًا هذه الحدود التى اقتنعت كل الاقتناع بأنّها أسلم طريق للوصول، فمَن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها، أو يقطف زهرة قبل أوانها، فلست معه فى ذلك بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات... ألجموا نزوات العواطف، بنظرات العقول، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع، واكتشفوا الحقائق فى أضواء الخيال الزاهية البرّاقة، ولا تميلوا كلَّ الميل فتذروها كالمعلقة، ولا تصادموا نواميس الكون، فإنها غلابة، ولكن غالبوها، واستخدموها، وحوّلوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقّبوا ساعة النصر وما هى منكم ببعيد»[٤٧].

فينبغى على العاملين فى الحركة الإسلامية أن يُدرِكُوا هذا جيدًا, ويتركوا عنهم الحماس المتهوِّر، ويتفهموا أصول العمل, ويُدرِكُوا الواقع الذى يحيط بهم, وينبذوا المجازفات الفاشلة؛ إن واقعنا المعاصر يحتاج إلى صفة ضبط النفس وعدم التّهَوُّر للعاملين فى الدعوة إلى الله عز وجل.

٣- الإرادة القوية:

لقد شهد المُؤَرِّخُون المُسلِمون وغيرهم أن ابن ياسين – رحمه الله تعالى – كان ذا همة وعزيمة لا تهزها الجبال, آمن بسموِّ دعوته, وقدسيَّة

[٤٦] انظر: الصفات اللازمة للدعاة, ص (٤٤).
[٤٧] مجموعة الرسائل، لحسن البنا, ص (١٨٠).

فكرتِه، وعزم على أن يعيش لها ويموت فى سبيلها، وأدرك أن الأمانة التـــى يحملها ودخل بها الصحراء الكبرى تبعتها عظيمة؛ فعليه أن يصبر فى عزيمة قوية، وإيمان ثابت ويقين لا يدخله تردد ولا شك.

فداوَمَ على العمل الجاد وأخذَ بقُوَّة وعزم ومثابرة ومصابرة حتى تحقق إعزاز دين الله فى تلك الصحارى القاحلة المقفرة الخالية من العلماء والفقهاء، فأصبحت بفضل الله ثم بجهده وجهـــاده مليئـــة بالـــدعاة والفقهـــاء والعلمـــاء والمجاهدين.

فينبغى علينا ونحن فى طريق الدعوة سائرون أن نأخذ أمـــر الـــدعوة بقُوَّة، وإرادة قوية وعزيمة ماضية، وهمة متطلعة للمعالي، ونترك حياة الرخاء واللين والدعة، ونقتدى بسيد الدعاة الرسول (ﷺ) فى عزمـــه وقُـــوَّة إرادتـــه، وجمال صبره وشدة تحمله، وعظم حلمه.

ج- الصفات العقلية التى ظهرت فى شخصية ابن ياسين:

١- **القدرة على الفهم والاستيعاب:** استطاع ابن ياسين أن يفهـــم ويـــستوعب المناهج العلمِيَّة التى كانت فى زمانه من فقه وحديث ولغة وأصول وغيرها من العلوم حتى تأهَّل لأن يكون أهلاً لحمل الرسالة التى كلَّفه بها شـــيوخه، كمـــا انجلى لى قدرته على فهم واقعه الذى يريد تغييره وحدد أولويات المرحلة التى هو فيها وشرع فى إصلاحها، كما أنه استوعب الظروف السياسية فى زمانـــه, واستطاع أن يستفيد منها لدعوته.

فينبغى على العاملين فى الدعوة الإسلامية أن يكون لهم وعى سياسى بواقعهم، وخبرة بالأساليب الحركية والتنظيمية, ومهارة فى التخطيط المـــنظم المتزن حتى نستطيع أن نواجه العدوان الشرس المُوجَّـــه لأمتنـــا الإســـلامية ونتصدى له بأسلوب كله حكمة وحنكة.

ومن هنا يتوجب على الأخ الداعية، أن تكون عنده قدرة علـى الفهـم والتجارب والسرعة فى التنفيذ، وأن يتسلح بالمعرفة التامّة، وأن يفهم دعوتـه حق الفهم كى يستطيع أن يُبلغّها حق التبليغ، قال عمر ﷺ: «لست بالخِبِّ, ولا الخِبُّ يخدعني».

٢- النظر الثاقب والقدرة على الوصول للقرار الحاسم دون تردد:

ويظهر ذلك فى سيرة الفقيه عبد الله بن ياسين عنـدما طلـب فقهـاء سجلماسة ودرعة فى عام ٤٤٧هـ منه القدوم ليخلصهم من الحكـام والطغـاة الظلمة من زناتة المغراويين، ومن أميرهم مسعود بن أنودين، فجمع ابن ياسين شيوخ قَومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة، فأشاروا عليه بمدِّ يـد العـون لهم، وقالوا له:

«أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر على بركة الله»؛ فأخـذ قـراره الحاسم, وتحركت جموع المرابطين فى شهر صفر سنة ٤٤٧هـ إلـى بـلاد درعة، واشتبكت مع المغراويين الذين انهزمـوا أمـام المـرابطين وتـشتت جموعهم, ودخل ابن ياسين سجلماسة، وأصلح أحوالها وقدَّم عليها عاملاً مـن أتباعه وجعل فيها حامية من جنوده ورجع إلى الصحراء[48].

فعلى العاملين فى الدعوة الإسلامية, الاتصاف بصفة النظـر الثاقـب، وسرعة اتخاذ القرار الحاسم دون أى تـردد، ودون أى ريـب، لأن الداعيـة الربانى ينظر بنور الله، وهذا النُّور الإلهي، إذا حلَّ فى قلب المؤمن يولِّد فيـه البصيرة الثاقبة, التى يعرف بها الحقائق، ويزن بها الأمـور، ويـدركُ بهـا الصِّعاب[49]. ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥].

---

(48) تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين, حمدي عبد المنعم، ص (٤٢).

(49) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله, ص (٦٣).

د - الصفات الحركية التى ظهرت للباحثين فى شخصية ابن ياسين:

١ - الشعور بالمسئولية:

وبدأ الشعور بالمسئولية فى حياة ابن ياسين منذ أن رغب فى التحصيل والتزوُّد للعلم والاستعداد للدعوة, وازداد ظهور ذلك فى شخصيته عندما دخل مع الأمير يحيى ابن إبراهيم فى قبائل المُلَثَّمين حيث تولد فى أعماقه شعور بمسئولية الدعوة فى هذه الأمة الجاهلة من قبائل صنهاجة، وكان شعورًا جرى فى عروقه جريان الدم، فأحسَّ بعظمة التكليف, وأعباء المسئولية فقام بأدائها خير أداء.

إن الأمة الإسلامية فى هذه الأيام بمسيس الحاجة إلى العناصر التى تتحرك ذاتيًا نحو مسئوليتها، وبحاجة إلى عناصر تتقد نفوسها شعورًا وإحساسًا بواجباتها الإسلامية، وبحاجة إلى عناصر يغلى فيها الشعور لهذا الدِّين، وهى تريد عناصر لا يهدأ تفكيرها للعمل لهذا الدين ساعة من ليل أو نهار.

فالشعور بالمسئولية أمر لابُدَّ منه لكل داعية نذر نفسه لله ولرسوله ولدينه، وعليه أن يتحرك فى هذه الحياة بمقدار ما يحمله من مسئولية, لأن حياة الداعية هى التحرك للإسلام لا القعود ولا الهمود[٥٠].

وقد أحسن الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى عندما قال:

قلتُ الحياة هى التحرك	لا السكون ولا الهمود
وهى الجهاد وهل يجاهد	من تعلق بالقعود
وهى التلذذ بالمتاعب	لا التلذذ بالرقود
هى أن تذود عن الحياض	وأى حر لا يذود

[٥٠] المصدر السابق, ص (٧١-٧٢-٧٣).

هي أن تحس بأن كأس الذل من ماء صديد
هي أن تعيش خليفة في الأرض شأنك أن تسود[٥١]

٢- النظام والدقة:

وظهرت صفة النظام والدقة في شخصية الفقيه ابن ياسين عندما تكاثر عدد المريدين في رباطه الذي اتخذه قريبًا من نهر السنغال؛ حيث وضع شروطًا في قبول كل جديد كي يحفظ صفو جماعته من المُخَرِّبين، فكان ينتقي أطهر المُلَثَّمين نفسًا وأوفرهم قُوَّة وأقدرهم على تحمل المشاق، ومَن توفرت فيه الشروط واجتاز التجربة بنجاح يتولى تعليمه وتثقيفه من قرآن وسنة وتفسير وحديث وأحكام الدين[٥٢].

. وأصبح رباطه قمة في النظام والدقة, واختار لإدارته أحد الأمراء، وفي الأمور المهمة كان الأمر شورى بين الجماعة الإسلامية المرابطة.

إن ديننا الإسلامي حَثَّنا على النظام في كل شيء، ومن التطبيقات العملية على ذلك نأخذ مثال السفر، حيث أمر الإسلام الركب إذا كانوا ثلاثة أن يؤمروا عليهم أميرًا، حتى لا يختلفوا في الطريق وتتبعثر جهودهم، خصوصًا أن السفر, كما قال الرسول (ﷺ) ، قطعة من العذاب، فعملية التنظيم واختيار الأمير، لا شكَّ أنَّها عملية تريح المسافرين من أعباء كثيرة، قال (ﷺ) : «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»[٥٣]. فلابُدَّ إذاً من تعويد النفس وضبطها على النظام، فالمُسلِم لا يتربى تربية منظمة, إلا إذا كان في جماعة منظمة ذات ارتباط ونظام ودقة في كل شيء, وفي كل أمر، كما أن هذه الجماعة لها هدف جماعي، يتحقق بتعاون الفرد وانصهاره في بوتقة الطاعة والنظام[٥٤].

---

[٥١] الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، ص (٧٣).
[٥٢]،٣) دولة المرابطين ص (٢٧).
[٥٣] مسلم، كتاب المساجد, باب من أحق بالإمامة، (٤٦٤/١) رقم (٦٧٢).
[٥٤] انظر : الصفات اللازمة للدعاة، ص (٧٥).

٣- القدرة على التعامل مع الناس:

تميَّزت شخصية الفقيه ابن ياسين بمقدرته فى تعامله مع أصناف النّاس من أمراء وعوام وتجار وغيرهم من طبقات المُجْتَمَع الصنهاجي. كان - رحمه الله- رقيق الشعور، ثائر العاطفة، يقظ القلب، بعيد الآمال، كبير المطامح فى الإصلاح، وكان كل همه أن ينتفع النّاس بعلمه ودعوته، ولذلك اختلط بالنّاس ودرس أخلاقهم وطبيعتهم عن كثب، وكان فى خطابه للنّاس متحليًا بمكارم الأخلاق بعيدًا عن التجريح والإساءة.

واتخذ من القرآن منهجًا فى أسلوبه ودعوته متمثلاً بقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وقد وصف نبيه الكريم (ﷺ) بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فليقتد الداعى المُسْلِم برسول الله (ﷺ)، وليكن شأنه وديدنه لمن يدعوهم, ويتحمل صدور أى أذى منهم.

٤- الاستعداد للبذل والتضحية بكل شيء:

نجد الفقيه عبد الله بن ياسين - رحمه الله- قد بذل نفسه وماله ووقته وحياته، وكل شيء فى سبيل الغاية التى خرج من أجلها إلى قبائل صنهاجة، وقد أيقن هذا الداعية الربانى أنه ليس فى الدنيا جهاد لا تضحية معه، إنّما هو الأجر الجزيل، والثواب الجميل.

إن المُسْلِم عندما يبذل ما فى وسعه من أجل دعوته ورضا ربه يرجو بذلك أعظم الدرجات عند الله, والفوز والخلود والنعيم المقيم بالجنة، وأعظم من

ذلك إحلال رضوان الله عليه، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۞ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٠-٢١].

إن الذين ضحوا وبذلوا وجاهدوا، استطاعوا أن يُغيِّروا مجرى التَّاريخ، ويبدلوا أفكار ومبادئ البشر الأرضية بمبادئ سامية ربانية.

فينبغي على العاملين في مجال الدعوة الإسلامية أن يجردوا أنفسهم من الهوى، وينفضوا أنفسهم من كل بهرج وزينة، وأن يبذلوا المال برضاء وسخاء، ويبذلوا العافية والصحة والسهر والتعب، والمسير المضني، لرفع دعوة الله، وإذا دعت الحاجة إلى بذل الروح فلا يضنون بها، بل يجعلونها رخيصة بجانب مغفرته ورحمته ورضوانه وجنته[٥٥].

لقد تعمَّدتُ الإسهاب في ذكر الصِّفَات اللازمة في الشخصية التي تريد أن تربي أمة وتنشئ شعبًا وتبني دولة، لعلَّ الله ينفعنا بالدراسة التحليلية للشخصيات الربانية التي ظهرت في أمتنا العظيمة.

[٥٥] انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، ص (٧٤ وما بعدها).

المبحث الخامس

المراحل التى مر بها ابن ياسين فى دعوته

نستطيع أن نقرر من الاستقراء التّاريخى لسيرته أنه مرَّ بعدة مراحل قبل أن تقوم دولة المرابطين، وبعض المراحل عاصرها وأشرف عليها وبعضها الآخر قام بها أتباعه المخلصون.

أما المراحل التى مَرّت بها دولة المرابطين قبل قيامها فهى مرحلة التعريف والتكوين والتنفيذ، أما مرحلة التّمكين فهى التى جعلت ملامح دولة المرابطين واضحة للعيان، إن المراحل التى عاصرها وأشرف عليها بنفسه هى مرحلة التعريف والتكوين وجزء من التنفيذ، أما بقية المعارك فقام بها تلاميذه المخلصون من أمثال أبى بكر بن عمر، ويوسف ابن تاشفين، وأمّا صاحب الفضل بعد الله تعالى فى مرحلة التّمكين والتوسع والانتشار الفعلى، فهو يوسف بن تاشفين منقذ الأَنْدَلُس من الضياع ومبيد الحركات الكفرية البدعية من الوجود.

أ- مرحلة الدعوة والتعريف بالإسلام:

قام ابن ياسين فى هذه المرحلة بتعريف النّاس بالعقيدة الإسلامية الصحيحة؛ موضحًا لهم أركان الإيمان الستة: «الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقضائه وقدره» على أصول منهج أهل السنة والجماعة، واهتم بتنقية العقيدة الإسلامية من اللوثات الشركية والوثنية التى خالطت عقائد المُلَثّمين فى تلك الفترة.

واهتم بتعليم النّاس الصلاة والزكاة وأحكام الصيام حيث وجدهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وحارب العادات السيئة التى تصطدم مع ثوابت الدين من زنى وزواج بأكثر من أربع، وغير ذلك من الأعراف والتقاليد

الممزوجة بالجهل والتخلف والضلال، وبذل جهدًا فى بيان أصـــول الإســـلام للنّاس وحاول جاهدًا أن يربطهم بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وأوضح للنّاس ضرورة الالتزام بالسنة وأنّها هى المبينة للقرآن الكريم، بل هى شرح وتفصيل للقرآن العظيم، وعمل على تفسير نصوص الدين بأسلوب يلائم عقول المُلَثَّمين, وأزال الشبهات التى تعلقت بأذهان النّاس من قبائل صنهاجة, وكان همه جمـــع النّاس على الإسلام ومبادئه والعمل به على العموم.

ودعا النّاس جميعًا إلى محبَّة كل أعمال الخير وكراهية كــل أنـــواع الشر.

ونستطيع أن نقول:إن هذه المرحلة فى دعوة ابن ياسين كانت انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وهذه الآية حدَّد الله بها وظيفة النبى (ﷺ) وواجبه, وكذلك الدعاة مـــن أمته من بعده, حيث نجد الداعية الفقيه ابن ياسين سلك فى دعوته هذه الأمـــور أو الوظائف أو الواجبات وهي:

١- تبليغ وحى الله على النّاس، وذلك فى قولـــه تعـــالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا...﴾.

٢- تزكية نفوس النّاس وتطهيرها وتنميتها بالخيرات والبركات فى الـــدنيا والآخرة, بحيث يصير الإنسان فى الدنيا مستحقًا للأوصاف المحمودة، وفى الآخرة الأجر والمثوبة وذلك فى قولـــه – ســبحانه وتعـــالى-: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾.

فالداعية إلى الله يطهِّر نفوس النَّاس بوحى الله، وينمى أرواحهم وأقــوالهم وأبدانهم، ويرتفع بهم إلى المستوى الذى يليق بكرامة الإنسان، الذى كرَّمه ربه وفضَّله على كثير ممن خلق.

٣- التعليم، تعليم النَّاس العلم النافع، أى القرآن والحكمة، وذلك فى قولــه سبحانه من هذه الآية: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

فهو واجب النبى (ﷺ) , وواجب الدعاة إلى الله إلى يوم الدين، و«الكتاب» هو القرآن الكريم، وهو هديً لِلنَّاس؛ كل النَّاس, إذ ما من خير للبــشرية فــى دينها ودنياها إلا أمر به القرآن، وما من شيء من هذا وذاك إلا اشتمل عليــه القـــــرآن: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ و﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ و ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقد سُمى القرآن الكريم قرآنًا من بين كتب الله؛ لأنَّه جمع ثمرة هذه الكتب كلها، بل جمع ثمرة العلوم والمعارف كلها، إذ القرآن معناه الجمع والإثبات.

والحكمة هي: إصابة الحق بالعلم والعقل، ولها معان، فهى من الله سبحانه: معرفة الأشياء وإيجادها، على غاية ما يكون الإحكام، ومن الإنسان: معرفــة الموجودات، والعلم بها، وفعل الخيرات. و«الكتاب والحكمة» بهذه المعانى هما تنوير الأذهان بما تفتقر إليه من هدايات فى عالمى الغيب والشهادة، وكم كانت قبائل صنهاجة محتاجة لهذه الهدايات التــى أصــلحت اعتقادهــا وتــصورها ومنهجها، وأصبحت قبائل تحمل أهم رسالة ودعوة ربانية بفضل الله عليها ثــم بجهود المخلصين من أمثال الفقيه ابن ياسين.

٤- واجتهد ابن ياسين – رحمه الله – فى نقل النَّاس من ضلال الباطــل إلى طريق الحق، ومن ظلام الجهل إلى نور العلم مسترشدًا بقول الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أى يُبَصِّرُكم بحاضــركم، ويرسم لكم أسلم طريق لمستقبلكم.

كان أثر التربية القرآنية واضحًا فى شخصية ابن ياسين - رحمه الله - حيث نجده فى تبليغ رسالات الله لا يُداهن ولا يُجامل, بل يأخذ بجميع الأخلاق الشرعية، ويتوكل على الله في الصدع بكلمة الحق, وكأن بين عينيه قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وكان يشعرُ فى قرارة نفسه بالإثم والمعصية إن قعد وكتم ما علّمه الله - سبحانه وتعالى-وهذا من أثر القران فى نفسه حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩].

والآية واضحة فى بيان أن مَن عرف الحق، فقد وجب عليه أن يُبينه للنَّاس، ومَن لم يفعل فقد أثِم.

إننا محتاجون بأن نتربى على آيات الله، لنفهمها ثم لننطلق فى دنيا الناس عاملين بها ابتغاء مرضاة الله، وطمعًا فى ثوابه ورغبة فى جنته، وخوفًا من عقابه وشفقة من ناره.

نعى الله تعالى فى كتابه العزيز على أهل الكتاب عدم بيانهم أحكام الله للنَّاس وكتمانها مقابل ثمن قليلٍ من متاع الدنيا, فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وهكذا يا أخى الكريم نجد القرآن الكريم فى تربيته للدعاة إليه يرغبهم ويرهبهم، فتنطلق القلوب تسعى للمثوبة والدرجات العلى؛ لأن ما عند الله خير وأبقى.

كما نجد الأحاديث النبوية التى تربى عليها ابن ياسين وتلاميذه مشجعة لهم فى السعى الدءوب من أجل إكمال مرحلة التعريف بنجاح.

فإن السنة النبوية المطهرة شارحة القرآن وقد فاضت بالأحاديث فى هذا المجال.

روى الإمام البخارى بسنده، عن عبد الله بن عباس -رضى الله عنهما-، فى باب: تعريف النبى (ﷺ) وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان، والعلم، ويخبروا مَن وراءهم، قال مالك بن الحويرث- وهو من بنى عبد القيس- قال لنا النبى (ﷺ) : «ارجعوا إلى أهليكم فعلّموهم».

عن ابن عباس قال: «قال النبى (ﷺ) لما قَدِم إليه، وفد عبد القيس: مَن الوفد, أو مَن القَوم؟» قالوا: ربيعة, فقال: «مرحبًا بالقَوم، أو الوفد، غير خزايا ولا ندامى»، قالوا: إنا نأتيك من شقة بعيدة، وبيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر، ولا نستطيع أن نأتيك إلا فى شهر حرام، فمرنا بأمر نخبر به مَن وراءنا ندخل به الجنة، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله عز وجل وحده، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وإن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وتعطوا الخمس من المغنم».

ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت، قال شعبة: ربما قال: «النقير» وربما قال: «المقير» قال: «احفظوه وأخبروه مَن وراءكم»[٥٦].

وهذا الحديث النبوى الشريف نهج للقَوم لمعرفة أصول الدعوة فى مرحلة التعريف ومعالجة الأمراض بالمُجتَمَع، حيث كانت عادة شرب الخمر قد انتشرت فى ربوع هؤلاء القَوم انتشار النار فى الهشيم، ولذلك نهاهم رسول

---

[٥٦] مسلم : كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله، (٤٦/١) رقم (١٧).

الله (ﷺ) عن الدباء والحنتم والمزفت التى كانت عبـارة عـن أوانٍ لـشرب الخمر، ومن مثل هذا الحديث يستلهم الدعاة أولويات مرحلـة التعريـف فـى الدعوة إلى الله تعالى، وغيره من الأحاديـث الكثيـرة والإرشـادات النبويـة الكريمة.

استمرَّ الفقيه ابن ياسين فى تعريف النّاس بأصول دينهم وأحكامه والأخلاق التى تطلبها شريعتهم وحارب التقاليد والأعراف السيئة بكل شجاعة وجرأة.

إلا إن الله تعالى ابتلاه بقَوم غلاظ الأكباد قساة القلوب فاصطدمت دعـوة المصلح الفقيه بأطماعهم؛ فتعرَّض للتضييق والشدَّة والعسف من بعض وجهاء قبائل صنهاجة من قبيلة جدالة وحاولوا قتله إلا إن الله نجاه منهم.

فأشار الأمير المخلص والتلميذ الوفى يحيى بن إبراهيم على ابن ياسين أن يذهبوا إلى جزيرة فى حوض السنغال ليتربى الأتباع فيها ابتغاء مرضاة الله والدار الآخرة.

وقال له: إن الجزيرة إذا حسر البحر دخلنا إليها على أقدامنا وإذا امتلأ دخلنا فى الزوارق، وفيها الحلال المحض الذى لا تشك فيه من الشجر البـري وصيد البر والبحر من أصناف الطير والوحوش والحوت[٥٧].

وبذلك يكون ابن ياسين – رحمه الله – ترك ديار المُلَثّمـين واختـار جزيرة في حوض نهر السنغال للمرابطة وتربية المريدين على كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) ، بعد أن ترك صدى ودويًا لدعوته في ديار المُلَثّمين، وبذلك قرَّر ابن ياسين أن ينتقل إلى مرحلة التكوين مختارًا مكانًا مناسـبًا لهـذه المرحلـة المهمة فى تاريخ دولة المرابطين بعد أن نجح فى مرحلة التعريف فى إبـلاغ الدعوة والتعريف بها لهم.

---

[٥٧] انظر: دولة المرابطين، ص (٢٣).

ب- مرحلة اختيار العناصر التي تحمل الدعوية عند الفقيه ابن ياسين:

تمهيد: اشتهر فى تاريخ المرابطين ما يُسمى برباط ابن ياسين، وقبل أن نتعرض لرباط ابن ياسين الذى اتخذه فى مرحلة التكوين أرى من باب الفائدة للقارئ الكريم أن يأخذ فكرة مختصرة عن معنى الرّبَاط فى الإسلام.

الرباط: حصن حربى يُقام فى الثغور المواجهة للعدو للذود عن ديار المُسْلِمين، وهذه التسمية مقتبسة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة:

أما القرآن الكريم فمن قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ومن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وفى الحديث النبوى فى البخارى جاء فضل الرّبَاط فى سبيل الله تعالى عن سهل بن سعد الساعدى ﷺ أن رسول الله (ﷺ) قال: «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»[٥٨].

وأصبحت كلمة مرابط تطلق على الشخص الذى خرج إلى الثغور للدفاع عن المُسْلِمين من أعدائهم، وأطلق المُسْلِمون على الثغر أى المحل الذى يقيمون فيه اسم الرّبَاط.

ويحتوى الرّبَاط على برج مراقبة وحصن صغير، وقد أقام ولاة الثغور كثيرًا من هذه الرُّبُط لحماية حدود الدولة الإسلامية على مرّ التّاريخ، فكان فى بلاد ما وراء النهر عشرة آلاف رباط، وكذلك فى ثغور الجزيرة

---

[٥٨] رواه البخاري فى كتاب الجهاد والسير (ج٣/٢٩٥)، حديث رقم (٢٨٩٢).

الفراتية، وكانت سواحل المغرب المطلّة على البحر المتوسط عرضة لغـــارات البيزنطيين أكثر من غيرها, فأقيمت فيها الرُبُط وشحنت بالمجاهــدين للــدفاع عنها، حتى إن الصَّحَابِى الجليل عقبة بن نافع الفهرى عندما أراد بناء مدينـــة القيروان بلغت الحماسة برجاله فاقترحوا عليه إقامتها على الساحل للمرابطـــة فيها، وقالوا له: قرّبها من البحر ليكون أهلها من المرابطين».[59]

وقد توسّعت الرُبُط في عهد العباسيين، وبنى الوالى العباسى هرثمة بن أعين أول رباط فى إفريقية عام (١٧٩هـــ / ٧٩٥م)[60] وتوسّع الأغالبة فى هذا المجال توسُّعًا عظيمًا، وأقام الوالى زيادة الله الأغلبـــى ربـــاط سوســـة عـــام (٢٠٦هــ/ ٨٢٢م).

وكان الأغالبة يسمون هذه الرُبُط بالقصور والمحاريس، وقد انتــشرت من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، وكان أهالى الشّمال الإفريقـــى يلجـــأون إليها إذا داهمهم الغزاة، وقد قاومت هذه الثغور أساطيل وجيوش البيـــزنطيين الذين عجزوا رغم تفوقهم البحرى عن احتلال الساحل الإفريقي، وقـــد التـــزم المقيمون فى هذه الثغور بالاهتمام بالفروسية والتدريب عليها خاصّة، بالإضافة إلى كل التدريبات الجهادية الأخرى التى أهلتهم للقيام بمهماتهم على أكمل وجه من الذود عن حياض المُسْلِمين والجهاد فى سبيل الله.

وإلى جانب المهمات الجهادية التى قامت بها الثغـــور فقـــد اهتمـــت بالناحية العِلمِيَّة، فمع انتشارها أخذت التعاليم الإسلامية تنتشر من خلالها، وقد قام فقهاء أهل السنة والجماعة فى تلك الثغور من فقهاء المالكية بدور ريـــادى عظيم فى وجه التيارات الفكرية والمذهبية التى عصفت بالمـــشرق، وكانـــت الرُبُط والثغور والقلاع والحصون هى المنطلق لنشر ما كان عليه رســـول الله (ﷺ) وأصحابه من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملة، وأصـــبحت الثغـــور فـــى

---

[59] انظر: المالكي، رياض النفوس، ص (٦).

[60] دائرة المعارف الإسلامية مادة رباط، ص (١٩).

الشّمَال الإفريقى مدارس علمية تدرّس أمور الدين من فقه وحـديث وتفـسير وأصول وغيرها، وكانت حياة أهل الثغور تقوم على أساس من التعاون بـين أفرادها لتحقيق حياة إسلامية مثالية، وكان الأفراد يجمعون المؤن بأنفسهم عن طريق الصيد البرى والبحرى حسب موقع الرّبَاط، وكذلك يقومـون بإعـداد الطعام، وكل ما تتطلبه عمليات التموين من زراعة وصناعة آلاتها بالإضـافة إلى صناعة الأسلحة[٦١].

وأمّا من ناحية العبادة، فالجماعة التى التزمت بالرّبَاط مؤمنـة بربهـا وبرسالة الإسلام، فكانت العبادة تقتصر على الصلوات الخمس جماعـة، وقـد وضعت عقوبات لمن يتأخّر عنها.

وفى أوقات السلم كانوا يحفظون القرآن وتفسيره وكل ما يمـت إلـى الدين بصلة، ويقُومون بالمهمات التى تتعلق بحياة الرّبَاط، وبما أن التبشير بهذا الدين والدعوة إليه من أهم واجباتهم؛ فكانوا يخرجون إلـى القبائـل لهـدايتها وترغيبها فى الإسلام وتربيتها عليه، وقد أدّت الثغُور فى الـشّمَال الإفريقـى خدمات جليلة للإسلام وللمُسلِمين، فقد عصمت أهل المغرب إلى حد كبير مـن الفِتَن التى سادت المشرق، وكان لمنهج أهل السنة والجماعة شـوكة وحمـاة وعلماء وفقهاء فى تلك الربوع من عالمنا الإسلامي، وتميّز أهل الثغور عـن غيرهم بالزهد والتقشف والتفانى فى سبيل الله، ولا يبتغى أهلها من النّاس من وراء ذلك جزاء ولا شكورًا، وإنما لسان حالهم: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾[٦٢].

[٦١] انظر: دولة المرابطين، ص (٢٤، ٢٥).
[٦٢] انظر: المصدر السابق، ص (٢٧).

١ـ رباط عبد الله بن ياسين:

أقام الفقيه العالم الرَّبانى المربى المجاهد ابن ياسين رباطه فى الحوض الأدنى لنهر السنغال، وموقعه يدلُّ على أهداف ابن ياسين التى أعد لها، فهو يقع قريبًا من مملكة غانة الوثنية، لذلك فهو مُهدَّد دائمًا بالأعداء، ولابُدَّ للجماعة المقيمة فيه من الجهاد، وهو غير بعيد عن ديار المُلَثَّمين، فيستند إليهم فى حالات الخطر، وتشكل تلك الديار موردًا بشريًا لا ينضب لمن يريد الانضمام إليه، وهذا يفسر كثرة عدد رجاله.

دخل ابن ياسين الجزيرة التى فى الحوض الأدنى لنهر السنغال عام (٤٣٣هـ/ ١٠٤٠م) ومعه أتباعه المخلصون، ثم بدأ الانضمام إلى جماعته من أبناء المُلَثَّمين، وتكاثر عدده حتى بلغ الألف رجل، ولما كثر أتباعه، وضع ابن ياسين شروطًا رآها لازمة لكي لا يتأثر تنظيم رباطه الجديد ومرحلته التى بدأ الشروع فيها، فكان ينتقى أطهر المُلَثَّمين نفسًا وأوفرهم قُوَّة وأقدرهم على تحمل المشاق، كان يطلب منهم أن يتخلوا عن تقاليدهم وأعرافهم وتصوُّراتهم التى تخالف الإسلام، ويدخلوا الإسلام بقلوب صافية ونفوس طاهرة وهمم عالية تسعى لتحكيم شرع الله على وجه المعمورة[٦٣].

وعمل جاهدًا على تحكيم شرع الله على الأفراد وفى مُجْتَمَعه الجديد، وكان يرى أن مَن فاتته صلاة من عمره عليه أن يقضيها، وهى مسألة فقهية اختلف علماء الأمة فيها، فمنهم مَن يكتفى بالتوبة النصوح، ومنهم مَن يطلب قضاء ما فات.

وكان ابن ياسين يهتم اهتمامًا بالغًا بالفقهاء والعلماء ويرفعهم إلى مراتب عالية حيث التف حوله مجموعة من الفقهاء والعلماء ليساعدوه على تربية النَّاس وتعليمهم وتأهيلهم للمرحلة القادمة.

---

[٦٣] انظر: دولة المرابطين، ص (٢٧-٢٨).

وكان لا يمنعه الحياء من طرد مَن لا يراه مناسبًا لهدفه المنشود.

وكان أهل الرِّبَاط فى قمة الصفاء الروحي, ويعيشون حياة مثالية فـــى رباطهم، فيتعاونون على قوتهم اليومى معتمدين على ما توفِّرُه لهم جزيـــرتهم من الصيد البحري، يقنعون بالقليل من الطَّعام، ويرتدون الخشن من الثياب[٦٤].

كان رباط السنغال الذى أسَّسه الداعية الرَّبانى ابن ياسين منارة يـــشع نورُها وخيرها وعلمها فى تلك الصحارى القاحلة، فأصبح قطبًا جذابًا؛ عـــاملاً على جذب أبناء قبائل صنهاجة إليه، .ووفر الأمن والاستقرار فى تلك الـــديار الصحراوية البعيدة، فأصبحت القوافل تمرُّ بأمن وسلام دون أن يتعرض لهـــا أحد بسوء، وقد أدَّى ذلك إلى ازدهار التجارة.

وتميَّزَ ذلك الرِّبَاط بحسن إدارته وتنظيمه وتشكيله مما ساعد على قُوَّة النواة الأولى لدولة المرابطين حيث تشكل مجلس الشورى, وجماعـــة للحـــلِّ والعقد تطورت مع مرور الأيام, وأصبحت مرجعية عليا لِلْمُلَثَّمِين.

٢ـ أصـول المنهجيـة العلميـة والفقهيـة عنـد الفقيـه ابـن ياسين التى ربى عليها أتباعه:

يُعتَبر الفقيه ابن ياسين من علماء أهل السنة والجماعة, مالكى المذهب، واستمدَّ أصول فهمه من أصول المالكية التى كانت ولا زالت ضاربة بجذورها فى قلوب أهالى الشَّمَال الإفريقي، إلاَّ أنـــه كانـــت لـــه اجتهاداتـــه الحركيـــة والتنظيمية التى أملتها عليه طبيعة دعوته التى عاشها وتحـــرك بهـــا، وبـــذلك نستطيع أن نقولَ عنه بأنَّه فقيه مالكى حركي، ويرى علماء المالكية الذين تتلمذ ابن ياسين على كتبهم وفقههم أن المذهب المالكى له أصـــول فـــى الاســـتنباط واستخراج الأدلة الشرعية ومن هذه الأصول:

---

[٦٤] المصدر السابق نفسه.

المصدر الأول: القرآن الكريم: كان الإمام مالك يرى أن القرآن قد اشتمل على كليات الشريعة، وأنه عمدة الدين، وآية الرسالة، ولم تكن نظرته إليه كنظرة الجدليين، فابتعد عن نظر المتكلمين، هل القرآن لفظ ومعنى, أو معنى فقط، وهو عنده اللفظ والمعنى، كما هو إجماع مَن يعتدُّ بهم من المُسلِمين، ورُوى أنه كان يقول: إن مَن يقول بأن القرآن مخلوق فهو زنديق يجب قتله، ولذا لم يعتبر الترجمة قرآنا يُتلى تجوز به الصلاة، بل هى تفسير أو وجه من وجوه المعنى المعقول، وهو يأخذ بنص القرآن، وظاهره ومفهومه، ويعتبر العلة التى يأتى التنبيه عليها[65].

إن القرآن الكريم هو المرجعية العليا لابن ياسين وأتباعه وكان موقفهم الإذعان والتسليم لكل ما جاء فيه، وما يتعلق بالعقائد أو العبادات أو الأخلاق أو المعاملات, فالقرآن الكريم لم يفرّق بينها, فكلُّها تتضمن كلمات الله الهادية إلى أقوم سبيل، الداعية إلى كل هدى ورشد، والمحذِّرة من كل ضلالة وغي، فكان وأتباعه على بينة من ربهم وبصيرة من دينهم؛ فلم تتحير عقولهم أو ترتاب قلوبهم، أو يتردد عزمهم فى أى تصور أو معتقد أو خلق أرشد إليه القرآن، لإيمانهم العميق بقوله تعالى: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:42].

وكان تدبُّرُ ابن ياسين وفقهاء المرابطين للقرآن الكريم معينًا لهم على استنباط الأحكام الشرعية.

قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص:29]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ

---

[65] انظر: تاريخ التشريع، مناع القطان، ص (291).

اختِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]. وقال عز وجـل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤].

لقد فهم المرابطون أن القرآن الكريم لم ينزل ليُتلى على الأموات، بل نزل ليحكم الأحياء، وأنَّه لم ينزله الله تعالى إلا من أجل اتباعه والعمـل بــه، وبذلك ينال المُتبع والعامل به رحمة الله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَـاهُ مُبَـارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

إن الله تعالى حدد فى كتابه أهداف القرآن الكريم فى الحياة والمُجْتَمَـع فــى عبـارات أبْـيَن مــن الـشمس فــى رابعــة النهــار، فقــال تعــالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النـسـاء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]. وقال تعــالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۞ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩-١٠].

إن من أسباب قُوَّة المرابطين وتوفيق الله لهم تمسكهم بكتاب الله.

المصدر الثانى: السنة النبوية: اعتمد المرابطون وخصوصًا فقيههم الأكبر ابن ياسين على السنة النبوية فى استنباط الأحكام الشرعية وألزموا أنفسهم وغيرهم بمنهج الله تعالى.

والسنة عند المرابطين: هي المنهج النبوى المفصل فى تعاليم الإسلام وتطبيقه وتربية الأمة عليه، والذى يتجسد فيه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

ويتمثل ذلك فى أقواله (ﷺ) وأفعاله وتقريراته.

فالقرآن: هو الدستور الذى يحوى الأصول والقواعد الأساسية للإسلام وعقائده وعباداته، وأخلاقه، ومعاملاته، وآدابه.

والسنة: هى البيان النظرى والتطبيق العملى للقرآن فى ذلك كلّه.

ورأى علماء المرابطين وجوب اتباع الرسول (ﷺ) فى أقواله وأفعاله وتقريراته مستندين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩].

وجعل طاعته طاعة لله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

وجعل - سبحانه وتعالى - طاعته الاهتداء: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:٥٤].

وجعل - سبحانه وتعالى - اتباع النبى (ﷺ) دليلاً على محبة الله ومغفرته: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١].

وأمرهم باتباعه فيما أمر ونهى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر:٧].

وأمرهم بالاستجابة لدعوته،واعتبر ما يدعوهم إليه هو الحياة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤].

ولم يجعل لمؤمن ولا مؤمنة خياراً في قبول حُكمه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦].

وأقسم على نفي الإيمان عمَّن أعرض عن تحكيمه، أو لم يقبل حُكمَه راضياً مُسلِّماً: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

وجعل –سبحانه وتعالى – قبول حُكمه أو التولي عنه المحكَّ الذي يميز الإيمان من النفاق؛ قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [النور:٤٧ – ٤٨]. ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٥١].

وحث على الاقتداء بالنبي (ﷺ): ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

ودلَّت أحاديث كثيرة على وجوب اتباع النبي (ﷺ)، ولذلك سعى المرابطون لتحقيقها في حياتهم، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة أن النبي (ﷺ)

قال: «كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي، قيل: ومَن يأبى يا رسول الله؟ قال: مَن أطاعني دخل الجنة، ومَن عصاني فقد أبى»[٦٦].

ومن ذلك ما رواه العرباض بن سارية قال: «وعظنا رسول الله (ﷺ) موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنَّها موعظة مُودِّع: فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسَّمعِ والطاعةِ، وإن تأمَّر عليكم عبد، وإنَّه مَن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومُحدَثات الأمر، فإن كل بدعة ضلالة»[٦٧].

إن قبائل صنهاجة الذين عُرفوا بالمُلَثَّمين ثم أُطلق عليهم اسم المرابطين ظهرتْ آثار التزامهم بسنة النبى (ﷺ) فى كل مناشط حياتهم؛ فى التعلم والتزكية والجهاد والسياسة, وغيرها من الأمور التى كوَّنوا بها دولتهم المعروفة.

المصدر الثالث: عمل أهل المدينة: الذى اهتمت به المدرسة المالكية المغربية السُّنيَّة عمومًا عمل أهل المدينة حيث إنَّها دار الهجرة، وبها تنزل القرآن، وأقام رسول الله (ﷺ) ومعه أصحابه بها، وأهل المدينة أعرف النَّاس بالتنزيل، وبما كان من بيان رسول الله (ﷺ) ، على هذا رأى المالكيُّون أن عملهم بالاقتداء بعلماء أهل المدينة فى أقوالهم وأفعالهم حجة، وقدَّموا ذلك على القياس، وعلى خبر الواحد، وفى كتاب الإمام مالك إلى الليث ابن سعد الفقيه المصري: «إن النَّاس تبع لأهل المدينة، التى إليها كانت الهجرة، وبها تنزل القرآن»[٦٨].

---

[٦٦] أخرجه البخاري (٧٢٨٠).
[٦٧] أخرجه أبو داود (٤٦٠٧), والترمذي (٢٦٧٦).
[٦٨] انظر: تاريخ التشريع الإسلامي، ص (٢٩١-٢٩٢).

وسار فقهاء الدولة المرابطية وعلى رأسهم الفقيه عبد الله بـن ياسـين على هذا الطريق ولم يُغيِّروا أو يبدلوا أو يرضوا بغيره حولاً.

المصدر الرابع: قولُ الصحابي: جعل المالكية قول الصَّحَابِي الذى لا يعرف له مخالف حجة، واعتمدوا فى ذلك على ما ذكر الإمام مالك فى «الموطأ» حيث اعتمد فى كثير من فتاويه على العديد من أقوال الصَّحابَة الـذين هـم أعلـم بالتأويل وأعرف بالمقاصد.

وحين تتعدد أقوال الصَّحابَة فى المسألة الواحدة يختار علماء المالكيـة من أقوالهم ما يتفق مع عمل أهل المدينة.

المصدر الخامس: المصالحُ المُرْسَلَة: اعتبر المالكية المصالح المرسلة دلـيلاً شرعيًا ومارسوها ممارسة عملية فى الحياة، وأصلُّوا لها أصولاً فـى جلـب المنفعة، ودفع المفسدة، وقاسوا بهذه القواعد الأمور التى لم يشهد لها الـشرع بإبطال ولا باعتبار مُعيَّن، لأن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها فـى الخلق، والمقاصد إما ضرورية أو حاجية، أو تحسينية.

والضرورية: هى التى لابُدَّ منها فى قيام مصالح الدين والدنيا فى الضروريات الخمس فى الملل جميعًا وهي: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل.

والحاجية: هى التى تؤدى إلى رفع الضيق والحرج والمشقة.

والتحسينية: هى المتعلقة بمكارم الأخلاق وكون هذه المعانى مقصودة عـرف بأدلة كثيرة لا حصر لها من الكتاب والسنة، مما يدلُّ على مقاصد الشرع، ولذا ذهب المالكية إلى أن المصلحة تكون حجة، ويعتبر بعـض البـاحثين القـول بالمصلحة من خصوصيات مذهب المالكية.

المصدرُ السادس: القياس: وهو من أصول المنهجية العِلمِيَّة التى سار عليها ابن ياسين وربى عليها أتباعه.

المصدر السابع: سد الذرائع: سار عليه ابن ياسين فى منهجه العلمى فى تأصيل أصول فقه مذهبه, وسار على نهج فقهاء المالكية فى الاقتداء بالإمام مالك – رحمه الله – الذى أكثر إكثارًا شديدًا من العمل بسد الذرائع، حتى اعتبر بعض العلماء العمل بها من خصوصيات مذهبه, حتى وصفه الشاطبى بأنَّه كان شديد المبالغة فى سدّ الذرائع[٦٩].

ج- مرحلة المغالبة التى قام بها ابن ياسين:

بعد أن قطع ابن ياسين بأصحابه وأتباعه مرحلة التكوين العقدى والفقهى والحركي والتنظيمى والتربوي، وأصبح معه رجال يعتمد عليهم فى تبليغ دعوة الله على فهم صحيح لكتاب الله، وفقه واسع لسنة نبيه (ﷺ), ورغبهم فى ثواب الله تعالى، وطلب مرضاته، وخوَّفهم من عقابه، وتمكَّن حُبُّ الاتباع من قائدهم العالم الفقيه، بدأ ابن ياسين بإرسال البعوث إلى القبائل، لترغيب النَّاس فى الإسلام، فلبى مجموعة من أشراف صنهاجة هذه الدعوة المحكمة والتفوا حوله.

ثم أمر ابن ياسين أتباعه وتلاميذه أن يذهب كل منهم إلى قبيلته أو عشيرته يدعوهم إلى العمل بأحكام الله وسنة نبيه (ﷺ)، فلما لم يجدوا استجابة من أقوامهم، خرج إليهم بنفسه، فجمع أشياخ القبائل، ووعظهم وحذرهم عقاب الله، واستمرَّ فى ذلك سبعة أيام، فلم يزدادوا إلا فسقًا، فلمَّا يئس منهم أعلن الجهاد عليهم[٧٠].

تحرَّكت جموعُ المرابطين أولاً صوب قبيلة جدالة، حيث اشتبكوا معهم فى معركة شرسة وأوقعوا بهم الهزيمة، وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وانقاد الباقون لأحكام الإسلام، ثم سار ابن ياسين إلى قبيلة لمتونة فقاتلهم وانتصر عليهم، ودخلوا فى طاعة ابن ياسين، وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة، ثم مضى إلى

---

[٦٩] انظر: التشريع والفقه فى الإسلام، مناع القطان، ص (٢٩٤).

[٧٠] انظر: ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص (٨٥).

قبيلة مسوفة التى دخلت تحت لوائه وبايعوه على ما بايعته قبائل جدالة ولمتونة، فلما شهدت قبائل صنهاجة هذه الأحداث بادرت إلى مبايعة ابن ياسين على بذل الطاعة له، وقلدتها كثير من القبائل الصحراوية فى ذلك[٧١].

ووضع ابن ياسين خطة شاملة تركَّزت على توزيع النابغين من تلاميذه على القبائل التى دخلت فى دعوته ليعلموها القرآن وشرائع الإسلام، وبدأ ابن ياسين فى تخطيط الدولة التى شرع لتأسيسها على أسس شرعية ربَّانية، وفى ظنى أن الذى أسس الدولة المرابطية فعليًا ونفذ أحكامها الشرعية هو يوسف بن تاشفين، وهذا ما يتضح من خلال دراسة هذه الدولة البهية، ولما تُوفى الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، قدَّم ابن ياسين مكانه يحيى بن عمر اللمتونى وكان من أهل الدين والفضل، كما كان منقادًا فى جميع أموره لإمامه ابن ياسين[٧٢].

وبذلك أصبحت القبائل الصنهاجية فى المغرب الأقصى لها قيادة دينية وسياسية ومجالس شورى تُدبِّرُ دفتها وحركتها، فتطلعت لتوحيد المغرب الأقصى كله وإزالة كل عائق يمنعها من تحكيم شرع ربها.

الوضع السياسى فى المغرب الأقصى عند ظهور المرابطين:

كان المغرب الأقصى فى أوائل القرن الخامس الهجرى فى محنة سياسية ودينية؛ حيث ظهرت دعوات منحرفةٌ عن الإسلام وحقيقته وجوهره الأصيل، واستطاعت بعض الدعوات البدعية الكفرية أن تُشكِّل كيانًا سياسيًا تحتمى به, وأصبح المغرب الأقصى شبيهًا بالأَنْدَلُس فى زمن ملوك الطوائف، وكانت الطوائف التى سادت المغرب قبيل وصول المرابطين تتكون من أربع شوكات قوية لها وزنها فى المغرب الأقصى:

---

(٧١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس، د. حمدي عبد المنعم، ص (٤١).
(٧٢) انظر: دولة المرابطين, ص (٣١).

أولاً: قبائل غمارة فى الشّمَال.

ثانياً: قبائل برغواطة فى المغرب.

ثالثاً: قبائل زناتة وكانت تكوّن نطاقًا حول الطوائف السابقة لا سِيّمَا برغواطة.

رابعًا: طوائف الشيعة والرافضة والوثنيين فى الجنوب.

١ـ الطائفة الأولى: قبائل غمارة:

كانت تسكن جبال الرّيف الممتدة من ناحية البحر المتوسط من سبتة وطنجة غربًا، إلى وادى نكور بالقرب من المزمة أو الحُسَيْمة الحالية شرقًا، وتمتد بلادُهم جنوبًا إلى قرب فاس, وكانت غمارة بطنًا من بطون مصمودة وظهر فيها مشعوذون، وقصدتهم الخوارج للمنعة فى جبالهم، ووصفهم المُؤَرّخُون من أمثال ابن خلدون وغيره: بأنّهم: «عريقون فى الجاهلية؛ بل الجهالة، والبعد عن الشرائع بالبداوة والانتباذ عن مواطن الخير، وتنبّأ فيهم إنسان يعرف بحاميم بن مَنّ الله، ولُقّب بالمفتري، وفى رواية أخرى بالمقتدي– ولعلها هى الأصل ثم حُرّفت إلى المفترى – والجبل الذى تنبّأ فيه يُنسب إليه، وهو جبل على مقربة من تطوان، وأجابه بشر كثير من غمارة وأقروا بنبوته، ووضع لهم شريعة استهواهم برخصها، فردّ لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها، ووضع لهم قرآنًا بلسانهم «أى البربرى»، ومن تعاليمه أنه أحلّ لهم أكل أنثى الخنزير، وأسقط عنهم الحج والطهر والوضوء، وحرّم عليهم الحوت حتى يُذكى، وحرّم بيض كل طائر. . إلخ»[٧٣].

وقد قتل هذا المشعوذ الزنديق فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى فى طنجة فى حروبه مع قبائل مصمودة الساحلية على حد قول

---

[٧٣] انظر : الاستبصار فى عجائب الأمصار، لمؤلف مجهول، ص (١٩٠).

البكرى وابن خلدون، أو في حروبه مع جيوش الخليفة الأموى عبد الـرَّحمن الناصر على حد قول صاحب «الاستبصار»، وصاحب «مفاخر البربر»[٧٤].

واستمرَّت البدع الكفرية بالرغم من موت المتنبى المشعوذ وظهر أحد أبنائه ويُدعَى عيسى وكان مُبجَّلاً فى قَومه، وكانت قبائل غمارة غارقـة فـى الإباحيَّة بين النساء والرجال، وكان رجالهم يربون شعورهم كالنساء ويتخذونها ضفائر ويطيبونها ويتعممون بها. . . إلخ[٧٥].

٢ـ الطائفة البرغواطية:

كوَّنت هذه الطائفة الكافرة دولة لها فى القرن الثَّانِى للهجرة فى إقلـيم تامسنا أو ما يُسمى اليوم بالشاوية[٧٦]، وكانت دولتهم تمتدُّ من الرِّبَاط الحالية إلى ثغر فضالة الذى كان قاعدة لأسطولها، وتنتهى عند بلدة أزمور عنـد مَـصَبِّ وادى أُمّ الربيع.

ونجد أن المؤرخين اختلفوا حول اسم برغواطة، فبعضهم يرى بأنَّه لم يكن اسمًا لقبيلة مُعينة يجمعها أصل واحد أو أب واحد، بل كان اسمًا لأخـلاط من البربر اجتمعوا على شخص يهودى الأصل، ادَّعى النبوة، اسمه صالح بن طريف بن شمعون البرباطي، نسبة إلى وادى البرباط فى جنـوب الأَنْـدلُس؛ فصارت كلمة برباطى تُطلق على كل من اعتنق ديانتـه، ثـم حُرِّفَـت إلـى برغواطي[٧٧].

ويرى ابن خلدون أن برغواطة قبيلة من المصامدة وأن ملوكها كـانوا من مصامدة المغرب[٧٨].

---

[٧٤] انظر: كتاب الاستبصار، ص (١٩١-١٩٢)، ومفاخر البربر، ص (٧٧).
[٧٥] انظر: فى تاريخ المغرب والأندلس، د. العبادي، ص (٢٧٨).
[٧٦] المصدر السابق، ص (٢٧٩).
[٧٧] المصدر السابق، ص (٢٧٩).
[٧٨] ابن خلدون، العبر، (ج٢/٢١٠).

ومن عقائد هذه الطائفة الضالّة اعتقادهم بأن صالح بن طريف هو المقصود بقوله تعالى في سورة التحريم: ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم:٤]. وزعم زعيمهم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال المسيح الدجال، وأن عيسى ابن مريم يكون من أصحابه ويُصلّي خلفه.

وشرع لأتباعه صوم رجب, والأكل في رمضان، وفي الوضوء غسل السرة والخاصرتين بالإضافة إلى طريقة الوضوء عند المُسلِمين، وفرض عليهم خمس صلوات في النّهار وخمس صلوات في الليل، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود، وبعضها على كيفية صلاة المُسلِمين، وعند ابتداء الصلاة يضع الفرد إحدى يديه على الأخرى، ويقول بالبربرية: ابسمن ياكش، وتفسيره باسم الله، ثم مقر ياكش، أي الله أكبر، ويقولون في تسليمهم بالبربرية: أيحن ياكش، ووردام ياكش الله أحد لا مثيل له. كما وضع صالح بن طريف قرآنًا باللغة البربرية في ثمانين سورة أكثرها منسوب إلى أسماء النبيين، أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس.

وأباح لهم تزوُّج النساء فوق الأربع، وأباح لهم الطلاق، وحرّم عليهم زواج بنت العم، وزواج المُسلِمات، كذلك شرع قتل السارق، ورجم الزاني، ونفي الكاذب، وحرّم رأس كل حيوان، وحرّم ذبح الديك، والحوت أي السمك، ولا يُؤكَل إلا أن يُذكى «أي يذبح» والبيض عندهم حرام، وليس عندهم أذان ولا إقامة وهم يكتفون في معرفة الأوقات بصياح الديوك، ولذلك حرّموها إلى غير ذلك من التعاليم الشيطانية وإلى حدّ كبير تشبه ديانة حاميت المفتري في غمارة[٧٩].

---

[٧٩] نص على ذلك التشابه صاحب كتاب مفاخر البربر، ص (٧٧)، انظر : في تاريخ المغرب والأندلس، ص (٢٨١).

لقد كانت تعاليم هذه الدولة الكفرية متأثرة بتعاليم اليهود المنحرفة، وكذلك ببعض التعاليم الإسلامية حيث يمكننا أن نقول إنّها ديانة مشوّهة للإسلام تعمل للقضاء عليه، وكانت هذه الدولة عند أهل السنة والجماعة مجوسًا منحرفين مارقين عن الدين الحنيف، ولهذا فرضوا قتالهم واستحلوا دماءهم.

واستمرّت هذه الدعوة الكفرية منذ سنة ١٢٥هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك إلى ظهور أهل السنة المرابطين المُلَثّمين الذى قضوا عليهم قضاءً مُبرمًا، وقد ذكرت كتب التّاريخ أن حكام المغرب قبل مجيء المرابطين، كالأدارسة والأمويين والزناتيين قد قاتلوا برغواطة وأنزلوا بها هزائم منكرة وخسائر فادحة.

لقد قاسى المغرب الأقصى محنة كبيرة بسبب هذه الدولة الكفرية والطائفية البدعية وكان خطرها أشد وأقوى مما تصوّره كتب التّاريخ[80].

٣ـ الطائفة الثالثة: وهى الدولة الزناتية:

وهى تتكوّن من قبائل مكناسة ومغراوة وبنى يفرن وغيرها من القبائل الزناتية التى حكمت المغرب سنين بعد زوال نفوذ الأدارسة، حيث قامت بدور إيجابى فى حرب الدولة البرغواطية، إلا أن حكام هذه الدولة اشتهروا بالجور والظلم والتعسف فى آخر زمانهم[81].

٤ـ الطائفة الرابعة: طوائف الشيعة والوثنيين:

كان محلُّهم جنوب المغرب فى أقصى بلاد السوس، وكانوا عبارة عن أقليّات مُبعثّرة.

---

[80] فى تاريخ المغرب والأندلس، ص (٢٧٨).

[81] المصدر السابق، ص (٢٨٩).

أمَّا الشيعة فقد انتشروا في مدينة تارودانت ونواحيها وكانوا دعاة للفكر الشيعى الرافضي، وبعضهم يرجع جذورهم وأصول فكرتهم للدولـــة العبيديـــة الرافضية التى جاء ذكرها فى صفحات من التّاريخ الإســلامى فـــى الــشمّال الإفريقى «الدولة العبيدية الرافضية». لقد كان الصراع عنيفًا بين الشيعة وبين أهل السنة فى كل ناحية وضاحية ومكان فى المغرب كله، وتوج جهــاد أهــل السنة بالقضاء على الدولة العبيدية إلا أن بقايا جــذورهم أزالهـــا المرابطــون بقوتهم السُّنيَّة الميمونة، أما الوثنيون فكانوا يسكنون الأطلس الكبير فى جبــل وعر، وكان الوثنيون يعبدون الكبش، ويبدو أنّهم تأثروا بديانات مصرية قديمة كانت تعبد الكبش فى زمن الفراعنة ويسمونه الإله خنوم، فكأن طقوس هؤلاء الوثنيين وعباداتهم من رواسب مؤثرات مصرية قديمة[٨٢].

لقد اتضح لى فى دراستى التاريخيّة لبلاد المغرب أنّها كانت تعانى من تفكُّك سياسي، وتكونت دول طائفية منحرفة عن مناهج رب البريـــة، وكانـــت شعوب تلك الديار قد غرقت فى وحل الجهل، ومستنقعات الانحــراف وفــساد التصور، وضياع الأخلاق، وكثرة الظلم، وانتشار العــسف والجــور. وكـــان علماء وفقهاء المرابطين على علم ودراية، وقد وضعوا فى خُطّتِهم الجهاديـــة توحيد المغرب الأقصى والقضاء على الدولة الطائفية الكفرية، وإزالـــة الظلــم والجور والتعسف.

وعملوا على توحيد الديار المغربية وتربيتها على منهج سنى مـــالكي، ومحاربة المناهج الكفرية، والقضاء على المذاهب البدعية من خوارج ومعتزلة وروافض ومنعها من الانتشار أو أن يكون لها وجود.

---

[٨٢] المصدر السابق، ص (٢٩١).

د ـ الشروع في توحيد المغرب الأقصى:

في عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا إلى ابن ياسين يُرغّبونَه في الوصول إليهم ليخلص بلادهم مما تعانيه من الحكام الطغاة الظلمة؛ زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن واندين، فجمع ابن ياسين شيوخ قَومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة، فأشاروا عليه بمدّ يد المعونة لهم، وقالوا له: «أيُّها الشيخ الفقيه, هذا ما يلزمنا فَسِرْ بنا على بركة الله»[٨٣].

فخرجت جموع المرابطين في شهر صفر سنة ٤٤٧هـ إلى بلاد درعة، فتصدى لهم الأمير مسعود بن واندين بالقتال، وانتهت المعركة بهزيمة المغراويين ومصرع مسعود وتشتت جيشه، وأسرع ابن ياسين بدخول سجلماسة، وأصلح أحوالها، وقدم عليها عاملاً من لمتونة وحامية مرابطية ثم عاد إلى الصحراء»[٨٤].

وفي عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م تُوفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني فَعيَّن عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر مكانه للقيادة، ثم تأهّب أبو بكر لغزو بلاد السوس؛ ففي ربيع الثّاني سنة ٤٤٨هـ سار المرابطون صَوْبَ بلاد السوس، واختار أبو بكر بن عمر ابن عمه يوسف بن تاشفين ليتولى القيادة على مقدمة الجيش المرابطي، وكان ذلك أول ظهور ليوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين وقائد مرحلة التّمكين، وتمكنوا من احتلال اردوانت، وقضوا على الروافض والوثنيين، كما قاتلوا اليهود المنتشرين في تلك النواحي فأعادوا بذلك تلك المناطق إلى مذهب أهل السنة والجماعة[٨٥].

وسار المرابطون إلى مدينة أغمات، وكان أميرها يومئذٍ لقوط بن يوسف بن علي المغراوي وحاصروها, واضطر لقوط إلى الفرار عندما أيقن

---

[٨٣] انظر: موسوعة المغرب العربي (١٢٨/٢).
[٨٤] المصدر السابق، (١٨٢/٢).
[٨٥] في المغرب والأندلس، ص (٢٩٣).

عبث المقاومة، فخرج يتلمس النجاة فى أهله وحشمه تحت جنح الظلام، ودخل المرابطون أغمات عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م وأقاموا فيها ما يقـرب الـشهرين، وتحركوا حركات حربية مُحكَمة للقضاء على فلول المُغراويين، واسـتطاعوا قتل أمير أغمات وتزوج أبو بكر بن عمر من زينب النفراوية زوجـة لقـوط المغراوي.

ثم سار أبو بكر بن عمر فى جموع المرابطين إلى أرض برغواطـة وكان أميرهم يومئذٍ أبا حفص بن عبد الله بن أبى غفير بن محمد بـن معـاذ، ونشبت بين المرابطين والبرغواطيين وقائع ومعارك حامية الوطيس أصـيب فيها العالم الربانى والمقاتل الميدانى والفقيه الموجِّه ابن ياسين بجـراح أودت بحياته إلى الشهادة, نحسبه كذلك ولا نُزكِّى على الله أحدًا، حمل على إثر تلـك الجراح إلى مقرّ القيادة فى معسكر المرابطين، وقبل خـروج روحـه جمـع رؤساء وشيوخ المرابطين وحثّهم على الثبات فى القتال، وحذّرهم من عواقب التفرقة والتحاسد فى طلب الرياسة، ولم يلبث أن فارق الحياة[٨٦]، فعلى أمثـال هؤلاء الرحمة والمغفرة والرضوان من الرحيم الواحد المنـان. واتفـق رأى المرابطين على اختيار أبى بكر ابن عمر للرياسة مكان ابن ياسـين، وأجمـع شيوخ المرابطين على مبايعة أبى بكر, فجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية، بينما يؤكد كل من القاضى عياض وابن خلدون أن المرابطين اتفقوا فيما بينهم على تقديم الشيخ سليمان بن حدو، ليرجعوا إليه فى مشاكلهم وقضايا ديـنهم، وتولّى القائد الجديد الزعامة بهمة عالية وشجاعة فائقة، واسـتعداد للتـضحية والفداء من أجل إحياء دين الله على منهج النبوة، وطمس المعالم الكفرية للدولة البرغواطية، فأمر بتعبئة جيوشه المجاهدة وخرج لقتال واستئصال الكفر مـن بلاد المغرب، فأثخن فى جنود الدولة البرغواطية، وفرّق جمـوعهم، وكـسر شوكتهم، وأعلنوا الطاعة والولاء للدولة المجاهدة الجديدة، ثم قصد أبـو بكـر

---

[٨٦] تاريخ المغرب والأندلس، ص (٤٤).

مدينة أغمات، فمكث بها حتى شهر صفر سنة (٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م) ثم تابع سيره فى بلاد المغرب، يفتح البلدان والقرى وحصون الجبال، ففتح سائر بلاد زناتة، وفتح مكناسة، وحاصر مدينة لواتة ودخلها عنوة فى شهر ربيع الثانى سنة ٤٥٢هـ. ثم عاد إلى أغمات التى اتخذها قاعدة عسكرية للمرابطين ومقرًا للأمير وأخوته، وعندما امتلأت المدينة اتجه أبو بكر إلى اختيار عاصمة جديدة، فوقع على موضع مدينة مراكش الحالية، وشرع فى بنائها، فأتاه رسول من الصحراء يخبره بإغارة قبيلة جدالة على قبيلة لمتونة، فعيَّن ابن عمه يوسف, وأسرع من أجل الإصلاح بين القبائل المتنازعة، وقسَّم الجيش إلى فريقين، نصفه مع يوسف الذى شرع فى تأديب القبائل المغربية المتمردة من مغراوة وزناتة وبنى يفرن وغيرهم, ووقع اختياره على أربعة من القوَّاد هم: محمد بن تميم الجدالي، وعمر بن سليمان المسوفي, ومدرك التلكاني، وسير بن أبى بكر اللمتوني، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف من قبيلته، وسيرهم لتأديب تلك القبائل المتمردة، وسار فى أثرهم فغزوا قبائل المغرب قبيلة بعد قبيلة، وبلدًا بعد بلد، وكان بعضهم يفرون وبعضهم يقاتلونه, والبعض الآخر يدخلون فى طاعته.

واستمرَّ فى توحيد بلاد المغرب وسنرى جهوده الجهادية فى سيرته الميمونة.

أما أبو بكر فقد استطاع نشر الأمن فى الصحراء، وأزال الخلاف القائم بين لمتونة وجدالة، وتوسع فى جهاد قبائل السود الوثنية لتدخل فى دين الله؛ حيث صاول وجاول وقاتل الزنوج لتأمين حدود دولة المرابطين الجديدة بعد دعوة الزنوج للدخول فى الإسلام.

وبعد أن حقق أبو بكر بن عمر نجاحات هائلة فى مهمته الدعوية؛ رجع إلى المغرب الأقصى بجيوشه؛ فأكرمهم يوسف بن تاشفين إكرامًا يليق بالقائد الربَّانى أبى بكر بن عمر، واختار أبو بكر يوسف نائبًا عنه على حُكم

المغرب الأقصى، وأمره بالعدل والرفق بالمُسلمين, ثم ودّعه وعاد إلى الصحراء وقد زوّده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة، من المال والخيل والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب، والجواري والثياب الفاخرة والمؤن والدوابّ، وهناك استأنف الجهاد والغزو حتى قُتل في إحدى غزواته في سنة (٤٨٠هـ/١٠٨٧م)(٨٧).

قال ابن كثير في «البداية والنهاية» عنه -أي عن أبي بكر بن عمر-: «اتفق له من الناموس ما لم تتفق لغيره من ملوك, كان يركب معه إذا سار لقتال عدو خمسمائة ألف مقاتل، كان يعتقد طاعته، وكان مع هذا يقيم الحدود ويحفظ محارم الإسلام، ويحوط الدين ويسير في النّاس سيرة شرعية، مع صحة اعتقاده ودينه، وموالاة الدولة العباسية، أصابته نشابة في بعض غزواته في حلقه فقتلته»[88].

لقد كان أبو بكر بن عمر من أعظم قادة المرابطين، وأتقاهم وأكثرهم ورعًا ودينًا وحبًا للشهادة في سبيل الله، وساهم في توحيد بلاد المغرب، ونشر الإسلام في الصحاري القاحلة وحدود السنغال والنيجر، وجاهد القبائل الوثنية حتى خضعت وانقادت للإسلام والمُسلِمين، ودخل من الزنوج أعداد كبيرة في الإسلام, وساهموا في بناء دولة المرابطين الفتية، وشاركوا في الجهاد في بلاد الأندلُس, وصنعوا مع إخوانهم المُسلِمين في دولة المرابطين حضارة متميزة.

هـ- تأملات في مسيرة ابن ياسين الجهادية:

لقد سار ابن ياسين في دعوته لقبائل المُلَثّمين الصنهاجية سيرة حسنة نقية، وتدرّج بهم من مرحلة التعريف إلى التكوين ثم التنفيذ حيث شرع في قتال القبائل التي لم تحترم أو تُقدّس حرمات الله، وأزال المنكرات، واعتبر ذلك جهادًا في سبيل الله.

---

[87] ، (٢) البداية والنهاية، (١٤٣/١٢).

[88] البداية والنهاية (١٤٣/١٢).

وقد لاحظت أن إعلان الجهاد على القبائل التى تفشت فيها المنكرات جاء بعد إعداد وشورى من أهل الحل والعقد، وبعد أن أصبحت لهم شوكة قوية وإمام مطاع، ومجلس من العلماء والفقهاء يقلبون أمور السلم والحرب.

ويكفى هؤلاء الأبطال على صحة جهادهم ما رواه مسلم فى صحيحه عن النبى (ﷺ) : «ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمّته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنّها تخلف من بعدهم خُلوف، يقولون مالا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبةُ خردل»[٨٩].

إن حركة المرابطين كانت موفقة حيث استطاعت أن تنسق مع علماء وفقهاء سجلماسة لإسقاط الدولة الزناتية التى تفشى فيها الظلم والجور والعسف، فعندما رأوا من أنفسهم الاستطاعة والمقدرة على إزالة الظلم، ورأوا أن تحقُّقَ المصلحة كان أرجح، سارع الفقهاء والعلماء بالموافقة على مقترح ابن ياسين، وتدفّقت جيوش المرابطين، وتعاونت مع المستضعفين وطهّرت البلاد من هيمنة العابثين، ونشرت العدل بين المُسلمين، ورفعت الضرائب والمكوس عن المظلومين، وفى نظرى أن نجاح حركة المرابطين كان بتوفيق الله، ثم إن القيادة الفعلية للعلماء والفقهاء ومجلس الشورى الذى يُمَثّل أهل الحَل والعقد ممن شهدت لهم جموع المرابطين بأنّهم أهل لذلك كانت حساباتهم دقيقة، وفتاويهم موزونة، ومعاركهم مدروسة.

أما قتالهم لبرغواطة, وغمارة, ذات المعتقدات الكُفرية والانحرافات العقدية فهذا يعتبر من أعظم أعمالهم الجهادية, عندما وقفوا لإزالة الدولة الشركية واقتلعوها من جذورها، وبُدّلت بأصولٍ سنية زكية بهية.

---

[٨٩] صحيح مسلم رقم (٥٠, ج١/٧٠).

كما لاحظتُ أن للعلماء شبكة عملية للاتصال والتشاور ووضع الخطط اللازمة لإحياء الإسلام فى الشّمال الإفريقي، حيث نجد أن الإمام أبا عمـران الفاسى هو الذى وضع الخطـوط العريـضة والإرشـادات النافعـة لدولـة المرابطين، ثم وجّه الأمير يحيى بن إبراهيم إلى موقـع مـن مواقـع حلقـة الاتصال الواسعة بين العلماء ليرسل قائد تلك الجهة وهو ابن وجاج مع الأمير يحيى أحد الأفراد الذين يتوسم فيهم ذكاءً ونجابةً وصلاحًا وتفوقًا للدعوة فـى قبائل صنهاجة, وكان اختيار ابن وجاج فى محله الذى استمرَّ علـى اتـصاله بشيوخه.

كما أن علماء سجلماسة،كانوا ضمن شبكة من شبكات التعـاون بـين فقهاء أهل السنة، فهم الذين شجّعوا جيوش المرابطين لتوحيد الديار المغربيـة تحت لواء دولة سنية

مرحلة التمكين والتوسع لدولة المرابطين

القائد الربانى يوسف بن تاشفين

٤٠٠ـ ٥٠٠ هـ / ١٠٠٩ـ ١١٠٦م

قد علمت بأهم المراحل فى فقه الدعوة إلى الله التى مرَّ بها الإمام ابن ياسين حيث نجده نجح نجاحًا عظيمًا فى تنفيـذ مرحلـة التعريـف واختيـار العناصر التي تحمل الدعوة، ومرحلة المغالبة، واستشهد فى مرحلة المغالبـة وتولى القيادة في هذه المرحلة أبو بكر بن عمر الذى سار على نفس المـنهج الذى رسمه ابن ياسين.

واستمرَّ فى فتح مدن المغرب إلا أنه ترك نصف جيش المرابطين لابن عمه يوسف، ودخل بالباقى نحو الجنوب داعيًا ومجاهدًا ومصلحًا واستمرَّ فـى فتوحاته حتى استشهد – رحمه الله – وتولّى الأمر بالكلية القائد الربـانى ابـن تاشفين الذى أنهى مرحلة المغالبة وانتقل إلى مرحلة التّمكين.

أ ـ نسبه:

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتونى الصنهاجي, وأُمُّه بنت عم أبيه فاطمة بنت سير بن يحيى بن وجاج بن وارتقين، وكانت قبيلته قد سيطرت بسيادتها وقيادتها على صنهاجة، واحتفظت بالرئاسة منذ أن جعلها الإمام ابن ياسين فيها بعد وفاة الأمير يحيى ابن إبراهيم الجدالى ، فنما عزيزًا كريمًا فى قومه.

قال عنه المُؤَرِّخُون من أمثال أشياخ: «خلق للزعامة».

ملك له الشَّرَفُ العلي من حمير وإن اتهموا صنهاجة فهم هم

كان يوسف أسمر اللون نقيُّه,-معتدل القامة، نحيف الجسم، خفيف العارضين،

رقيق الصوت، أكحل العينين، أقنى الأنف، له وفرة تبلغ شحمة الأذن،

مقرون الحاجبين, أجعد الشعر.

كان يجمع بين جمال الطلعة وجمال الجسم، وبين أبدع المواهب، كان بطلاً شجاعًا، نجدًا حاذقًا، جوَّادًا كريمًا، زاهدًا فى زينة الدنيا، عادلاً متورعًا, متقشفًا, لباسه الصوف، وطعامه خبز الشعير، ولحوم الإبل وألبانها. كان عزيز النَّفس كثير الخوف من الله.

كان يجمع الصفح والعفو عن الذنوب مهما كبرت ما عدا الذين يرتكبون الخيانة فى حق الدِّين فلا مجال للعفو عنهم.

ربَّته الأحداث وصاغت من شخصيته قائدًا فذًا، وبرهنت الأيامُ على أنه له مقدرة على فهم واقعه, قادر على النهوض بقَومه وشعبه وجيشه نحو حياة إسلامية حضارية أفضل.

تلقّى يوسف تعاليمه الأولى في قلب الصحراء مـــن أفـــواه المُحَـــدّثين والفقهاء، ونما وترعرع وتربّى على تعاليم الإمام الفقيه ابن ياسين، ونبغ فـــي فنون رجال الحرب، وفي السياسة الشرعية التي تتلمذ على الفقهاء فيها، وقـــام بها خير قيام, وسنرى ذلك – بإذن الله– في بحثنا هذا.

تذكُر كتب التّاريخ أنه تزوج زينب النفروية بعد أن طلّقها ابن عمه أبو بكر بن عمر عندما عزم على السفر إلى الصحراء للجهاد والدعوة والإصلاح، فقال لها: أنت امرأة جميلة بضّة، لا طاقة لك على حرارة الـــصحراء، وإنّـــي مطلقك؛ فإذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشـــفين، وتزوّجهـــا يوسف بعد تمام عدّتها، وكانت زينب بنت إسحاق مشهورة بالجمال والرئاسة, بارعة الحسن, حازمة, لبيبة, ذات عقل رصين, ورأي سديد, ومعرفة بـــإدارة الأمور، فكانت نِعْمَ الزوجة المعينة لزوجها, وقد

مدحت كتب التّاريخ هذه المرأة, واعتبرتها من خيـــرة نـــساء دولـــة المرابطين، وتوفيت عام ٤٦٤هـــ/ ١٠٧١م.

وتزوّج الأمير يوسف من سيدة أندلسية تُدعَى قمر ولا تـــذكر كتـــب التّاريخ عنها شيئًا، ويقال: هي التي أنجبت الأمير علي ولي العهـــد، وأميـــر الأنْدَلُس والمغرب بعد والده.

وتزوّج يوسف امرأة تسمى عائشة, وأنجبت له الأمير محمـــد الـــذي نسب إليها فصار يدعى محمد ابن عائشة، وَرُزِق يوسف مجموعة من الذكور والإناث بكرهم تميم الذي توفي غداة معركة الزلاقة وكان واليًا علـــى ســـبتة، وعليٌّ الذي تولى الإمارة بعده، وإبراهيم, ومحمد الـــذي كـــان أحـــد القـــادة البارزين في جيش والده وأمّا بناته فهما: كونة ورقيّة.

ب ـ المراحل العسكرية التى مر بها يوسف فى جيش المرابطين:

١ ـ ٤٤٨ـ٤٥٢هـ / ١٠٥٦ـ١٠٦٠م:

كان فى هذه المرحلة مجرد قائد من قواد المرابطين يتلقَّى الأوامر وينفِذُها بكل نجاح، وكانت هذه المرحلة غنية بالتجارب والخبرات التى شحذت ذهنه وأهّلته للمرحلة التالية، فكأنَّها كانت ممارسة للسلطة، والاطلاع على خفاياها دون تحمّل المسئولية، استطاع بعدها تسلُم الإمارة بكل الأوامر التى وكِّلت إليه بكل همة ونشاط ودون تردد، وقاد المرابطين إلى النصر فى ميادين الجهاد والعزة والكرامة والشرف.

وظهر نجم يوسف للمرابطين فى معركة الواحات ٤٤٨هـ - ١٠٥٦م التى كان فيها قائدًا لمقدمة جيش المرابطين المهاجم، وبعد فتح مدينة سجلماسة عيَّنه الأمير أبو بكر واليًا عليها، فأظهر مهارة إدارية فى تنظيمها، ثم غزا بلاد جزولة وفتح ماسة ثم سار إلى تارودانت قاعدة بلاد السوس وفتحها, وكان بها طائفة من الشيعة البجليين نسبة إلى مؤسسها على بن عبد الله البجلي، وقتل المرابطون أولئك الشيعة, وتحوَّل مَن بقى منهم على قيد الحياة إلى السنة.

ثم جاء دور أغمات، كانت مدينة مزدهرة حضاريًا إذ كانت أحد مراكز النصرانية القديمة, ومقرًا للبربر المتهودين، كان يحكمها الأمير لقوط بن يوسف بن على المغراوي.

تلقَّى يوسفُ التعليمات من الأمير أبى بكر بالزحف نحوها, ومهاجمتها, ودكِّها، ودخل المرابطون المدينة (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م).

وسار المرابطون وفى جملتهم يوسف نحو دولة برغواطة «الدولة الكافرة الملحدة» ونشبت المعارك بين الفريقين، وأصيب خلالها الإمام ابن ياسين بجراح بالغة توفى على أثرها كما علمتَ فى ٤٥١هـ / ١٠٥٩م.

كان استشهاد الإمام الفقيه عبد الله بن ياسين البداية الأولى في دفع يوسف إلى رئاسة الدولة الناشئة.

إذ إن جانب الإمامة يغلب على جانب الإمارة في عهد الإمام ابن ياسين، وبعد وفاته تولّى أبو بكر بن عمر، فرجح جانب الإمارة على جانب الإمامة، وأخذت الدولة الناشئة تتحول إلى طابع سياسي جديد, ومرَّت بها ظروف تتطلب رجالاً من طراز يوسف بن تاشفين.

وعندما دخل أبو بكر بن عمر بجيوشه إلى الصحراء, وأناب ابن عمه يوسف على المغرب, ظهرت خلالها مواهب يوسف العسكرية والإدارية والتنظيمية والحركية والدعوية، وسلم النَّاسُ بزعامته, وبدأ في تأسيس دولته بالحزم والعلم والجد والمثابرة والبذل والعطاء.

وعندما رجع أبو بكر من الصحراء جمع أشياخ المرابطين من لمتونة وأعيان الدولة، والكُتّاب والشهود، وأشهدهم على نفسه بالتخلى ليوسف عن الإمارة، وعلَّل الأمير أبو بكر هذا التنازل لابن عمه يوسف لدينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته، وأوصاه الوصية التالية «يا يوسف إنِّى قد ولَّيتُك هذا الأمر وإنِّى مسئول عنه؛ فاتق الله في المُسلِمين, وأعتقنى وأعتق نفسك من النار، ولا تُضيِّع من أمر رعيتك شيئًا؛ فإنَّك مسئول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك, وهو خليفتى عليك وعليهم» .

ويحلو لبعض الكُتّاب من المؤرخين أن يُفَسِّرَ هذا الإيثار والتنازل عن المُلك بإن أبا بكر خشى من سطوة يوسف الذى أظهر له عدم استعداده التنازل عن الملك؛ وسيرة الرجُلين من الصلاح والتقوى تنافى ادعاءهم الباطل.

٢ـ فتح المغرب الأقصى الشمالى ٤٥٤هـ ـ ٤٧٧هـ :

قام يوسف بن تاشفين نحو المغرب الشّمالى لينتزعه من أيدى الزناتيين, واستخدم من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود إرسال الجيوش للقضاء على جيوش المخالفين مستفيدًا من الخلافات السياسية بين قادة المدن، فحالف بعضها من أجل قتال الباقي، واستطاع أن يدخُلَ مدينة فاس صلحًا عام ٤٥٥هـ، ثم تمرَّد أهلها عليه إلا أنه استطاع إخماد جميع الثورات التى قامت ضد المرابطين بجهاده، وكفاحه المستمرّ، حتى تمَّ له فتح جميع البلاد من الريف إلى طنجة عام ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م.

وأعاد فتح فاس عنوة بحصار ضربهُ عليها بجيش قوامه مائة ألف جندى عام ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م, فقضى على شوكة مغراوة وبنى يقرن وسائر زناتة، ونظم المساجد والفنادق وأصلح الأسواق، وخرج من فاس عام ٤٦٣هـ إلى بلاد ملوية وفتحها واستولى على حصون وطاط من بلاد طنجة .

٣ـ لقب الإمارة:

بعد هذه الانتصارات الناجحة استدعى شيوخ وأمراء المغرب من قبائل زناتة ومصمودة وغمارة، وأكرمهم وبذل لهم العطاء وأحسن إليهم، وبايعوه على الإمارة وخرج بهم يطوف فى أقاليم المغرب يتابع الأمراء ويحاسب الولاة، وينشر العدل ويرفع المظالم فهابته النفوس، واقتنعت أنها أمام رجل دولة عبقرى فذ.

وبعد أن رجع من تلك الجولَة التفقدية الإصلاحية سار بجيوشه عام (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) لغزو الدمنة من بلاد طنجة وفتح جبل علودان ، وفى عام (٤٦٧هـ/١٠٧٤م) استولى على جبل غياثة وبنى مكود وبنى رهينة من أحواز تازا, وجعلها حدًّا فاصلاً بينه وبين زناتة الهاربة إلى الشرق، وأبعد عن المغرب كلَّ مَن ظنَّ فيه أنه من أهل العصيان، فأصبح خالصًا له مرتاحًا إلى طاعته مطمئنًا إلى خلوده إلى السكينة والهدوء غير تواق للثورة عليه.

وأصبحت منطقة تازا ثغرًا منيعًا بينه وبين زناتة؛ ولذلك اعتبر المُؤرِّخون عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م فاصلاً فى تاريخ الدولة المرابطية إذ بسط يوسف نفوذه على سائر المغرب الأقصى الشّمَالى باستثناء طنجة وسبتة.

وسيَّر يوسف بن تاشفين إلى طنجة جيشًا من اثنى عشر ألف فارس مرابطى وعشرين ألفًا من سائر القبائل, وأسند قيادته إلى صالح بن عمران عام ٤٧٠هـ، وعندما اقتربت جيوش المرابطين من طنجة برز إليهم الحاجب بن سكوت على رأس جيش وهو شيخ يناهز التسعين، وانتصر المرابطون وفتحوا طنجة وقتل فى تلك المعارك الحاجب بن سكوت . وبعد فتح طنجة استأنف الأمير يوسف توسُّعَه نحو الشرق لمطاردة زناتة التى لجأت إلى تلمسان، وكان هدفه القضاء على أى مقاومة تُهَدِّد دولة المرابطين فى المستقبل، وبدأت عمليات الهجوم الوقائى التى استطاعت أن تحقق أهدافها وتهزم جيش تلمسان المعادى وتأسر قائده معلى بن يعلى المغراوى الذى قُتل على الفور، ورجعت كتائب المرابطين إلى مراكش, ثم عاد يوسف نحو الريف، وغزا تلك الأراضى وضم مدينة تكرور ولم تعمر بعد ذلك.

ثم رجع بجيوشه نحو وهران وتنس وجبال وانشريش ووادى الشلف حتى دخل مدينة الجزائر, وتوقف عند حدود مملكة بجاية التى حكمها بنو حمَّاد -فرع من صنهاجة.

وبنى يوسف فى مدينة الجزائر جامعًا لا يزال إلى اليوم ويُعرف بالجامع الكبير.

وعاد إلى مراكش عام ٤٧٥هـ/١٠٨١م وبذلك توحَّد المغرب الأقصى بعد جهاد استمرَّ ثلاثين عامًا، وأصبحت دولة المرابطين فى مرحلة التَّمكين الفعلية, وفى عام ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م وجَّه الأمير يوسف ابنه المُعزَّ فى جيش إلى سبتة لفتحها إذ كانت المدينة الوحيدة التى لم تخضع له, كان يحكُمُها بعد وفاة الحاجب بن سكوت ابنه ضياء الدولة يحيى, فحاصرها المعزُّ برًا وبحرًا,

ودارت معركة بحرية طاحنة، وفى نهاية المطـاف اسـتطاع المرابطـون أن يفتحوا سبتة، وقتل ضياء الدولة بعد أن ألقى القبض عليه، وكان ذلـك عـام ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م. بعد هذه الجولة الجهادية الموفَّقَـة تـم توحيـد المغـرب الأقصى بجميع نواحيه بعد عمل جادٍّ مستمرٍّ، وأصبحت الدولة المرابطية قُـوَّة لا يُستهان بها تُشكل خطرًا على النصارى فـى الأنـدلس، وملجـأ وحـصنًا للمسلمين فى الأندلس، حيث إن النصارى استفحل خطرهم فى الأَنْدَلُس، حيث قامت دويلات فى كل مدينة وصلت إلى ثلاث وعشرين دويلة تنـاحرت فيمـا بينها، وعُرِف حكامها بملوك الطوائف وتلقَّبوا بالألقاب الخلافيـة كالمـأمون والمعتمد والمستعين والمعتصم والمتوكل إلى غير ذلك من الألقاب، ووصـف هذه الحالة المشينة الشاعر أبو على الحسن بن رشيق:

مما يزهدنى فى أرض أندلس

سماع مقتدر فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها

كالهرّ يحكى انتفاضًا صولة الأسد

لقد آلت أوضاع الأَنْدَلُس إلى السوء، وأصبحت لا حول لها ولا قُـوَّة مما شجع النصارى على توجيه ضربات إلى المُسْلِمين، وقد شـنوا حربًـا لا هوادة فيها نابعة من شعورهم العدائى للعرب والمُسْلِمين، تهدف إلى طـردهم من إسبانيا، وبدأت هذه الحرب بدافع الحقد الصليبي، وأضافوا إليها مع مرور الأيام عامل القَومية وأطلقوا عليها حرب الاسترداد .

ولم تكن للمقاومة الإسلامية فى الأَنْدَلُس القـدرة علـى إيقـاف المـدّ الصليبى الزاحف للخلاص من المُسْلِمين، فاضطرّ أهل الأَنْدَلُس إلـى طلـب العون من المرابطين.

المرابطون ودفاعهم عن مسلمي الأندلس

استطاع عبدُ الرحمن الداخل أن يُؤسِّسَ إمارة أموية فى الأنْدَلُس سنة ١٣٨هـ، وبدأ عصر الخلافة الأموية فى الأنْدَلُس سنة (٣١٦هـ/٩٢٩م) عندما أعلنها عبد الرحمن الناصر، الذى اشتهر بالحزم والذكاء والعدل، والعقل والشّجَاعَة وحبه للإصلاح وحرصه عليه.

ووحَّد الأنْدَلُس بالقُوَّة والسياسة وأعاد وحدتها وقوتها ومكانتها, وحارب المتمردين من حكام الشَّمَال الإسبانى وأخضعهم لشروطه.

وكان سبب إعلانه الخلافة في الأنْدَلُس ضعف الخلافة العباسية، وظهور الدولة العُبيدية فى الشَّمَال الإفريقي، فأعلن الخلافة، وتلقَّب بأمير المؤمنين النَّاصر لدين الله . وفى عام ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م بدأ ظهور عصر الطوائف فى الأنْدَلُس، الذى دام حتى عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م.

وكان ذلك بسبب سقوط الخلافة الأموية التى نخرتها الأطماع والأحقاد والصراعات الدَّاخليَّة على الحكم، وسعيُ بعض الشخصيات للمجد الشخصى متناسيًا فى ذلك مصالح الأمة وضرورة وحدتها لتقف صفًا واحدًا أمام أعدائها.

لقد انقسمت الأنْدَلُس إلى دويلات, واتخذ حكامها ألقابهم تبعًا لحجم دويلاتهم فأحدهم: ملك أو أمير، أو والٍ أو قاضٍ.

ونظرًا لاختلاف القوى والرياسات، فقد أخذ القوى يبطش بالأضعف، والأضعفُ يدرأ الخطر بالتحالف مع جاره القوي، وأحيانًا يستنجد بأمراء النصارى مقابل ثمن باهظ.

وتكوَّنت من هذه الدويلات العديدة أربع دوَل رئيسية:

١- فى جنوب الأنْدَلُس، حكم الأدارسة الإفريقيون أو بنو حمود أصحاب مالقة، وحالفهم أمير غرناطة وقرمونة، وألبيرة وجيان وأستجة، فضلاً عن حكمهم مليلة وطنجة وسبتة فى شمال المغرب.

٢- بنو عباد أمراء إشبيلية، أقوى ملوك الطوائف، ومـن حلفـائهم بنـو جهور في قُرْطُبَة، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس في جنوب وغرب الأنْدَلُس.

٣- بنو ذى النون أمراء طُلَيْطِلَة، الذين حكموا أواسط إسبانيا، والـذين وقفوا في وجه بني عباد، وكلفهم ذلك دفـع جزيـة لملـك قشتالة النصراني التماسًا لعونه ضد خصومهم.

٤- بنو عامر في بلنسية ومرسية الذين حكموا في شرقي إسبانيا، وطبقًـا لظروفهم، فقد كانوا يحالفون الأدارسة تارة أو بني عباد، أو بنـي ذي النون تارة أخرى. . . بسط بنو عامر نفوذهم على الثغور الممتدة من مرية حتى مصبّ نهر أبرة سنة ١٠٥١م .

الصراع بين طليطلة وقرطبة

عندما تولى المأمون يحيى بن ذى النُّون عام ١٠٤٣م، إمارة طُلَيْطِلَـة اغتنم عون حليفه القوى عبد العزيز بن أبـي عـامر، واسـتأجر الفرسـان النصارى من القشتاليين ليبطش بمحمد بن جهور أمير قُرْطُبَة، فتدخل بنو عباد أصحاب إشبيلية، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس للوقوف ضد صاحب طُلَيْطِلَة الذى كان يهددهم جميعًا، وسار أمراء لبلة وولبة وجزيرة شليطش للانـضمام إلى الحلف الذى تزعمه صاحب لبلة عبد العزيز اليحصبي ليعقد محالفة مـع قُرْطُبَة.

تحرّك الجميع تطبيقًا لهذا التحالف لإنجاد قُرْطُبَة، فانتهز ابن عباد أمير إشبيلية هذه الفرصة واكتفى بإرسال خمسمائة فارس إلى ابن جهور، وزحـف في جيش قوى على لبلة، وولبة وجزيرة شليطش وأكسونية واستولى عليها، ثم فتح قرمونة سنة ١٠٥٣م, طالت الحرب بين طُلَيْطِلَة وقُرْطُبَة، ودامت أعوامًا، وكانت سجالاً، وأراد المأمون صاحب طُلَيْطِلَة حسم الموقف، فـأوقع بقـوات

قُرْطُبَة وحليفاتها هزيمة شديدة، واستطاع الوصول إلى قُرْطُبَة فحاصرها، فبادرت إشبيلية إلى إغاثتها، فأرسل ابن عباد ابنه محمدًا على رأس جيش قوى فيه وزيره أبو بكر محمد بن عمار الموصوف برجاحة عقله، وشدة ذكائه, وزوّدهما بخطة وأوامر سرية خاصّة.

واستطاع جيش ابن عباد أن يفك الحصار عن قُرْطُبَة، واضطرّ الطليطليون لرفع الحصار, وارتدوا عنها، وخرج القرطبيون ليطاردوا أعداءهم فأتموا بذلك هزيمة الطليطليين.

ونُفِّذَتْ خُطَّةُ ابن عباد السرية وكان محتواها دخول قُرْطُبَة عندما يخرج منها أهلها خلف الطليطليين، ودخلتها قوات ابن عباد دون معارضة، واحتلت مراكزها الحصينة قبل أن يفطن القرطبيون إلى أن مَن جاء لنُصرتِهم غدرَ بهم، وبذلك سقطت دولة بنى جهور فى قُرْطُبَة ولم يمض على قيامها ثلاثون عامًا فى محنة محزنة وخيانة فظيعة، وأصبح ابن عباد أمير إشبيلية أقوى أمراء الأَنْدَلُس المُسلِمة، تخوّف المأمون أمير طُلَيْطِلَة من قُوَّة ابن عباد أمير إشبيلية التى نمت نموًا سريعًا، وبخاصّة بعد أن حالفه العامريون أمراء قسطلون ومربيطر وشاطبة المرية ودانية، فحاول التحالف مع صهره زوج ابنته عبد الملك المظفر حاكم بلنسية الذى رفض ذلك مُحتَجًا بأن وقوف العامريين إلى جانب إشبيلية يجعل إقدامه على هذا التحالف خطرًا على بلنسية، فما كان من المأمون إلا أن عقد حلفًا مع فرديناند الأول صاحب قشتالة.

وهجمت القوات المشتركة المتحالفة «قوات المأمون وفرديناند الأول» على بلنسية، فسقطت ولاية بلنسية كلُّها فى يد المأمون فى تشرين الأول سنة ١٠٦٥م, عاد بعدها إلى طُلَيْطِلَة ليجهز قواته لقتال ابن عباد، وحال بينه وبين ما أراد وفاة فرديناند الأول، ونشوب حرب ضروس بين أولاده، فنقض المأمون عهده مع قشتالة، وامتنع عن دفع الجزية، مما أدى إلى حرمانه من معونة النصارى، وهى المعونة التى لم يستطع أن يحارب أمير إشبيلية بدونها،

فلما تمَّ أمر الحكم لسانشو ابن فرديناند سنة ١٠٧٠م, هرب أخوه ألفونسو إلى المأمون صاحب طُلَيْطِلَة والتجأ أخوه الثَّاني جارسية إلى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، وفي سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٩م توفي المعتضد بن عباد أمير إشبيلية، فخلفه ابنه المُلقَّب بالمعتمد على الله، ولم يكن أمام الأمير الجديد ما يخشاه إلا أمير طُلَيْطِلَة الذي ملك بلنسية في الوقت نفسه، أما بقيَّة ملوك الطوائف فقد انكسرت شوكتهم وتزعزع كيانهم في حروبهم الدَّاخليَّة من غزوات النصارى المتتابعة عليهم.

واستطاع المأمون حاكم طُلَيْطِلَة أن يتوسَّعَ ويحقق انتصارات واسعة سنة ١٠٧٣م على مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى، وبهذا أصبح الأمير الأقوى الذي يسيطر على أواسط إسبانيا كلِّها، وبخاصة بعد أن فاز ألفونسو بحكم قشتالة بعد وفاة «شانجة» وتحالف مع المأمون الذي رعاه وحماه عند محنته وتعاهد الأميران على أن يرتبطا معًا برباط الصداقة الوثيق.

وأصبح أمير إشبيلية في خوفٍ من توسُّع أمير طُلَيْطِلَة الذي فاجأ المعتمد بتحالفه مع بني هود أصحاب سرقسطة وبني الأفطس أصحاب بطليوس، وهاجم خصمه من ثلاث جهات لكي يُحكِمَ تسديد الضربة إلى قُرْطُبَة؛ فسقطت دون مقاومة تُذكَر سنة ٤٦٨هـ, ولكن المأمون تُوفي بعد دخولها بأيام قلائل؛ فرجع جنده عنها إلى طُلَيْطِلَة، واسترد ابن عباد قُرْطُبَة، وبقيت إشبيلية تحت حكم ابن عباد حتى استولى عليها المرابطون سنة ٤٧٤م.

وأرسل ابن عباد سفيره ووزيره البارع ابن عمار إلى عاصمة قشتالة يومئذٍ, وتحالف مع ألفونسو، وتعهَّد بها ملك قشتالة بمعاونة أمير إشبيلية بالجند والمرتزقة ضد جميع المُسْلِمين، ويتعهَّدُ ابن عباد مقابل ذلك أن يدفع إلى ملك قشتالة جزية كبيرة، وتعهَّدَ بألا يتعرض لمشروع ألفونسو في افتتاح طُلَيْطِلَة، وهكذا ضحى ابن عباد بمعقل المُسْلِمين إسبانيا المُسْلِمة، لكي يفوز ببسط

سيادته على الإمارات التى لم تخضع له بعد، وهى إمارات غرناطة وبطليوس وسرقسطة.

واستفاد ألفونسو من هذه الاتفاقية وأعلنها حربًا لا هوادة فيها على طُلَيْطِلَة التى حمته من مطاردة أخيه سانشو, ونسى الأمير الطموح للتوسُّع كلَّ عهوده ومواثيقه, وشرع فى غدره بِمَن أحسن إليه.

وتحرَّك المعتمد بن عباد بجيشه نحو غرناطة ليضُمَّها إلى سلطانه وكان حاكمها عبد الله بلكين بن باديس، وكان ابن هود أمير سرقسطة يرى الخطر يشتدُّ عليه يومًا فيومًا من شانشو الأول ملك أرجون، فلم يستطع إنجاد طُلَيْطِلَة سوى أمير بطليوس يحيى بن الأفطس المُلَقَّب بالمنصور، فجمع قواته وسار إلى لقاء ألفونسو، ولكن ألفونسو الذى كان قد أثخن فى ولاية طُلَيْطِلَة، حتى صيرها قفرًا بلقعًا، شعر باقتراب المنصور، فانسحب, ولكنَّه كرَّر الرجعة فى العام التالي؛ فعاث فى بسائط طُلَيْطِلَة وخرَّبها مرة أخرى، وزحف المعتمد على بطليوس، وبهذا استطاع أن يُحول دون معاونة بنى الأفطس لطُلَيْطِلَة حيث القادر بن ذى النون، ولم يستطع أمير سرقسطة من بنى هود «المؤتمن» معاونة القادر معاونة قوية خشية أن تقع سرقسطة ذاتها فريسة لابن عباد أو النصارى، وهو فى جهاد ضد أرجون وبرشلونة، واستمرَّت الحربُ أعوامًا، وألفونسو يفسد فى بلاد المُسلِمين «طُلَيْطِلَة» ومَن حولها فسادًا.

وفى السابع والعشرين من المحرم سنة ٤٧٨هـ - الخامس والعشرين من آيار «مايو» سنة ١٠٨٥م استطاع أن يدخل طُلَيْطِلَة «عاصمة القوط القديمة» ودخلت طُلَيْطِلَة بذلك إلى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها المُسلِمون ثلاثمائة واثنين وسبعين عامًا، واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين، وأصبحت بذلك عاصمة إسبانيا النصرانية.

وهكذا انتهت دولة ذى النون فى طُلَيْطِلَة لتستمرَّ فى بلنسية.

تأثَّر المُسلِمون بسقوط طُلَيْطِلَة تأثُّرًا عميقًا على مختلف الساحة الإسلامية فى الأنْدَلُس، وتفجَّرت قريحة الشعراء فى استثارة الهمم والتحريض على الجهاد، والتحذير من تفاقم الخطر، ومما قيل فى ذلك قول عبد الله بن فرج اليحصبى المشهور بابن عسال الطليطلي:

يا أهل أندلس حثوا مطيتكم

فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى

ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا

كيف الحياة مع الحيات فى سفط

ومن ذلك أيضًا:

يا أهل أندلس ردُّوا المعار فما

فى العرف عارية إلى مردات

ألم تروا بيدق الكفار فرزنه

وشاهنا آخر الأبيات شهمات

لقد كانت روما تقف بكل ما تملك من قُوَّة معنوية ومادية خلف ألفونسو وجنوده للقضاء على المُسلِمين، وأسبغوا على قتال المُسلِمين صفة الحروب الصليبية المقدسة وأصبح البابوات لهم دور فى توجيهها.

وندم المعتمد بن عبَّاد على فعلته خصوصًا عندما رأى ألفونسو يتوسَّع فى ضمِّ ممالك المُسلِمين إليه، وأيقن إن الدائرة عليه قادمة، واجتمع أمراء المُسلِمين عندما رأوا إن شبح السقوط ماثلاً أمام أعينهم، فاتحدوا لأول مرة

واجتمعت كلمتهم على أن يضعوا حدًا لفتوح ألفونسو, وإذا كانت قواتهم مُجْتَمَعة لا تكفى لرد عدوانه، فقد اتفقت كلمتهم على الاستنجاد بالمرابطين فى إفريقية واستدعائهم إلى الأَنْدَلُس، علمًا بإن ملوك الأَنْدَلُس كانت ترهبُ الفرنج بإظهار موالاتهم لمَلِكِ المغرب يوسف بن تاشفين، وكان له شهرة تطايرت فى الآفاق لما حققه من ضمِّ دوَلٍ إلى دولته وقضائه عليها, واشتهر بين النَّاس أن لأبطال المُلَثَّمين فى المعارك ضربات بالسيوف تقد الفارس, وطعنات تنظم الكلى، فكان لهم بذلك ناموس ورعب فى قلوب المنتدبين لقتالهم.

* * *

أسباب ضعف المسلمين فى الأندلس وقوة النصارى

أولاً: ضعف العقيدة الإسلامية, والانحراف عن المنهج الربَّانى وهذا السبب هو الأساس.

ثانيًا: موالاة النصارى, والثقة بهم, والتحالف معهم؛ حيث نجد أن تاريخ الأَنْدَلُس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء، والحُبِّ فى الله والبغض فى الله، بل هذه المعانى كادت تندثر.

إن الأمة حين تخالف أمرَ ربِّها, وتنحرف عن طريقه, فلابُدَّ أن يحلَّ بها سخطُه, وتستوفى أسباب نقمتِه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٧].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران:٢٨].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].

وقد أبان رسول الله (ﷺ) طريق الأمة فى الولاء والبراء، فقال: «أوثقُ عُرَى الإيمان الموالاة فى الله، والمعاداة في الله، والحبُّ في الله، والبغض فى الله».

ويقول (ﷺ) فيما يرويه عن ربه -عزَّ وجلَّ-: «مَن عادى لى وليًا فقد آذانته بالحرب».

فإذا كان هذا كله مُسطَّرًا فى كتاب ربِّها وسنة نبيها وتخالفه، فلابُدَّ أن تُرى فيها سنة الله التى لا تتغير ولا تتبدل.

فحين تجد أن المعتمد بن عبَّاد يذهب إلى ملك قشتالة ويطلب منه الصلح ويدفع له المال، نراه جاهدًا فى حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أما كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف؛ وفى ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس عامة، وللإسلام وأهله، ولكنَّك لا تجنى من الشوك العنب.

بل ضعف مفهومُ الولاء والبراء حتى إن بعض حُكَّام المُسلِمين استوزروا وزراء نصارى ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام، فهل يؤمن الذئب على الغنم!! .

ثالثًا: السبب الثالث الانغماس فى الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد، إن الأمة التى تركن إلى الدعة والترف واللهو، وهى غالبة قاهرة يجب أن تُعد غير مستحقة للريادة والقيادة، فما بالك بأمة تغرق فى اللهو والدعة والترف، وهى لا تدرى إن كان العدو قد كسر حصنها واجتاحها، أم أنه لا يزال ينتظر تلك اللحظات؟!.

يقول المؤرخ النصرانى كوندي: «العرب هُزموا عندما نسوا فضائلهم التى جاءوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح، والاسترسال بالشهوات».

إن المؤرخين رأوا: «إن الأندلسيين ألقوا بأنفسهم فى أحضان النعيم، ناموا فى ظل ظليل من الغنى الواسع والحياة العابثة والمجون، وما يرضى الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، وغدا التهتك والخلاعة والإغراق فى المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة بالذهب واللآلى مِن أبرز المميزات أيام الاضمحلال التى استنلموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجوارى الشاديات، وإن شعبًا يهوى إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة لا يستطيع أن يصمُد رجاله لحرب أو جهاد».

دخل المُسلِمُون الأندلُس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق فى العبور «الله أكبر» وبقوا فيها زمنًا، حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما قُدم إليه الخمر ليشرب فقال: «إنِّى محتاج لما يزيد فى عقلى لا ما ينقصه».

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجى عن الفاتحين الأوائل للأندلُس: «كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهى عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم, أشربت نفوسهم حُبَّه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم».

وضاعت ممالك الأندلُس من يدى المُسلِمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين:

وَزِن العود وهات القدحا

راقت الخمرة والورد صحا

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام ٤٥٦هـ خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة؛ فكانت وقعة بطرنة التى قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلي:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم

حُلَلَ الحرير عليكم ألوانًا

ما كان أقبحهم وأحسنكم بها

لو لم يكن ببطرنة ما كانا

ضعف المُسْلِمُون فى الأَنْدَلُس وسلب كثير من ديارهم لما تنافس الولاة والحُكَّام من أجل إسعاد زوجاتهم وجواريهم بالباطل.

وإليك ما فعله المُعْتَمِد مع إحدى زوجاته: اشتهت زوجة المُعْتَمِد بن عبَّاد أن تمشى فى الطين وتحمل القرب، فأمر المُعْتَمِد بن عبَّاد أن ينشر المسك على الكافور والزعفران وتحمل قربًا من طيب المسك وتخوض فيها تحقيقًا لشهواتها!!

ولكن الله المعز المذل أراد أن تنقلب الأمور على المُعْتَمِد، فيؤخذ أسيرًا فى أغمات وتبقى بناته يغزلن للنَّاس يتكسبن، وفى ذلك يقول المُعْتَمِد وهو شاعر مجيد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورًا

فساءك العيد فى أغمات مأسورًا

ترى بناتك فى الأطمار جائعة

يغزلن للناس ما يملكن قطميرًا

برزن نحوك للتسليم خاشعة

أبصارهن حسيرات مكاسيرا

يطأن فى الطين والأقدام حافية

كأنَّها لم تطأ مسكًا وكافورًا

مَن بات بعدك فى مُلك يُسَرُّ به

فإنما بات بالأحلام مغرورًا"

وصدق الحبيب (ﷺ)، المؤتى جوامع الكلم إذ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذُلاً، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم».

رابعًا: إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف:

لاشكَّ أن بداية الانهيار الفعلى فى الأَنْدَلُس بزوال الخلافة الأموية، ونشأ على أثر ذلك عهد السنوات الصعاب، كانت كلمة الأمة واحدة وخليفتهم واحدًا فأصبحت الأمة كما قال الشاعر:

مما يزهدنى فى أرض أَنْدَلُس

أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها

كالهرّ يحكى انتفاخًا صولة الأسد

وكما قال الآخر:

وتفرّقوا شيعًا فكل محلة

فيها أمير المؤمنين ومنبر

ولم يكن حُكّام الأَنْدَلُس أهلاً لقيادة الأمة فى عمومهم، واسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحُكّام: «والله لو علموا أن فى عبادة الصلبان

تمشية أمورهم لبادروا إليها. فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرب المُسلِمين، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفًا من سيوفه».

ويقول الدكتور عبد الرحمن الحجى عن هؤلاء الحُكّام: «وهكذا وجدت فى الأَنْدَلُس أوضاع يحكمها أمراء اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم معه مصالح الأمة، وتُركت دون مصالحهم الذاتية، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمنًا لبقائهم فى السُّلطة، ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيعوا من الحظ الخُلقى المسلم، انحرف هؤلاء المسئولون عن النهج الحنيف، الذى به كانت الأَنْدَلُس وحضارته».

خامسًا: الاختلاف والتفرق بين المسلمين:

كان الاختلاف والتَّفرُّق سمة من سمات عصر ملوك الطوائف، وكان بعضهم يستعدى النصارى على إخوانه ويعقدون مع النصارى عهودًا وأحلافًا ضد إخوانهم فى العقيدة، ومن أجل شهوة سلطة تُراق على أرض الأَنْدَلُس دماء المصلين، حتى قال ابن المرابط واصفًا حال المُسلِمين:

ما بال شمل المُسلِمين مبدَّدٌ

فيها وشمل الضد غير مبدد

ماذا اعتذاركم غدًا لنبيكم

وطريق هذا الغدر غير مُمهَّد

إنْ قال لِمَ فرَّطتم فى أُمَّتي

وتركتموهم للعدو المعتدي

تالله لو إن العقوبة لم تُخَف

لكفى الحيا من وجه ذاك السيدِ

ولما سقطت طُلَيْطِلَة كان من العجيب إن بعض ملوك الطوائف وقفوا جامدين لا يتحركون لنجدة طُلَيْطِلَة, وكأن الأمر لا يعنيهم فاغرين أفواههم جبنًا وغفلة وتفاهة، بل إن عددًا منهم كان يرتمى على أعتاب ألفونسو ملك النصارى طالبًا عونه, أو عارضًا له الخضوع، بذلة تأباها النفوس المُسلِمة، تغافلوا عن أن ألفونسو لا يفرِّق

بين طُلَيْطِلَة وغيرها من القواعد الأَنْدَلُسية، لكن العجب يزول إذا تذكَّرنا نزعتهم الأنانية والعصبية.

سادسًا: تخلى بعض العلماء عن القيام بواجبهم:

لاشكَّ أن حياة الأمة فى حياة علمائها فهم تاجها ومنارتها وهم روحها ومادة حياتها, فكلما كان علماء الأمة ربَّانيين كان أمر الأمة فى طريقه نحو العزة والرِّفعة والكرامة، وكلَّما ابتعد العلماء عن الربَّانية وتثاقلت نفوسهم إلى الأرض, وحرصوا على مصالحهم الذاتية, خبا نور الأمة، ودبَّ فى الأمة الضعف والجهالة.

«فحين كانت الأمة تغرق فى الأَنْدَلُس بسبب الاجتياح النصرانيِّ المتلاطم، انصرف عدد من العلماء إلى العناية المبالغة بالفقه المذهبى وفروعه ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها».

وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم رحمه الله: «ولا يغرَّنك الفُسَّاق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المُزيِّنون لأهل الشرِّ شرهم، الناصرون لهم على فسقهم».

ولا ننسى دور العلماء الربَّانيين الذين قاموا بجمع شتات الأمة الممزق, وبذلوا وسعهم فى ذلك من أمثال أبى الوليد الباجي، وأبى مُحَمَّد بن حزم، وأبى إسحاق الإلبيرى وغيرهم، عليهم رحمة الله وبركاته.

سابعًا: عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهدًا مشكورًا لتوحيد صفوف المُسلِمين وتصدَّى أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي، «فرفع صوته بالاحتساب، ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون، ولكنَّه لم يصادف أسماعًا واعية، لأنَّه نفخ فى عظام نخرة، وعطف على أطلال داثرة، بَيْدَ أنه كُلَّما وفد على ملك منهم فى ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه فى التنافس والتقريب، وهو فى باطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته، وما كان أفطن الفقيه – رحمه الله– بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم، لكنَّه كان يرجو حالاً تثوب، ومذنبًا يتوب»

ولم يكن حُكَّام الأَنْدَلُس أهلاً لقيادة الأمة، ولم تنفعهم نصائح العلماء حتى حلَّت بهم مصيبة وكارثة ألا وهى سقوط طُلَيْطِلَة.

ثامنًا: مؤتمرات النصارى ومخططاتهم:

استطاع النصارى أن يضعوا برامج مُحكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومِن ثَمَّ على المُسلِمين عمومًا، وكان من أكبر المجرمين من ملوك النصارى الذى أشرف على هذه المُخَطَّطَات وسهر على تنفيذها فرناندو ملك قشتالة.

تاسعًا: وحدة كلمة النصارى:

فى الوقت الذى كان المُسلِمُون فى الأَنْدَلُس يعانون من التَّفرُّق والشتات، كان النصارى فى وحدة كلمة وتراص صفٍّ فى مواجهة أمة الإسلام فى الأَنْدَلُس.

عاشرًا: غدر النصارى ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارى عُبّاد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلا في القليل النادر؛ فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم, وهى التى تحكم وفاءهم ونقضهم.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ١٤].

لقد سطَّر النصارى فى الأندلس تاريخًا مليئًا بالدماء وهتك الأعراض، وقتل النفوس وسبى النساء.

قال تعالى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة: ١٠]. وقال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

لقد استمات النصارى فى حربهم للمُسلمين فمارسوا كل الأساليب المعوجَّة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

الحادى عشر: التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة:

لقد كانت أحاديث الرسول (ﷺ) فى تلك المرحلة مُعطَّلة كأنَّهم لم يسمعوا قول رسول الله (ﷺ): «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه», وقوله (ﷺ): «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا».

لقد تخاذل ملوك الطوائف عن نصرة مَن يستحق النصرة، وإليك ما حدث فى طُلَيْطِلَة، يقول الدكتور عبد الرحمن الحجى عن سقوط طُلَيْطِلَة وموقف حُكَّام الطوائف: «قام حاكم بطليوس عمر بن مُحَمَّد الأفطس الملقب بالمُتَوَكِّل على الله ببعض واجبه تجاه طُلَيْطِلَة فى محنتها، التى لو أدَّى بقيَّة

ملوك الطوائف ما يجب عليهم لما لاقت هذا المصير، ولحَمَوْها وحَموا أنفسهم، كان بعضهم لا هم له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته, وكأن الأَنْدَلُس وجدت لمنفعته وليتربع على كرسى حكم، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد».

فهذه مجموعة من الأسباب التى أدَّت إلى الحالة التعيسة التى آلت إليها الأَنْدَلُس، وعندى أن من أعظم الأسباب فى خذلان الأمة ابتعادها عــن مــنهج ربها وضياع عقيدتها وتربيتها على الترف والدعة، وترك الجهاد فــى ســبيل الله، ولذلك عندما تربَّى المرابطون على معانى الجهاد فى سبيل الله، ومــنهج أهل السنة, وفقهم الله لإقامة دينه وإعزاز سنة نبيه ونصرة إخوانهم فى الدِّين.

إن الجهاد من أعظم الدروس, فلما وُجد فى الأَنْدَلُس بقيت الأمــة فــى عزة ومنعة ومَهَابَة، ولما فُقد أصبحت الأمة مطمعًا لكل جبار عنيد أو متكبــر لا يؤمن بيوم الحساب. قال رسول الله (ﷺ): «رأسُ الأمر الإســلام وعمــوده الصّلاة وذروة سنامه الجهاد». وقال (ﷺ): «لغدوةٌ فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها».

العالم فى زمن ظهور دولة المرابطين

كانت أوروبا يتحكم فيها الإقطاعيون فى حالة همجيــة بعيــدة عــن التحضُّر ومعالم الحضارة والمدنية.

وكان العالم الإسلامى مُجزّأً عند قيام دولة المرابطين، فظهــر ملــوك الطوائف فى بلاد الأَنْدَلُس، واستطاع السلاجقة أن يُطهِّرُوا العراق مــن بنــى بويه، والعبيديون حكموا مصر، وبنو حَمَّاد فى المغرب الأوسط، والمعز بــن باديس وأحفاده فى المهدية.

وتوسع المرابطون وشملت دولتهم أجزاء شاسعة من شمالى إفريقية «جزء من الجزائر والريف فى المغرب»، وضربت جذورها فى الصحراء حتى نهر النيجر والسنغال، فرفعوا راية الإسلام فى تلك الأماكن البعيدة.

وكان المشرق الإسلامى فى ظروف سياسية حرجة وصعبة قاسية حيث أمرُ الخلافة في بغداد مهتز, والخليفة مُعَرَّضٌ للخطر، ولا يملك من أمر الخلافة شيئًا وإنَّما هو رمز تحكَّمَ فيه البويهيون، ومن بعدهم السلاجقة, أمَّا العبيديُّون فى مصر فتحالفوا مع الإفرنج من أجل مصالحهم وأطماعهم, فكان أمر المُسْلِمين فى غاية الخطورة حتى قيَّض الله لأهل المشرق نور الدِّين محمود وصلاح الدِّين الأيوبى اللذين قاما بدور عظيم فى القضاء على النصارى والعبيديين ودحرهم، وفى هذه الظروف الصعبة والعصيبة أرادت حكمة الله وقدرته أن تخرج دولة المرابطين السُّنيَّة لتكون سدًا منيعًا ضد أطماع النصارى فى الأَنْدَلُس، ولتحمى الشمال الإفريقى من غاراتهم وأطماعهم، إنه تدبير العزيز العليم.

لقد أكرم الله تعالى المرابطين وجنودهم بالدفاع والذود عن الإسلام والمُسْلِمِين وعن أعراضهم وأموالهم وعقائدهم التى لا تقدر بثمن.

وأعزّ الله الأمة بهم فى زمن عصيب ورفع الله بهم لواء الإسلام فى المغرب والأَنْدَلُس.

واستطاعوا بجهودهم الجهادية أن ينقذوا إخوانهم فى الدِّين من ظلم النصارى وحقدهم الدفين، ويكبدوهم هزائم عسكرية أصبحت نبراسًا للأمة على مرِّ العصور ومرِّ الدهور.

أولا: تكالب النصارى على المسلمين وأطماع ألفونسو التوسعية:

بعد سقوط طُلَيْطِلَة بيد ألفونسو، بدا له أن كل شيء ممكن, وعمل على توحيد جهود النصارى، واتفقوا على سحق دولة الإسلام فى الأَنْدَلُس، معتقدين أن قدرتهم تكفيهم لأداء هذا المهمة المقدسة لديهم.

وترك النصارى خصوماتهم الدَّاخلِيَّة، وتوحَّدت مدنهم، وكوَّنوا جيشًا ضخمًا, واحتلوا مدينة «قورية» من بنى الأفطس، ووصلوا إلى ضواحى إشبيلية، وأحرقوا قراها وحقولها، وسارت فرقة من الفرسان إلى شذونة، ثم اخترقت جزيرة طريف قرب مضيق جبل طارق، كما حاصر القشتاليون- بمعاونة جند من الأرجونيين والقطلونيين الذين وضعهم ألفونسو السادس تحت قيادته- قلعة سَرَقُسْطَة الحصينة التى يضع سقوطها منطقة الأبير «ابرة» فى يد النصارى حتمًا، وتصبح الشواطئ الإسبانية المطلَّةُ على البحر الأبيض المتوسط عرضة لغاراتهم، يقول المؤرخ يوسف أشباخ: «وأثخن النصارى فى ولاية سَرَقُسْطَة كلها بالنار والسيف، ولم يكن يردُّهم فى الحرب أى اعتبار إنسانى ما دام الأمر متعلقًا بأعداء الدِّين، كما يعتقدون، ولكن الحصون الإسلاميَّة قاومتهم مقاومة شديدة، وتلقى المؤتمن بن هود وعدًا لوصول المدد السريع من إخوانه المُسْلِمِين فى جنوب الجزيرة، بَيْدَ أن النصارى شددوا الضغط على سَرَقُسْطَة يومًا بعد يوم، وخشى المُسْلِمُون سقوط المعقل المنيع، بعد أن أصبحت قواتهم وأحوالهم فى حالة يرثى لها، فقد كانت حتمًا دون قوى النصارى، فتطلعوا إلى عون من الخارج، فاتجهت أبصارهم إلى قوة المرابطين المجاهدة فى المغرب الأقصى».

وأصبح ألفونسو اللعين يضغط على ممالك المُسْلِمِين الكبرى المجاورة له أى مملكتى بطليوس وإشبيلية؛ فأرسل إلى المُتَوَكِّل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب منه أن يُسلِّم إليه القلاع والحصون المجاورة لحدوده مع تأدية

الجزية، وضعُف مسلمو الأَنْدَلُس أمام هذه الضربات الماكرة، وأصبح سقوط الممالك قابَ قوسين أو أدنى، وظل حُكَّام الممالك منغمسين بملذَّاتهم وفسادهم، يحاربون أنفسهم ويحالفون النصارى ضد إخوانهم، ويؤدُّون لهم الجزية مقابل تركهم على عروشهم التى تزعزعت أمام ضرباتهم، واستخدم ملوك الطوائف المرتزقة من النصارى لحماية أنفسهم بعد أن فقدوا الأمل فى شعوبهم ورعاياهم بسبب ظلمهم وجورهم وتعسُّفهم، وجعل الله بين أمراء الطوائف من التنافس والتدابر والتقاطع والتحاسد والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات, فلم تصل لهم فى الله يد، ولا نشأ على التعاضد عزم ، لذلك انهارت الروح المعنوية للشعب الأَنْدَلُسى بعدما رأى من أمرائه التخاذل والخيانة, حتى كاد هذا الشعب الصابر يفقد القدرة على القتال بما كان يرهقه حُكَّامه من الضرائب للتنعم بالعيش الرغيد ودفع الجزية للنَّصَارَى، وأصبح بين حاكم مُبتزٍّ وعدوٍّ متربصٍ، فقد ارتقى عرش إسبانيا النصرانية ألفونسو السادس بن فرديناند الذى كان يرغب فى احتلال الجزيرة الإيبيرية، وعادت حرب الاسترداد قوية على يده، وقد بدأ أعماله الحربية بمدينة طُلَيْطِلَة فحاصرها سبع سنوات حتى سقطت بيده فى ٢٥ آيار ١٠٨٥م مستهل صفر ٤٧٨هـ, وقد أحدث سقوطها دويًا هائلاً فى العالم الإسلامى الغربي، وبات المُسْلِمُون فى حال من الضياع التام لا يعرفون كيف يتصرفون, وبدأوا بمغادرة المناطق المتاخمة لألفونسو، وأصبحت مملكة طُلَيْطِلَة خالية من السكان الذين هجروها إلى بطليوس هربًا من الاضطهاد وحفاظًا على دينهم، ورأى ألفونسو أن زمام الأَنْدَلُس أصبح فى يده، فضاعف غاراته على جميع البلاد؛ وتساقطت المُدُن والقرى بين يدى اللعين الحقود وأرسل إلى المُتَوَكِّل بن الأفطس وصاحب بطليوس يطلب إليه تسليم بعض الحصون، والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية، ويتوعده بشر العواقب إذا رفض، فردَّ المُتَوَكِّل بشجاعة ونبل معلنًا تحديه، وفى هذه الرسالة معانٍ عميقة وفهم دقيق للموقف الحرج الذى أصبح فيه المُسْلِمُون حيث قال المُتَوَكِّل: «..ولو علم – أى

ألفونسو- أن لله جنودًا أعزّ بهم كلمة الإسلام, وأظهر بهم دين نبينا مُحَمَّد (ﷺ) وأعزه على الكافرين.. وأما تعييرك للمُسْلِمِين فيما وهَى من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك أى مصاب أذقناك كما كان أبوك تتجرّعه... وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك أهدى ابنته إليه مع الذخائر التى كانت تفد كل عام عليه»

وأرسل المُتَوكِّل قاضيه العالم الفقيه أبا الوليد الباجي ليطوف على حواضر الأَنْدَلُس يدعو إلى لمّ الشعث وتوحيد الكلمة، ومدافعة العدو، ولكن مهمة القاضى لم تُكلل بالنجاح لأن ضعف الأمراء، وانهيار مقومات الدولة، وتخاذل الشعب فرضت على الحُكّام استرضاء العدو، عندئذٍ كتب المُتَوكِّل إلى الأمير يوسف بن تاشفين، يصور له محنة الأَنْدَلُس ويستنصره ، «لما كان نور الهدى -أيدك الله- دليلك, وسبيل الخير سبيلك، ووضحت فى الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصحّ العلم بأنّك لدعوة الإسلام أعزُّ ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعى لما عضل الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها عند إفراط تسلُّطها واعتدائها وشدة كلفها واستشرائها تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضى بكل خطيرة، ولم يزل دأبها التشكك والعناد، ودأبها الإذعان والانقياد حتى نفذ المطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم فى افتتاح المدن، واضطرمت فى كلّ جهة نارهم، ورويت من دماء المُسْلِمِين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطئ القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسارى وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب، فيا الله ويا للمُسْلِمِين أيسطو هكذا بالحق الإفكُ، ويغلب التوحيدَ الشركُ، ويظهر على الإيمان الكفرُ، ولا يكشف هذه البلية النصرُ، ألا ناصر لهذا المهتضم؟ ألا حامى لما استبيح من الحرم؟، وإنا لله على ما لحق

عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزيّة التى ليس فيها عزاء، والبلية التى ليس مثلها بلاء، ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك – أعزّك الله – بالنازلة فى مدينة قورية أعادها الله وإنّها مؤيدة للجزيرة بالخلاء، ومَن فيها من المُسلِمين بالجلاء، ثم ما زال التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند حتى تخلّصت القضية وتضاعفت البلية وتحصّلت فى يد العدو مدينة سرية، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع فى الحصانة والامتناع.

وهى من المدينة كنقطة دائرية تدركها من جميع نواحيها، ويستوى فى الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هو إلاّ نفس خافت وزمر داهق استولى عليها عدو مشترك وطاغية منافق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً, وتتداركها ركبانًا ورجالاً، وتنفروا نحوها خفافًا وثقالاً، وما أحضكم على الجهاد بما فى كتاب الله فإنّكم له أتلى، ولا بما فى حديث رسول الله (ﷺ) فإنكم إلى معرفته أهدى، وكتابى إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ يفصّلها ويشرُحها، ومشتمل على نكتة وهو يبينها ويوضّحها، فإنه لما توجه نحوك احتسابًا، وتكلف المشقة إليك طالبًا ثوابًا، عوّلت على بيانه, ووثقت بفصاحة لسانه, والسّلام».

ثانيًا: ألفونسو والمعتمد بن عباد:

لقد وقع المُعتَمِد بن عبَّاد فى أخطاء كثيرة؛ حيث تعاهد مع ألفونسو ضد إخوانه المُسلِمين فى طُلَيْطِلَة مقابل أن يسمح له ألفونسو بأخذ ممالك ممن حوله إلاّ إن النصارى – كما علمت – لا عهود لهم ولا مواثيق، فأراد ألفونسو أن يجد مبررًا لضرب الحصار على إشبيلية, واحتلال قرطبة، فطلب من المُعتَمِد حصونًا وقرى الموت أحبُّ إليه من تسليمها, ومارس ألفونسو مع المُعتَمِد أنواعًا من الإذلال والتجنى لتخرج المُعتَمِد عن طوره ويلغى الاتفاقية الهزيلة بين الطرفين ويجد ألفونسو والنصارى ما يبرّر أفعاله الانتقامية والوحشية.

فطلب ألفونسو من المُعْتَمِد أن يسمح لزوجته القمطجية أن تلد في جامع قرطبة بناءً على نصيحة الأساقفة، لأن الطرف الغربى كان موقع كنيسة قرطبة القديمة، وسأله أن تنزل بالزهراء مدينة الخليفة الناصر، لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة المزعوم، وأرسل إليه بعثة من خمسمائة فارس برئاسة اليهودى ابن ساليب لأخذ الجزية، وتجرأ السفير وقلّ أدبه إن كان له أدب، وخرج على العرف الدبلوماسي، وأغلظ فى القول للمُعْتَمِد وقال: «لا تعتقدونى بسيطًا لأقبل مثل هذه العملة المزيفة, لا آخذ إلا الذهب الصافي، السنة القادمة ستكون مدنًا». فأخذت المُعْتَمِد النخوة الإسلاميّة وصلب اليهودي، وقتل البعثة، وبذلك يكون ألفونسو قد تحصل على.ما يريده، وكان ألفونسو متجهًا لحصار قرطبة فلمّا وصل خبر البعثة أقسم بآلهته ليغزون المُعْتَمِد فى إشبيلية، وحرّك جيوشه نحو غرب الأَنْدَلُس فدمّر كل القرى والتخوم التى فى طريقه نحو إشبيلية, وخرج فى جيش من طريق آخر يدمّر ويخرّب ويقتل ويحرق ويسفك ويسبي، حتى وصل إلى جزيرة طريف أقصى جنوب الأَنْدَلُس على المضيق، وأدخل قوائم فرسه فى البحر قائلاً: «هذا آخر بلاد الأَنْدَلُس قد وطئته».

ومن هنا أرسل إلى الأمير يوسف بن تاشفين: «أمّا بعد.. فلا خفاء على ذى عينين أنّك أمير المُسْلِمين بل الملة الإسلاميّة، كما أنا أمير الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأَنْدَلُس من التخاذل والتواكل، والإهمال للرعية والإخلاد إلى الراحة، وأنا أسومهم الخسف، فأخرب الدّيار وأهتك الأستار، وأقتل الشبّان وآسر الولدان، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرتهم إن أمكنك معرفة هذا، وأنتم تعتقدون أن الله – تعالى – فرض على واحد منكم عشرة منا، وأن قتلاكم فى الجنة وقتلانا فى النار، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم وأعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعًا ولا تستطيعون امتناعًا، وبلغنا عنك وأنّك فى الاحتفال عن نية الاستقبال فلا يدرى أكان الجبن بك أم التكذيب

بما أنزل عليك، فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إليَّ ما عندك من المراكب نجوز إليك، أناظرك فى أحب البقاع إليك؛ فإن غلبتنى فتلك نعمة جلبت إليك، ونعمة شملت بين يديك، وإن غلبتك كانت لى اليد العليا عليك, واستكملت الإمارة, والله يتم الإرادة».

فكان ردُّ يوسف بن تاشفين – رحمه الله – على ظهر الكتاب ذاته: «ما ترى لا ما تسمع إن شاء الله –تعالى– » وأردف:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا

ولا رسل إلا الخميس العرمرم

وعاد ألفونسو المغرور المتكبر إلى إشبيلية حيث التقى بجيشه الآخر أمام قصر المُعتَمِد بن عبَّاد بضفة النهر، وحاصر المدينة ثلاثة أيام، وكتب إلى المُعتَمِد يسأله أن يرسل إليه مروحة لطرد الذباب، ولم يتحمل المُعتَمِد هذه الإهانة فردَّ: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك, وسأنظر إليك فى مراوح من الجلود اللمطية تروح منك ولا تروح عليك».

ترك ألفونسو إشبيلية وسار نحو سَرَقُسْطَة وحاصرها، كانت شبه ضائعة تنتظر مصيرها المؤلم, وصاحبها ابن هود لا يستطيع الدفاع كثيرًا، ثم أخذ بلنسية, وأعطاها القادر بن ذى النون صاحب طُلَيْطِلَة السابق، وهاجم مملكة المرية, ووصل القشتاليون إلى نابار قرب غرناطة, كان الخطر على الأنْدَلُس شديدًا، وقلة الشجاعة وانهيار الروح المعنوية تثبط العزائم، إذ أن ثمانين قشتاليًا هزموا أربعمائة من المرية.

ثالثا: اجتماع علماء قرطبة:

أمام هذا الضياع المفزع الذى وصلت إليه ممالك الأنْدَلُس؛. اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المُعتَمِد أن هذا الرأى فيه صواب ونفاذ بصيرة؛ فجدَّ فى تقوية جيشه ورمم الحصون والقلاع، وقرَّر أن يطلب النجدة من إخوانه المُسلِمين، وتشاور فى الأمر مع ابنه الرشيد وزعماء إشبيلية الذين أشاروا عليه بمهادنة ألفونسو والخضوع لشروطه، ولكن هذا الرأى لم يجد هوى فى نفس المُعتَمِد الذى خلا بابنه الرشيد وكان ولى عهده وقال له: «أنا فى هذه الأندَلُس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم، وليس لنا ولى ولا ناصر إلا الله، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندَلُس ليس فيهم نفع، ولا يُرجَى منهم نصرة، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل وهو اللعين أذفونش فقد أخذ طُلَيْطِلَة وعادت دار كفر وها هو قد رفع رأسه إلينا.

وإن نزل علينا طُلَيْطِلَة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية، ونرى من الرأى أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز إلينا ليدافع عنا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا، فقد تلف لجاؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا, وبغضتنا العامة والخاصَّة. فأجابه الرشيد: يا أبت أتدخل علينا فى أندَلُسنا مَن يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟ فقال: أى بنى والله لا يسمع عنى أبدًا أنى أعدت الأندَلُس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليَّ اللعنة من على منابر المُسلِمين مثل ما قامت على غيري، والله خُرز الجمال عندى خير من خُرز الخنازير»

ولما انتشر رأى المُعتَمِد بن عَبَّاد فى الأندَلُس حذره ملوك الطوائف من ذلك وقالوا له: «الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان فى غمد واحد»، وعارض بشدة طلب العون من المرابطين عبد الله بن سكوت والى مالقة الذى كان يرى أن المرابطين أشد خطرًا من النصارى، ويجب الاعتماد على القوة الذاتية للأندَلُسيين، فأجابهم المُعتَمِد: «رعى الجمال خير من رعى الخنازير» وأضاف: إن دهينا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الشرَّين أمر الملثمين».

وقال للذين لاموه على هذا الرأي: يا قوم إنّي في أمري على حالين: حالة يقين وحالة شك، ولابد لي من أحدهما، أمّا حالة الشك فإنّي إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفيا لي ويبقيا عليَّ، ويمكن أن لا يفعلا فهذه حالة شك.

وأمّا حالة اليقين فإنّي إن استندت إلى ابن تاشفين فإني أرضي الله، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه؟ حينئذٍ قصر أصحابه عن لومه.

ولما عزَم على طلب النصرة من المرابطين؛ اتصل المُعْتَمِد بالمُتَوَكِّل بن الأفطس صاحب بطليوس، وعبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة، وطلب منهما أن يرسل كل منهما قاضي مدينته حتى يكونوا وفدًا إلى المرابطين لمقابلة الأمير يوسف بن تاشفين، وتشكّلت البعثة من قاضي قرطبة ابن أدهم، وقاضي بطليوس ابن مقانا، وقاضي غرناطة ابن القليعي، ومعهم وزير المُعْتَمِد أبو بكر بن زيدون، وأسند المُعْتَمِد إلى القضاة وعظ الأمير يوسف وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى وزيره إبرام العقود، وحملت البعثة معها رسالة مكتوبة من المُعْتَمِد إلى الأمير يوسف مؤرخة ٤٧٩هـ، وهذا نصُّها: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.. إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدِّين ومحيي دعوة الخليفة، الإمام أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، القائم بعظيم أكبارها، الشّاكر لأجلالها المعظِّم لما عظم الله من كريم مقدارها، اللائذ بحرامها، المنقطع إلى سمُّو مجدها، المستجير بالله وبطولها مُحَمَّد عباد سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته.

كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غرة جمادى الأولى ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وإنّه أيّد الله أمير المُسْلِمين ونصر به الدِّين، فإنّا – نحن

العرب – فى هذه الأَنْدَلُس قد تلفت قبائلنا، وتفرّق جمعنا، وتغيّرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا؛ فصرنا شعوبًا لا قبائل, وأشتاتًا لا قرابة ولا عشائر، فقلّ نصرنا، وكثر شُمّاتنا، وتولّى علينا هذا العدو المجرم اللعين ألفونسو وأناخ علينا بطُلَيْطِلَة ووطئها بقدمه، وأسر المُسلِمِين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأَنْدَلُس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا إلاّ أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال، وأنت أيدك الله سيد حمير، ومليكها الأكبر، وأميرها وزعيمها، نزعت بهمتى إليك واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الإسلام وتدينون على دين مُحَمَّد (ﷺ)، ولكم عند الله الثواب الكريم على حضرتكم السامية السلام ورحمة الله وبركاته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم»

وأرسلت وفود شعبية من الشيوخ والعلماء رسائل تحثُ الأمير على إنقاذ الأَنْدَلُس.

وتأثر المرابطون لمُصاب إخوانهم فى الدِّين، وعرض أميرهم قضية مسلمى الأَنْدَلُس على أهل الحلّ والعَقْد عنده، وأجمعوا على نصرة دينهم وإعزاز كلمة التوحيد، وكان وزير يوسف ومستشاره أَنْدَلُسى الأصل اسمه عبد الرحمن بن أسبط أو أسباط، فنصحه المستشار بأن يطلب من المُعْتَمِد بن عَبَّاد الجزيرة الخضراء لكى تكون آمنة لعبور الجيش، ولحماية خطوط التموين، وقال له: إن الأمر لله تعالى ولكم، وواجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم والانتصار له، واقتنع الأمير يوسف برأى وزيره فى طلب الجزيرة الخضراء ليجعل فيها أثقال جيشه وأجناده ويكون الجواز بيده متى شاء، وقال الأمير يوسف لعبد الرحمن: صدقت يا عبد الرحمن, لقد نبهتنى على شيء لم يخطر ببالي, اكتب إليه بذلك.

وكتب ابن أسبط إلى المُعْتَمِد بن عَبَّاد الكتاب التالى نصُّه: «بسم الله الرحمن الرحيم, وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

من أمير المُسْلِمين وناصر الدِّين معين دعوة أمير المؤمنين، إلى الأمير أكرم المؤيد بنصرة الله تعالى المُعْتَمِد على الله أبى القاسم مُحَمَّد بن عَبَّاد أدام الله كرامته بتقواه، ووفقه لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فإنه وصل خطابك الكريم، فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كربتك، وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك، وواجب علينا فى الشَّرع, وفى كتاب الله تعالى، وإنَّه لا يمكننا الجواز إلا أن تُسلِّم لنا الجزيرة الخضراء؛ تكون لنا لكى يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فاشهد على نفسك بذلك, وابعث إلينا بعقودها ونحن فى أثر خطابك إن شاء الله تعالى».

اطلع المُعْتَمِد ابنه الرشيد على خطاب الأمير يوسف فقال له: يا أبت ألا تنظر إلى ما طلب؟ فقال له المُعْتَمِد: يا بنى هذا قليل فى حق نصرة المُسْلِمين، ثم جمع المُعْتَمِد القاضى والفقهاء، وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء للأمير يوسف، وتسليمها له بحضورهم، وكان يحكمها يزيد الراضى بن المُعْتَمِد، فبعث إليه أمره بإخلائها وتسليمها للمرابطين لتكون رهناً بتصرف الأمير يوسف. وبعد موافقة المُعْتَمِد تجهَّز يوسف لتلبية نداء إخوانه فى العقيدة راغبًا فى الأجر والمثوبة من الله بتأدية فريضة الجهاد، وكتب أمانًا لأهل الأَنْدَلُس ألا يتعرض لأحد منهم فى بلده وقال: «أنا أول مُنتَدَبٍ لنصرة هذا الدِّين, لا يتولى الأمر أحد إلا أنا بنفسي» وأعلن النفير العام فى قوات المرابطين، فأقبلت من مراكش, ومن الصحراء وبلاد الزاب, ومن مختلف نواحى المغرب يتوافدون على قيادتهم الربَّانية، وجهزت السفن لتحمل هذه القوات، وكان أول من نفَّذ أمر العبور قائد المرابطين النابغ داود ابن عائشة,

وتمركز فى الجزيرة الخضراء، وتتابعت كتائب المـرابطين، وكانـت معهـم الجمال الكثيرة، وقد أثار وجودها دهشة الأَنْدَلُسيين، لأنَّهم لم يكونوا يعرفونهـا من قبل، وقد أثَّر وجودها على الخيل فأخذت تجمح لدى رؤيتها.

ولما تكامل الجيش المرابطى بساحل الجزيرة الخضراء، ركب الأمير يوسف ومعهٍ قادة من خيرة قادة المرابطين وصلحائهم، ولمَّا ركـب واسـتوى على السفينة رفع يديه نحو السماء مناجيًا: «اللهم إن كنت تعلم أن جوازنا هذا إصلاح للمُسْلِمين فسهِّل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كـان غيـر ذلـك فصعبه حتى لا نجوزه». وسهل الله عبورهم، وكان ذلك يوم الخمـيس بعـد الزوال منتصف ربيع الأول ٤٧٩هـ حزيران ١٠٨٦م، وصلى الأمير يوسف بالجزيرة الخضراء صلاة الظهر، وقام أهل الجزيـرة بـضيافة المـرابطين، وظهر فرحهم وسرورهم على وجوههم، وبدأ الأمير يوسـف فـى تحـصين الجزيرة الخضراء، ورمَّم أسوارها وما تصدَّع من أبراجها، وشحنها بالأسلحة والأطعمة وكلف مجموعة من جنوده بحراستها ثم ساروا نحو إشبيلية.

سارع المُعْتَمِد مع قادة قومه وشيوخ مدينته وفقهاء بلاده لاستقبال أمير المرابطين، ولما التقى بيوسف تعانقا طويلاً بمودة وحب وإخلاص وأخوة فـى الدِّين، وتذاكرا نعم الله عليهما، وتواصيا بالصبر والجهاد فى سبيل نصرة دين المُسْلِمين، وكان المُعْتَمِد مُحمَّلاً بالهدايا، وأصدر أوامره لعمال الـبلاد بجلـب الأرزاق لضيافة الجيش المرابطي، وكان المُعْتَمِد كريمًا وجوادًا باذلاً للخير.

واستعرض المُعْتَمِد الجيش المرابطى فرأى «عسكـرًا نقيًا ومنظرًا بهيًا».

وواصل الأمير يوسف سيره نحو إشبيلية حيث كان يستقبل بالترحـاب مع جيشه المرابطى على امتداد الطريق حتى وصل حاضرة المُعْتَمِد، فأقام بها ثلاثة أيام للاستراحة، ثم قال للمُعْتَمِد: «إنما جئت ناويًا جهاد العدو حيثما كـان توجهت».

وأثناء مقام الأمير يوسف فى إشبيلية بعث الأمير يوسف إلى ملوك الأَنْدَلُس يستنفرهم للجهاد، فكان أول من لبى الدعوة عبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة الذى خرج إليه بأمواله ورجاله، وأخوه تميم صاحب مالقة، وأرسل ابن صمادح ابنه معز الدولة فى فرقة من جيشه, وسار الأمير الربَّانى والقائد الميدانى نحو بطليوس، فاستقبلهم صاحبها المُتَوَكِّل بن الأفطس على ثلاث مراحل من المدينة, وقدَّم لهم الهدايا والضيافة وعلف الدواب وظهر منه جود وكرم، وأقام الأمير أيامًا عدة حتى يصل باقى المتطوعين إلا أن أكثرهم لم يصل لانشغالهم بمدافعة النصارى، فتابع سيره الجهادى حتى حطَّ رحاله عند سهل الزّلاقة, وكان يبعد عن بطليوس ثمانية أميال.

ونظَّم يوسف بن تاشفين جيشه، فجعل الأَنْدَلُسيين جيشًا, مستقلاً بذاته وأسند قيادته إلى المُعْتَمِد بن عبَّاد الذى تولى المقدمة، وأسندت الميمنة إلى المُتَوَكِّل بن الأفطس، وجعل أهل شرق الأَنْدَلُس على الميسرة، وباقى أهل الأَنْدَلُس فى الساقة.

أمَّا الجيش المرابطى فتولى داود ابن عائشة قيادة فرسانه، وأما سير بن أبى بكر فتولى قيادة الحشم، وبقية المرابطين مع حرس الأمير يوسف بن تاشفين إلى جانب قيادته الجيش الإسلامي، وعسكر المرابطون خلف الأَنْدَلُسيين تفصل بينهم ربوة بقصد التمويه، وكان تعداد جيش المرابطين والأَنْدَلُسيين أكثر من ٢٤ ألف جندي وتضاربت الروايات فى ذلك.

وكان ألفونسو مشغولاً بمحاصرة سَرَقُسْطَة, ولما وصله الخبر السعيد ارتبك وجزع، وطلب من المستعين بن هود حاكم سَرَقُسْطَة أن يدفع له مالاً مقابل فك الحصار، فامتنع ابن هود لما عَلِمَه من وصول المرابطين وقرَّر ألا يساعد ألفونسو بأى مال يستعين به على قتال المُسْلِمِين.

واضطرَّ ألفونسو لرفع الحصار، ورجع مسرعًا إلى طُلَيْطِلَة، وأعلن الاستنفار العام، وحل نزاعه وخلافه مع بعض أمراء النصارى، وأرسل إلى مَن وراء جبال ألبرتات فأتته أفواج عديدة من النصارى متطاوعة من أجل الحرب المُقدَّسة، وجند الفونسو كل مَن يستطيع حمل السلاح صغيرًا أو كبيرًا، ونظَّم جيشه وقسمه إلى قسمين كبيرين: أسند قيادة الجيش الأول إلى ابن عمه الكونت غرسيا وررودريك، وما لبث غرسيا أن انسحب قبل بدء المعركة أثر خلاف مع ألفونسو الذى أبقى رودريك فى القيادة، واحتفظ بقيادة الجيش الثانى وعيَّن على جناحيه سانتشور أميرز والكونت برنجار ريموند, وتولَّى هو القلب, «وكان جيش ألفونسو يعتمد على الفرسان كمجموعة, وكان الفارس يلبس الزرد والدروع التى تغطيه من الرأس إلى القدم كأنَّه حصن من الحديد يتحرك لتزداد شجاعته وجرأته».

ولما استعرض جيشه نفخ فيه الشيطان غروره وكبرياءه، وقال قولة تدل على تجذر كفره وعتوه وفساد معتقده حيث قال: «بهذا الجيش ألقى مُحَمَّدا وآل مُحَمَّد والأنس والجن والملائكة».

«وكانت جموع الرهبان والقسيسين أمام جيش ألفونسو الملعون يرفعون الإنجيل والصلبان لإذكاء الحماس الدِّينى فى نفوس الجنود الذين بلغ عددهم أكثر من ستين ألفًا».

وخرج ألفونسو بجيشه نحو بطَلْيوس، وكتب إلى المُعْتَمِد بن عَبَّاد كتابًا جاء فيه: «إن صاحبكم يوسف قد تعنَّى من بلاده وخاض البحار، وأنا أكفيه العناء فيما بقى, ولا أكلفكم تعبًا، وأمضى إليكم وألقاكم فى بلادكم رفقًا بكم وتوفيرًا عليكم».

وقصد ألفونسو بذلك أن تكون المعركة خارج بلاده فإذا انهزم ولحقوا به يكون مسيرهم فى أرضهم ولابد من الاستعداد لاكتساح بلاده، وبذلك تنجو من التدمير، وإذا انتصر حدث ذلك فى أرض أعدائه.

وصل ألفونسو إلى بطحاء الزّلاقة وخيم على بعد ثلاثة أميال من الجيش المسلم يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون.

لقد انزعج ألفونسو من مجيء المرابطين انزعاجًا كبيرًا, حيث شعر بعودة الروح المعنوية إلى أهالى الأَنْدَلُس الذين كان يسومهم سوء العذاب، يُقتِّل رجالهم ويسبى نساءهم، ويأخذ منهم الجزية، ويحتقرهم ويزدريهم، ويتلاعب بمصيرهم, وينتظر الفرصة لاستئصالهم من الأَنْدَلُس، لتعم النصرانية فى سائر البلاد، ويرتفع الصليب على أعناق العباد، وإذا بالمرابطين يربكون مخططاته ويبددون أحلامه.

لذلك أراد ألفونسو أن يوجِّه ضربة قاصمة لمن كان السبب فى استدعاء المرابطين وخصوصًا للفارس المغوار المُعْتَمِد بن عَبَّاد وقرينه المُتَوكِّل بن الأفطس، وكان يرى أن نصره يعتمد على تكبيل القوة الدَّاخليَّة فى الأَنْدَلُس بالهزائم المتتالية والمتلاحقة.

أما المرابطون بعد ذلك سيرجعون إلى وطنهم الأصلى المغرب، وبالقضاء على الأَنْدَلُس يسهل القضاء على المرابطين بسبب جهلهم بالطبيعة الجغرافية للبلاد.

ومما ساعد ألفونسو على أن يعيش فى تلك الأحلام فتور معظم أهل الأَنْدَلُس بسبب ترفهم ونعيمهم وجبنهم وحبهم للحياة وهروبهم من الشهادة، كما أن أسباب الهزيمة نخرت فى ذلك المجتمع المتهالك.

أما المُعْتَمِد بن عَبَّاد صاحب إشبيلية والمُتَوكِّل بن الأفطس صاحب بطليوس فقد قررا امتشاق الحسام، فمَن ظفر عاش سعيدًا ومَن مات كان شهيدًا.

وأما المرابطون الذين تربوا على تعاليم الإسلام وأصول أهل السنة والجَماعَة ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بعد تربية عميقة، وتكوين فريد

وإيمان راسخ ساهم علماء وفقهاء المالكية فى ذلك، وعلى رأسهم الفقيد الشهيد ابن ياسين, فقد مروا بمراحل صقلتهم وحروب زكتهم، وأصبحوا متشوّقين إلى الاستشهاد معتمدين على رب العباد, آخذين بأسباب النصر المعنوية والمادية.

وكان رأى المرابطين إن المعركة فى الأَنْدَلُس مصيرية للأمة الإسلاميَّة وبذلك لا يمكن الاعتماد على شعب مهزوم وقع فى أسر المعاصى والذنوب.

وكما أن انتصارهم فى الأَنْدَلُس يرعب أعداءهم وخصومهم فى المغرب ويتم بنصرهم إنقاذ الإسلام والحضارة فى ذلك البلد البعيد عن العالم الإسلامي.

كان ألفونسو يقود حربًا صليبية شرسة ضد المُسْلِمِين، ودعمته الكنيسة فى روما بالجنود والعتاد والأموال، ورغبت بلدان الإفرنجة بالوقوف مع ألفونسو فى حربه المقدسة ضد المُسْلِمِين.

إن الجانب المادى عند النصارى كان أعلى بكثير مما عند المرابطين، ولكنَّ الجانب المعنوى عند المرابطين لا حدود له.

وأرسل يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو كتابًا يعرض عليه الدخول فى الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب، ومما جاء فى كتاب الأمير: «بلغنا يا أذفونش أنَّك نحوت الاجتماع بنا, وتمنيّت أن تكون لك فُلْكٌ تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك، وجمع الله فى هذه العرصة بيننا وبينك، وترى عاقبة ادعائك (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال)» .

ولما قرأ ألفونسو الكتاب زاد غضبه وذهب بعقله وقال: «أبمثل هذه المخاطبة يخاطبنى وأنا وأبى نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟» وقال لرسول الأمير يوسف: «قُل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك»، وإنَّنا سنلتقى فى ساحة المعركة ، ومعنى ذلك أن ألفونسو اختار الحرب، وحاول ألفونسو حامى حمى النصرانية فى إسبانيا أن يخدع المُسْلِمِين ويمكر بهم،

فكتب إلى الأمير يوسف فى تحديد يوم المعركة فكتب إليه: «إن بعد غد الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنّه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم كثير فى محلتنا، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين» فكان جواب الأمير يوسف: «اتركوا اللعين وما أحب» فاعترض المُعتَمِد وقال للأمير يوسف: «إنها حيلة منه وخديعة إنّما يريد غدرنا فلا تطمئن إليه، وقصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النّهار».

واستعد المُسْلِمُون لرصد تحركات النصارى وكان حدس المُعْتَمِد صائبًا صحيحًا, ورصدوا تحرك العدو نحوهم.

وانقض الجيش الذى يقوده رودريك بمنتهى العنف على معسكر المُسلِمِين من الأَنْدَلُسيين فتصدّى فرسان المرابطين الذين يقودهم داود ابن عائشة الذين أرسلهم يوسف ابن تاشفين على عجل لدعم الأَنْدَلُسيين، وصمد المرابطون أمام هجوم النصارى، واضطر النصارى إلى الارتداد إلى خط دفاعهم الثانى وظهرت من داود ابن عائشة وجنوده كفاءة قتالية لم يعرف لها مثيل، واختار الله من المرابطين شهداء، واحتدم الصراع، وزحف ألفونسو ببقية جيشه، وأقرن زحفه بصياح هائل أفزع قلوب الأَنْدَلُسيين قبل خوضهم المعركة، ولاذوا بالفرار ووجدوا أنفسهم أمام أسوار بطليوس للاحتماء بها، ولم يصمد منهم إلا فارس الأَنْدَلُسيين وقومه «المُعْتَمِد بن عَبَّاد وأهل إشبيلية» وأبلى بلاءً عظيمًا وعقرت تحته ثلاثة أفراس، وأصيب بجروح بليغة، واستمرت المعركة الرهيبة، وصمد المُعتَمِد مع داود ابن عائشة حتى فلت السيوف، وتكسرت الرماح, وصبر المُسلِمُون فى المعركة صبرًا عظيمًا سجل فى صفحات المجد والعزة والكرامة فى تاريخنا المجيد.

وبدأت قوة المُسلِمين تضعف وتتقهقر أمام ضربات النصارى الحاقدة، وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر مُعتَقِدًا إن هذه هى قوة المُسلِمِين المقاتلة التى ظهر

الإعياء عليها، وأخذت موقف المدافعة، ولم يستغرق ألفونسو طويلاً فى أحلامه حتى وثب جيش من المرابطين إلى ميدان المعركة أرسله الأمير يوسف بقيادة سير بن أبى بكر على رأس الحشم لمساندة القوات الإسلاميَّة، فتقـوَّت بـذلك معنوياتهم في معركة مالت إلى هزيمتهم، وزحف الأميـر يوسـف بحرسـه المرابطي، وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو مـن الخلـف، ووصل إلى خيامه وأحرقها وأباد حراسها، ولم ينج منهم إلا القليـل، وكانـت طبول المرابطين تدق بعنف فترتج منها الأرض، ورغاء الجمال يتصاعد إلى السماء فبث الذعر فى نفوس الأعداء وهلعت قلوبهم. وذهل ألفونـسو عنـدما رأى بعض حرس معسكره فارِّين، وأتته الأخبار من داخل المعسكر باسـتيلاء المرابطين عليه، وأنَّه خسر حوالى عشرة آلاف قتيل, ووجد ألفونـسو نفـسه محاصرًا من المُسْلِمين فاضطر للقتال متقهقرًا نحو معسكره المحروق، ولكـن يوسف لم يترك له الفرصة لالتقاط الأنفاس، فانقضَّ عليـه كالـسيل، وقاتـل ألفونسو عند ذلك قتال المستميت، وكان الأمير يوسف يبث الحماس فى نفوس المُسْلِمين قائلاً: «يا معشر المُسْلِمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين, ومـن رُزِق منكم الشهادة فله الجنة ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة»، وكان رحمه الله يقاتل فى مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين، وكأن العنايـة الإلهية كانت تحميه، وكان فقهاء المُـسْلِمين وصـالحوهم يعظـون الجنـود ويشجعونهم على مصابرة أعداء الدِّين، وفى هذا الجو الرهيب من القتال الذى دام بضع ساعات وسقط فيه آلاف القتلى، وغمر الدم ساحة المعركة عندما دفع الأمير حرسه الخاص من السودان إلى القتال، فترجل منهم أربعة آلاف كـانوا مسلحين بدروق اللمط وسيوف الهند ونزاريق الزان.

اندفعوا إلى المعركة اندفاع الأسـود فحطمـوا مقاومـة النـصرانية، وتكسَّرت شوكتهم, وانقض أسد من أسود المُسْلِمين على ألفونسو وطعنه فـى فخذه، ولاذ النصارى بالفرار، وتمنى ألفونسو الموت على العيش, ولجـأ مـع

خمسمائة فارس من فرسانه إلى تل قريب ينتظر الظلام لينجو من سيوف المرابطين.

ومنع يوسف جنوده من اللحاق بهم، وكانت مناسبة لألفونسو الذى تابع سيره مع الظلام إلى طُلَيْطِلَة، وصل إليها مغموماً حزيناً كسيراً جريحاً بعد أن فقد خيرة رجاله وجنوده وقادة جيشه.

وفقد ألفونسو فى الزّلاقة القسم الأعظم من جيشه، وأمر يوسف بضم رءوس القتلى من النصارى، فعمل المُسْلِمُون منها مآذن يؤذنون عليها. واستشهد فى تلك المعركة الخالدة جماعة من العلماء والفقهاء، قلما يجود الزمان بمثلهم منهم قاضى مراكش عبد الملك المصمودي، والفقيه الناسك أبو العبّاس بن رميلة القرطبي. وجمع المُسْلِمُون الأسلاب والغنائم التى تركها النصارى وراءهم فى ساحة المعركة، وآثر الأمير يوسف بها ملوك الأَنْدَلُس، وقد عرّفهم أن هدفه الجهاد فى سبيل الله ونصرة الإسلام.

وأرسل الأمير يوسف إلى المغرب أخبار النصر المبين وهذا نص خطابه: «أمّا بعد حمدًا لله المتكفّل بنصر أهل دينه الذى ارتضاه، والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد أفضل وأكرم خلقه، فإن العدو الطاغية لما قربنا من حماه وتوافقنا بإزائه بلغناه الدعوة، وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب، فاختار الحرب، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة يوم الاثنين ١٥ رجب وقال: الجمعة عيد المُسْلِمِين، والسبت عيد اليهود، وفى عسكرنا منهم خلق كثير، والأحد عيدنا نحن، فافترقنا على ذلك، وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه وعلمناه أنهم أهل خدع ونقض عهود فأخذنا أهبة الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم، فأتتنا الأنباء فى سحر يوم الجمعة ١٢ رجب أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المُسْلِمِين، يرى أنه قد اغتنم فرصته فى ذلك الحين، فنبذت إليه أبطال المُسْلِمِين، وفرسان المجاهدين فتغشته قبل أن يتغشاها، وتعدّته قبل أن يتعداها، وانقضت جيوش المُسْلِمِين على جيوشهم

كانقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الأسد علـــى فريـــسته، وقصدنا برايته السعيدة المنصورة في سائر المشاهد مـــشتهرة ونظـــروا إلـــى جيوش لمتونة نحو ألفونسو – فلمَّا أبصر النصارى راياتنا المشتهرة المنتشرة، ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة، وأغشتهم بروق الـــصفاح, وأظلَّـــتهم سحائب الرماح, ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفيـــاح، فـــالتحم النصارى بطاغيتهم ألفونسو، وحملوا على المُسْلِمين حملـــة منكـــرة؛ فتلقَّـــاهم المرابطون بنيَّات خالصة وهمم عالية، فعصفت ريح الحـــرب وركبـــت دائـــم السيوف والرماح، بالطعن والضرب، وطاحت المهج وأقلبت سيل الدماء فـــى هرج, ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج.

وولَّى ألفونسو مطعونًا فى إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه فـــى ٥٠٠ فارس من ثمانين ألف فارس ومـــائتى ألـــف راجـــل قـــادهم الله علـــى المصارع والحتف العاجل، وتخلَّص إلى جبل هنالك, ونظر النهب والنيران فى محلته من كل جانب وهو من أعلى الجبل ينظرها شذرًا، ويحيد عنها صـــبرًا، ولا يستطيع عنها دفعًا ولا لها نصرًا، فأخذ يدعو بـــالثبور والويـــل، ويرجـــو النجاة فى ظلام الليل، وأمير المُسْلِمين يحمد الله؛ قد ثبتت فى وسط المعركـــة مراكبه المظفرة، تحت ظلال بنوده المنتشرة منصورًا لجهاد مرفوع الأعـــداء، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد، فقد سرح الغارات فى محلاتهم تهدم بناءها، وتصطلم ذخائرها وأسبابها، وتريه رأى العين دمارهـــا ونهبها، وألفونسو ينظر إليها نظر المغشى عليه، ويعض غيظًا وأســـفًا علـــى أنامل كفيه، فتتابعت البهرجة الفرار، رؤساء الأندلس المهزومين نحو بطليوس والفار، فتراجعوا حذرًا من العار، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقوَّاد، أبو القاسم المُعْتَمِد بن عبَّاد، فأتى أمير المُسْلِمين وهو مهيض الجناح، مـــريض عنه وجراح، فهنأه بالفتح الجليل، وتسلَّلَ ألفنش تحت الظلام فارًا لا يهدى ولا

ينام ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طُلَيْطِلَة إلا مائة فارس والحمد لله على ذلك كثيرًا.

وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩هـ/٢٣ شهر أكتوبر ١٠٨٦م .. العجمي.

وأرسل المُعْتَمِد إلى ابنه الرشيد فى إشبيلية يزفُّ إليه البشرى بالنصر، وكان الناس بانتظار الأنباء على أحرّ من الجمر، وقد حمل الرسالة الحمام الزاجل وهى مقتضبة إذ لا تتعدى السطرين، هذا نصها: «اعلم أنه التقت جموع المُسْلِمِين بالطاغية ألفونسو اللعين ففتح الله للمُسْلِمِين وهزم على أيديهم المشركين والحمد لله رب العالمين، فأعلم بذلك من قبلك إخواننا المُسْلِمِين والسلام»، وقرئت الرسالة بمسجد إشبيلية فعمها السرور، ثم توالت الكتب تفيض بأخبار النصر منها إنشاء الكاتب ابن عبد الله بن عبد البر النمرى وفيه يحدد تاريخ المعركة وسيرها وما أظهره ألفونسو من الغدر والآخرة للصالحين.

وأصبح يوم الزّلاقَة عند المغاربة والأنْدَلُسيين مثل يوم القادسية واليرموك: «يوم لم يسمع بمثله من القادسية واليرموك، فياله من فتح ما كان أعظمه، يوم كبير ما كان أكرمه، فيوم الزّلاقَة ثبتت قدم الدّين بعد زلاقها وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها».

نتائج معركة الزلاقة:

كانت لمعركة الزلاقة نتائج مهمة من أهمها:

١- رفع الروح المعنوية لأهل الأنْدَلُس, خصوصًا بعد أن أنقذ الله بها سقوط سَرَقُسْطَة من سقوط محتّم، وأزاح عن ملوك الطوائف وأمرائها كابوس النصارى ومتطلباتهم التى لا تنتهى من الجزية وغيرها.

٢- سقوط هيبة ملوك الطوائف أمام رعاياهم خاصةً أنهم قد هزموا في بدء المعركة ولولا أن أكرمهم الله بالمرابطين لضاعت الأَنْدَلُس.

٣- امتناع الرعية عن دفع الضرائب المخالفة لتعاليم الإسلام وتعلُّقهم بالمرابطين.

٤- مهَّدت الزَّلاقَة إلى إسقاط دول الطوائف فيما بعد على يد منقذيهم.

٥- ظهور نجم يوسف بن تاشفين والمرابطين في العالم أجمع.

٦- انصياع قبائل المغرب التي كانت مترددة في ولائها وتنتظر فرصة الوثوب على المرابطين، وبذلك تكون نتيجة معركة الزَّلاقَة أن جعلت تلك القبائل تخلد إلى السكينة وأعلنت ولاءها التام.

٧- عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه وأعتقت الرقاب وسُرَّ العلماء والفقهاء بهذا النبأ السعيد.

٨- أصيب نصارى الإسبان بهزيمة تعيسة أثَّرت في نفوسهم, وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المُسلمِين في الأَنْدَلُس وإبعادهم.

٩- جعلت النصارى يُرتِّبون أمورهم ويوحِّدون صفوفهم, ويتنازلون عن صراعاتهم الدَّاخليَّة.

وغير ذلك من النتائج المهمة التي غيرت مجرى تاريخ الأَنْدَلُس وبلاد المغرب.

بعد أن رتب الأمير يوسف أموره بعد معركة الزَّلاقَة عاد إلى إشبيلية، ودعا رؤساء الأَنْدَلُس إلى اجتماع عام، وطلب منهم الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي نخر فيهم بسبب اختلافهم؛ فأجابه الجميع بقبول وصيته وتحقيق رغبته، وترك ثلاثة آلاف جندي مرابطي للدفاع عن ثغور الأَنْدَلُس بقيادة سير بن أبي بكر.

رابعًا: رجوع الأمير يوسف إلى المغرب:

لقد عدد المؤرخون أسباب رجوع يوسف إلى المغرب وهو لم يجنِ ثمرة الانتصار بعد إلى أسباب منها:

١- وفاة ابنه الأمير أبى بكر الذى استخلفه على سبتة وكان مريضًا.

٢- اضطراب الحدود الشرقية بسبب تحالف بنى حَمَّاد مع عرب بنى هلال وحاولوا غزو المناطق الحدودية التابعة للدولة المرابطية.

٣- أراد أن يتفقد الولاة والحُكَّام الذين تركهم فى المُدُن والقرى، وينظر فى أمور الرعية.

٤- أراد أن يخرج من إلحاح مسلمى الأَنْدَلُس الذين طلبوا منه تعقُّب ألفونسو وجنوده حيث إنه رأى إن قواته لا تستطيع أن تسيطر على كل الأَنْدَلُس لاتساع أراضيها.

٥- خشى من إبراهيم بن أبى بكر بن عمر الذى زعم أنه له حق شرعى فى استخلاف والده المجاهد الكبير.

إن نظرتى للتاريخ الإسلامى تؤكِّد لى معنى عظيمًا فى حياة أمتنا ألا وهو أن المعارك الفاصلة فى تاريخها المجيد لا تكون إلا لقوم أقاموا الشريعة على مستوى الشعب والجيش والقادة، وهذا المعنى واضح فى سيرة المرابطين الذين تدرَّجوا فى مراحلهم وأقاموا شرع ربهم على أنفسهم.

ولهذا أرى أن من أقوى الأسباب على الإطلاق فى نصر الله للمرابطين هو تمسكهم وتحكيمهم للقرآن والسنة على مستوى شعبهم ودولتهم وجيشهم وقائدهم، ولذلك يهمنا كثيرًا أن نبين أثر تحكيم شرع الله فى الأمم والشعوب والجيوش والأفراد.

* * *

المبحث السادس

أثر الحكم بما أنزل الله على مجتمع المرابطين

تمهيد:

إن التأمّل فى كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) وفى حياة الأمم والشعوب تعطى العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله فى الأنفس والكون والآفاق. وأوضح مكان لسنن الله وقوانينه كتاب الله تعالى. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٢٦].

وسنن الله تتضح بالدراسة فيما صحَّ عن رسول الله (ﷺ) بالمطالعة فى سنته (ﷺ)، فقد كان يقتنص الفرص والأحداث ليدل أصحابه على شيء من السنن، ومن ذلك أن ناقته (ﷺ) «العضباء» كانت لا تُسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابى على قعود له، فشقَّ ذلك على أصحاب النبى (ﷺ)، فقال لهم (ﷺ) كاشفًا عن سنة من سنن الله: «حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه» .

وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السنن فى الأمكنة بالسعى والسَّيْر، وفى الأزمنة من التَّاريخ والسِّير.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٧، ١٣٨].

وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكّر، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس:١٠١، ١٠٢].

ومن خلال آيات القرآن يظهر لنا أن السنن الإلهية تختص بخصائص:

أولاً: أنها قدر سابق: قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨].

أى أن حكم الله تعالى وأمره الذى يقدره كائن لا محالة، وواقع لا محيد عنه، ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ثانيًا: أنها لا تتحول ولا تتبدل: قال تعالى: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۞ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ۞ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٦٠-٦٢].

وقال: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۞ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح:٢٢، ٢٣].

ثالثًا: أنها ماضية لا تتوقف: قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال:٣٨].

رابعًا: أنها لا تُخالف ولا تنفع مخالفتها: قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۞ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا

كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر:٨٢-٨٥].

خامسًا: لا ينتفع بها المعاندون، ولكن يتعظ بها المتقون: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٧، ١٣٨].

سادسًا: أنها تسرى على البر والفاجر، فالمؤمنون – والأنبياء أعلاهم قدرًا – تسرى عليهم سنن الله، ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل شرع الله أو أعرض عنه، وبما أن المرابطين التزموا بشرع الله فى كل شئونهم ومرُّوا بمراحل طبيعية فى حياة الدول فإن أثر حكم الله فيهم واضح وبيِّن.

وللحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى أخروية, أمَّا الآثار الدنيوية التى ظهرت لى فى دراستى لشعوب الملثمين التى قامت بهم دولة المرابطين فعدة أمور منها:

أولا: الاستخلاف والتمكين:

حيث نجد أن المرابطين منذ زعيمهم عبد الله بن ياسين حرصوا على إقامة شرع الله فى أنفسهم وأهليهم، وأخلصوا لله تحاكمهم فى سرِّهم وعلانيتهم، فالله سبحانه وتعالى قوَّاهم وشدَّ أزرهم حتى استخلفهم فى الأرض، وأقام المرابطون شريعة الله في الأرض التي حكموها، فمكن لهم المولى عزَّ وجلَّ الملك, ووطأ لهم السلطان.

وهذه سنة ربَّانية نافذة لا تتبدل فى الشعوب والأمم التى تسعى جاهدة وجادة لإقامة شرع الله تعالى.

والمتأمل فى القرآن الكريم يجد هذه السنة ماضية فى الأفراد والشعوب والأمم، فيوسف عليه السلام استخلف فى الأرض بعد أن ابتُلى فأبلى وظهر منه أنه كان من المخلَصين، وعندما قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] عرف أنه قد جاء أوان الاستخلاف، فاستعد لتبعته ونهض لحمل رسالته فقال: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥]، وصار بهذا من أهل التمكين: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦].

وقد بيَّن الله تعالى تحقُّق سنة التمكين فى بنى إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:٥].

وكان بعد وراثة الأرض والاستخلاف فيها أن منَّ الله عليهم بالتمكين إنفاذًا لمشيئته السابقة، قال تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٦].

وبذلك تتضح هذه السنة فى القرآن الكريم كما هى ملموسة فى واقع الأمم والشعوب.

وقد خاطب الله تعالى المؤمنين من هذه الأمة واعدًا إياهم بما وعد به المؤمنين قبلهم، فقال سبحانه فى سورة النُّور: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور:٥٥]. أى بدلاً عن الكفار ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من بنى إسرائيل، فإذا حقق الناس الإيمان وتحاكموا إلى شريعة الرَّحمن، فستأتيهم ثمرة ذلك وأثره الباقى

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ فتحقيق التحاكم إلى الدّين يتحقق به الاستخلاف، وتحقيق الحكم به يوصل إلى الدّين.

وهذا ما رأيته فى دراستى للدولة السُّنيَّة التى أقامها المرابطون.

ثانيًا: الأمن الاستقرار:

كانت بلاد المغرب قبل وصول المرابطين دويلات متنازعة فيما بينها، بل بعض هذه الدويلات لها معتقدات تخرجها عن الملة، كما أن قبائل الملثمين كانت متناحرة فيما بينها، وصراعهم مع الزنوج لم يستقر مما ولَّد لهم الخوف والإزعاج الشديد.

وبعد أن أكرم الله المرابطين بتوحيد قبائل صنهاجة، وساروا فى جهادهم المجيد سيرة حسنة، وتوحَّد المغرب الأقصى كلُّه، يسَّر الله لهم الأمن والاستقرار فى تلك الربوع التى حكم فيها شرع الله.

حيث نجد أن دولة المرابطين بعد أن استخلفت ومكَّن الله لها, أعطاها دواعى الأمن وأسباب الاستقرار حتى تُحافظ على مكانتها، وهذه سنة جارية ماضية ضمن اللهُ لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه أن ييسر لهم الأمن الذى ينشدون فى أنفسهم وواقعهم, فبيده - سبحانه - مقاليد الأمور، وتصريف الأقدار، وهو مقلب القلوب، والله يَهَبُ الأمن المطلق لمن استقام على التوحيد وتطهر من الشرك بأنواعه.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]. فنفوسهم فى أمن من المخاوف ومن العذاب والشقاء, إذا خلصت لله من الشرك صغيره وكبيره. إن تحكيم شرع الله فيه راحة للنفوس لكونها تمس عدل الله ورحمته وحكمته، إن الله تعالى بعد أن وعد المؤمنين بالاستخلاف ثم التمكين لم يحرمهم بعد ذلك من الأمن والطمأنينة والبعد عن الخوف والفزع، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ

﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥]. وإن تحقيق العبودية لله ونبذ الشرك بأنواعه يحقق الأمن في النفوس على مستوى الأفراد والشعوب.

وهذا ما حدث لقيادات المرابطين وشعبهم الذى انقاد لمنهج رب العالمين.

ثالثا: النصر والفتح:

إن المرابطين حرصوا على نصرة دين الله بكل ما يملكون، وتحققت فيهم سنة الله فى نصرته لمن ينصره, لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزّته وقوّته، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج:٤١،٤٠].

يقول سيد قطب رحمه الله: «وما حدث قط فى تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة فى نهاية المطاف لإعدادها لحمل أمانة الخلافة فى الأرض وتصريف الحياة. . إن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه، يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تألّب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية، وإن هى إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله (ﷺ): ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص:٥٧].

فلمّا اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها فى ربع قرن أو أقل من الزمان». إن الله تعالى أيد المرابطين على الأعداء ومنّ عليهم بالفتح؛ فتح الأراضى وإخضاعها لحكم الله تعالى، وفتح القلوب وهدايتها لدين الإسلام.

إن المرابطين عندما استجابوا وانقادوا لشريعة الله جلبت لهم الفتح، واستنزلت لهم نصر الله.

إن الحُكّام والشعوب الإسلاميَّة التى تبتعد عن شريعة الله تذل نفسها فى الدنيا والآخرة.

إن مسئولية الحُكّام والقضاة والعلماء فى الدعوة إلى تحكيم شرع الله مسئولية عظيمة يُسألون عنها يوم القيامة أمام الله، قال ابن تيمية – رحمه الله- : «إذا حكم ولاة الأمر بغير ما أنزل الله، وقع بأسهم بينهم. . وهذا من أعظم أسباب تغيُّر الدول كما جرى هذا مرة بعد مرة فى زماننا وغير زماننا، ومَن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره، فيسلك مسلك مَن أيده الله ونصره، ويجتنب مسلك مَن خذله الله وأهانه، فإن الله يقول فى كتابه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ إلى ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

فقد وعد الله بنصر من ينصره، ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر مَن يحكم بغير ما أنزل الله ويتكلم بما لا يعلم.

رابعا: العز والشرف:

إن عز المرابطين وشرفهم العظيم الذى سُطِّر فى كتب التَّاريخ يرجع إلى تمسُّكِهم بكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، إن مَن يعتز بالانتساب لكتاب الله الذى به تشرُّف الأمة، وبه يعلو ذكرها وضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سنة الله الجارية فى إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله (ﷺ)، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

قال ابن عبَّاس – رضى الله عنهما- فى تفسير هذه الآية: فيه شرفكم، فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بأحكام الإسلام، كما قال عمر بن الخطاب t: «إنَّا كنَّا أذل قوم، فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز

بغير ما أعزنا الله أذلنا الله»، فعمر t كشف لنا بكلماته عن حقيقة الارتباط بين حال الأمة عزًا وذلاً، مع موقفها من الشريعة إقبالاً وإدبارًا، فما عزّت في يوم بغير دين الله، ولا ذلّت في يوم إلا بالانحراف عنه.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠] يعني من طلب العزة فليعتز بطاعة الله عزّ وجلّ.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

إنني عندما مررت بسيرة الإمام ابن ياسين ذكرت وصفه بأنّه ذو مَهَابَة عظيمة في نفوس أتباعه, ونال شرفًا وعزة في قومه.

وعندما مررت بسيرة الإمام أبي بكر بن عمر، ذكرتُ أنه إذا ركب للجهاد ركب معه ٥٠٠ ألف من قومه يجاهدون معه.

وعندما ذكرت سيرة الأمير يوسف بن تاشفين ذكرت وصفًا له كأنه خُلق للزعامة.

ورأيت في سيرة هؤلاء الأبطال عزًّا وشرفًا نالوه بالاستعلاء على شهوة النفس وبالاستعلاء على القيد والذّل، كان استعلاؤهم على الخضوع الخانع لغير الله واضحًا في سيرتهم العطرة، كانت حياتهم خضوعاً لله وخشوعا، وخشية لله وتقوى ومراقبة لله في السراء والضراء، وهذا هو سرُّ عزهم وشرفهم في تاريخنا الإسلامي المجيد.

لقد عاش المرابطون في بركة من العيش، ورغد من الحياة الطيبة التي وصلوا إليها بإقامة دين الله.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

خامسًا: انتشار الفضائل وانزواء الرذائل:

لقد انتشرت الفضائل فى عصر المرابطين وانحسرت الرذائل، فخرج جيل فيه نبل وكرم وشجاعة وعطاء وتضحية من أجل العقيدة والشريعة، متطلعًا إلى ما عند الله من الثواب, يخشى من عقاب الله؛ لقد استجاب ذلك المجتمع بشعبه ودولته وحُكَّامه إلى ما يُحييه مِن الإيمان والقرآن وسنة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام.

إن آثار تحكيم شرع الله فى الشعوب التى نفذت أوامر الله، ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التَّاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة التى أصابت دولة المرابطين لهى سنن من سنن الله الجارية والماضية التى لا تستبدل ولا تتغير، فأى شعب يسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم يصل إليه ولو بعد حين، ويرى آثار ذلك التحكيم على أفراده ودولته وحُكَّامه.

إن الغرض من الأبحاث التَّاريخية الإسلاميَّة الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان؛ فى جهادهم وعلمهم وتربيتهم وسعيهم الدءوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن التمكين وفقهه, ومراعاة التدرُّج والمرحلية، والانتقاء من الشعب والارتقاء بهم نحو الكمالات الإسلاميَّة المنشودة.

إن الانتصارات العظيمة فى تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدى مَنْ أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه، وزكَّى نفسه، ولهذا لم يأت فتح الزّلاقَة مِن فراغ, لقد جاهد المرابطون فى الأَنْدَلُس وحققوا نصرًا عظيمًا وفتحًا مبينًا فى معركة الزّلاقَة وأنقذَ الله بهم المُسْلِمِين.

* * *

المبحث السابع

الأندلـــس بعد الزلاقـــة

بعد رجوع يوسف بن تاشفين إلى المغرب للأسباب التى ذكرتها تولى قيادة المرابطين القائد الميدانى سير بن أبى بكر, الذى واصل غاراته الناجحة مع أمير بطليوس على أواسط البرتغال الحالية مما يلى تاجة، وقد أثخنتْ قواتُه مع قوات المرابطين فى تلك البقاع.

كما وجَّه المُعتَمِد بن عبَّاد ضربات موفقة بقيادته إلى عدة مُدُن حول طُلَيْطِلَة, ثم اتجه نحو أرض مرسية، حيث استقرَّت جموع الفرسان النصارى بقيادة الكنبيطور فى أحد الحصون القريبة التى تشن غاراتها على مُدُن المسلمين, خاصة مدينة المرية, إلا أن المُعتَمِد انهزم واضطرَّ أن يلتجئ إلى قلعة لورقة فى كنف واليها مُحَمَّد بن ليون, ثم توجه نحو قرطبة تاركًا مرسية لمصيرها.

وبدأت قوات النصارى تتجمع حول ألفونسو الذى أربك مُدُن شرق الأنْدَلُس, متخذين من حِصن لييط المنيع الواقع على مسيرة يوم من لورقة مركزًا لشنِّ الغارات على أراضى المُسلِمين.

فلم يمض عام واحد على هزيمة ألفونسو حتى عاد نشاطه وجيشه, ونقل مقر العمليات إلى شرق الأنْدَلُس الذى خيمت عليه الفرقة السياسية, بعكس غرب الأنْدَلُس الذى كانت تحكمه مملكتان قويتان هما مملكة إشبيلية وبطليوس, تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف رجل على رأسها القائد العظيم سير بن أبى بكر.

تأذى أهل غرب الأنْدَلُس من النصارى الحاقدين فتوافدت وفودهم على الأمير يوسف, وخصوصًا أهل بلنسية ومرسية ولورقة, يصفون للأمير يوسف ما نزل بهم على أيدى النصارى الذى يتحكمون فى حصن لييط.

وعبر المُعْتَمِد المجاز إلى المغرب وطلب من يوسف العبور، فاستجاب يوسف لرغبته، تمّ جواز يوسف إلى الجزيرة الخضراء فى ربيع الأول سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م, ومن هناك كتب الأمير يوسف إلى جميع أمراء الأنْدَلُس يدعوهم إلى الجهاد، ثم تحرّك الأمير يوسف إلى مالقة فى صحبة أميرها تميم بن بلقين، كما لحق الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة, والمعتصم بن صمادح، فضلاً عن المُعْتَمِد بن عبّاد، بالإضافة إلى أمراء مرسية وشقورة وبسطة وجيان، ولم يتخلف من ملوك الطوائف سوى ابن الأفطس صاحب بطليوس، وتوجهت تلك الجموع لضرب الحصار على حصن لييط الذى كان يسكنه ألف فارس واثنا عشر ألفًا من المشاة من جنود النصارى الحاقدين أصحاب النزعة الصليبية الانتقامية، واستبسل النصارى فى الدفاع عن الحصن وكانوا يخرجون ليلاً للانقضاض على المُسْلِمِين وإلحاق الخسائر بهم.

واستمرّ الحصار بدون جدوى وظهرت صراعات ملوك الطوائف فيما بينهم ووصلت للأمير يوسف الذى ساءه ذلك كثيرًا.

وشكى المُعْتَمِد بن عبّاد للأمير يوسف خروج ابن رشيق صاحب مرسية عن الطاعة ودفعه الأموال لألفونسو السادس تقربًا إليه، وظهرت المشاكل بين أبناء بلكين

عبد الله وتميم للأمير يوسف، وكأن لا عمل له إلا حل المشاكل والمنازعات بين الأطراف المتنازعة.

وتضايق الأمير يوسف من خيانة ابن رشيق الذى دفع أموالاً طائلة لألفونسو, وعرض الأمر على الفقهاء والعلماء الذين أفتوا بإزاحته من حكمه وتسليمه للمُعْتَمِد، واستغاث ابن رشيق بالأمير يوسف الذى أجابه بأنّها أحكام الدّين ولا يستطيع مخالفتها .

وأمر القائد سير بن أبى بكر باعتقاله وتسليمه للمُعتَمِد مشترطاً عليه إبقاءه حيًّا.

وكانت لفتوى الفقهاء عند قادة المرابطين مكانة عظيمة يضعونها فوق كل اعتبار.

وفرَّ جيش ابن رشيق من المعركة، ومنع الزاد على جيش المرابطين ومَن معه من الأنْدَلُسيين الذين يحاصرون الحصن، فارتفعت الأسعار، ووقع الغلاء واضطربت الأحوال، وعندما علم ألفونسو بالخلافات التى وقعت حشد جيشاً من أجل فك الحصار عن أتباعه فى حصن لييط، فاضطرَّ الأمير يوسف إلى فك الحصار خوفًا من معركة خاسرة غير مأمونة النتائج خاصة بعد الذى رآه من حُكَّام الأنْدَلُس وتآمرهم واتصالهم بالعدو، ورجع الأمير يوسف إلى لورقة وترك أربعة آلاف مرابطى بقيادة داود ابن عائشة للمحافظة على منطقة مرسية وبعث بجنود إلى بلنسية بقيادة مُحَمَّد بن تاشفين.

واستطاع ألفونسو الوصول للحصن وأخرج من نجا من الموت، ورأى أن لا فائدة من الاحتفاظ بالحصن, لأنَّه يتطلب حماية كبيرة معرضة لمصير سابقاتها فقرَّر إخلاءه وتدميره, واسترجع ابن عَبَّاد الحصن بعد أن أصبح أطلالاً.

لقد أيقن الأمير يوسف إن أمراء الأنْدَلُس لا يصلحون للحكم ولا يعتمد عليهم فى جهاد، وبعد رجوع الأمير يوسف فى عام ٤٨٢هـ/١٠٨٩م عرض الأمر على الفقهاء والعلماء فأفتوا له بضم الأنْدَلُس للمغرب.

وكان فقهاء وعلماء الأنْدَلُس يؤيدون ذلك، وكذلك فقهاء وعلماء المغرب والمشرق، وأرسل الإمام الغزالى وأبو بكر الطرطوشي فتوى تؤيد عمله الجليل من أجل توحيد صفوف المُسلِمين.

يقول الغزالي في شأن أمراء الطوائف: فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة ولا سيما وقد استنجدوا بالنصارى ، فقد أفتاه العلماء بجواز خلعهم وإزاحتهم، وبأنه في حل مما تعهد لهم به من الإبقاء عليهم في جوازه الأول، لأنهم خانوا الله بمعاهدتهم ألفونس على محاربة المسلمين؛ وبالتالي فإن عليه أن يبادر إلى خلعهم جميعًا، فإنك إن تركتهم وأنت قادر عليهم، أغاروا بقية بلاد المسلمين إلى الروم وكنت أنت المحاسب بين يدي الله، وكان ممن استفتى في هذا الموضوع الفقيه يوسف بن عيسى المعروف بأبي الملجوم.

وطلب القضاة والفقهاء من يوسف أن يرجع ويوحد البلاد بالقوة، لتدخل تحت الخلافة الإسلاميَّة في بغداد.

لقد كان ملوك الطوائف يهتمون بمصالحهم الخاصة لا ينظرون إلى عزة أمتهم حتى وصفهم ابن حزم بقوله: «لو وجدوا في اعتناق النصرانية وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم لما ترددوا ».

وكان المُسْلِمُون في الأَنْدَلُس يتمنون أن ينضموا إلى دولة المرابطين, وعبَّر عن ذلك فقهاؤهم وعلماؤهم وبرز الفقيه القاضي ابن القلاعي «قاضي غرناطة», الذي توطدت العلاقة بينه وبين يوسف بن تاشفين منذ ذهاب أول بعثة إلى المغرب لطلب النجدة، إذ كان أحد أعضائها, وكان يرى في الأمير يوسف صلاحًا وعدلاً وحزمًا.

حاول الأمير عبد الله ابن ملك غرناطة أن يتخلص منه فاعتقله, ثم اضطر إلى إطلاق سراحه، فهرب إلى قرطبة، ومن هناك اتصل بالأمير يوسف وأطلعه على خفايا من الأمور، وأفتى بخلع ملوك الطوائف, وتفاعل مسلمو الأَنْدَلُس مع هذه الفتوى الموفَّقة.

* * *

المبحث الثامن

فتوى فى جواز ضم الأندلس بالقوة والقضاء على ملوك الطوائف

أرسل الإمام أبو بكر بن العربى المالكى إلى الإمام الغزّالى كتابًا يشرح فيه موقف ملوك الطوائف بالأنْدلُس من حركة يوسف بن تاشفين الجهادية، ويطلب منه فتيا فى ذلك، قال الإمام أبو بكر بن العربي: «وكان أشهر من لقينا من العلماء فى الآفاق، ومن سارت بذكره الرفاق، ولطول باعه فى العلم ورحب ذراعه، الإمام أبو حامد بن مُحَمَّد الطوسى الغزالي، فاستدعينا منه فتيا وكتابًا، واختصرت لفظ الفتيا لوقت ضاق عن تقييدها لكن أنبه على معناها وهو: فى علم الإمام ما ذكر فى وصف خلال أمير المُسْلِمِين وناصر الدِّين أبى يعقوب يوسف بن تاشفين أمير المغربين الأنْدلُس والعدوة، وما أوضحت لديه من إعزاز الدِّين، والذب عن المُسْلِمِين، وهو حميرى النسب ومعه المرابطون، وقد وقفوا أنفسهم على الجهاد، وقد كانت جزيرة الأنْدلُس قد تملّكها من تاريخ ابتداء الفتنة سنة أربعمائة, عدة ثوار تسوروا على البلاد، فضعف أهلها عن مدافعتهم، وتلقّبُوا بألقاب الخلفاء وخطبُوا لأنفسهم، وضربوا النقود بأسمائهم، وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كلّ واحد منهم فى الاستيلاء على صاحبه، واستبانوا الفُسّاق فى الأرقاء والصنائع الطلقاء فى محاربة بعضهم بعضًا، واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه، وعند ذهاب شوكة المُسْلِمِين، وحينما انكشف للنصارى ضعف المُسْلِمِين، وعلموا المداخل والمخارج إلى بلاد المُسْلِمِين، طلبوا المعاقل وأخذوا بالحرب كثيرًا منها من غير مؤونة ولا مشقّة، ثم لجأ الباقى من المُسْلِمِين إلى المرابطين واستصرخوهم فلباهم أمير المُسلمين ووصل إلى البحر، فاستاء بعض الرؤساء وفاءً للمشركين، وحقدًا على المُسْلِمِين فى استدعائهم له،

ووصل الأمير إلى غرب الأَنْدَلُس فمنحه الله نصرًا، وألجم الكفار السيف، ثم عاود الجواز فى العام الثالث من هذا الفتح فتهيبه العدو، وتحصَّن منه، ولم يخرج للقائه مع تثاقل الرؤساء عنه، وعثر لأحدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء، واستولى على من قدر عليه من الرؤساء من البلاد والمعاقل، وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقى من جزيرة الأَنْدَلُس، حالفوا النصارى أو صاروا معه إلبًا، ودعاهم أمير المُسْلِمِين إلى الجهاد، والدخول فى بيعة الجمهور، فقالوا: لا جهاد إلا مع إمام من قريش، ولست به، أو مع نائب عن الإمام، وما أنت ذلك، فقال: أنا خادم الإمام العبَّاسي، فقالوا له: أظهر لنا تقديمه إليك، فقال: أو ليست الخطبة في جميع بلادى له؟ فقالوا: ذلك احتيال. ومردوا على النفاق، فهل يجب قتالهم؟ وإذا ظفر بهم كيف الحكم فى أموالهم؟ وهل على المسلم حرج فى قتالهم؟ وهل على الإمام العبَّاسى أن يبعث بمنشور يتضمن تقديمه له على جهادهم، فإنهم إنَّما خرجوا عليه بأن الأمير خادمه، وهو يخطب له على أكثر من ألفى منبر، وتضرب السكة باسمه إلى غير ذلك، ومتى وصف نفسه قال: لست مستبدًّا وإنما خادم أمير المؤمنين المستظهر، وهذا أشهر أن يؤكد بالتحلية، وأظهر من أن يجدد بالتزكية.

فللشيخ الإمام الأجل الزاهد والأوحد أبى حامد أتم الأجر، وأعم الشكر فى الإنعام بالمراجعة فى هذا السؤال إن شاء الله تعالى.

أولا: فتوى الإمام الغزالى فى موقف كل من يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف والخلافة العباسية:

فأجاب الإمام الغزالى رحمه الله: «لقد سمعت من لسانه وهو الموثوق به الذى يستغنى عن شهادته عن غيره وعن طبقة من ثقاة المغرب الفقهاء وغيرهم، من سيرة هذا الأمير -أكثر الله من الأمراء أمثاله- ما أوجب الدعاء لأمثاله، ولقد أصاب الحق فى إظهار الشعار الإمامى المستظهرى- حرس الله على المستظهرين ظلاله- وهذا هو الواجب على كل ملك استولى

على قطر من أقطار المُسْلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء للإمام الحقّ، وإن لم يكن بلغهم صريح التقليد من الإمام، أو تأخر عنهم ذلك لعائق، وإذا نادى الملك المستولى بشعار الخلافة العباسية، وجب على كل الرعايا والرؤساء الإذعان والانقياد، ولزمهم السمع والطاعة، وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هى طاعة الإمام، ومخالفته هى مخالفة الإمام، وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة، فحكمه حكم الباغي، وقد قال تعالى:﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾ [الحجرات:٩]. والفيئة إلى أمر الله، الرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الإمام الحق المنتسب إلى الخلافة العباسية، فكل متمرد على الحق فإنه مردود بالسيف إلى الحق، فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته، ولا سيَّما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين وأوليائهم, وهم أعداء الله فى مقابلة المُسْلمين الذين هم أولياء الله، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية, ويتركوا المخالفة، وجب الكفُّ عنهم، وإذا قاتلوا لم يَجُز أن يُتَتَبَّعَ مدبرهم، ولا أن يُذَفَّف على جريحهم, بل متى سقطت شوكتهم وانهزموا، وجب الكفُّ عنهم، أعنى عن المُسْلمين منهم دون النصارى الذين لا يبقى لهم عهد مع التشاغل بقتال المُسْلمين، وأما ما يظفر به من أموالهم فمردود عليهم أو على وريثهم، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم فى القتال مهدرة لا ضمان فيها وحكمهم فى الجملة فى البغى على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة، والمستولى على المنابر والبلاد بقوة الشوكة حكم الباغى على نائب الإمام، فإنه وإن تأخَّر عنه صريح التقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتقليد فهو نائب بحكم قرينة الحال، إذ يجب على الإمام المصر أن يأذن لكل إمام عادل استولى على قطر من أقطار الأرض، فى أن يخطب عليه، وينادى بشعاره ويحمل الخلق على العدل والنصفة، ولا ينبغى أن يظن بالإمام توقف فى الرضا بذلك والإذن فيه.

وإن توقّف فى كتبه المنشور، فالكتب قد يعوق عن إنشائها وإيصالها المعاذير، وأما الإذن والرضا بعدما ظهر حال الأمير فى العدل والسِّيَاسَة وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين فلا رخصة فى تركه، وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهورًا لا شك فيه، وإن لم يكن عن إيصال الكتاب وإنشائه عائق، وكانت هذه الفتنة لا تنطفئ إلا بأن يصل إليهم صريح الإذن والتقليد بمنشور مقرون بما جرت العادة بمثله فى تقليد الأمراء، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك. فإن الإمام الحق عاقلة أهل الإسلام، ولا يحلُّ له أن يترك فى أقطار الأرض فتنة ثائرة إلا ويسعى فى إطفائها بكل ممكن، قال عمر t: «لو تركت جرباء على ضفة الفرات، لم تطل بالهناء، فأنا المسئول عنها يوم القيامة». قال سليمان بن عبد الملك يومًا وقد أحدق به الناس: «قد كثر الناس» فقال عمر بن عبد العزيز: «خصماؤك يا أمير المؤمنين». يعنى أنَّك مسئول عن كل واحد منهم إن ضيعت حق الله فيهم أو أقمته، فلا رخصة فى التوقيف عن إطفاء الفتنة فى قرى تحوى عشرة، فكيف فى أقاليم وأقاليم إلا أن يعوق عن ذلك عائق، ويمنع منه مانع، المواقف القدسية الإمامية المستظهرية حرس الله جلالها أبصر بها. ونحن نعلم أن لا نستجيز التوقف عن إطفاء هذه الفتنة إلا لعذر ظاهر وجب على أهل الغرب أن لا يعتقدوا فى حضرة الخلافة.إلا ذلك، فإن المسافة إذا بعدت وتخللها المارقون عن ربقة الحق، ولم يبعد أن يقتضى الرأى الشريف صيانة الأوامر الشريفة عن أن تمد إليها أعين الدولة فضلاً عن أيديهم، وأمَّا مَن يستجيز التوقُّف فيها من غير عذر عن التقليد لأمير قد ظهرت شوكته وعرفت سياسته، وتناطقت الألسن بعدله، ولم يعرف فى ذلك القطر من يجرى مجراه، ويسد فى هذا الحال مسده، فهذا اعتقاد فساد فى حضرة الخلافة. حاشاها من أن تُنسَب إلى قصور، أو تقتضى فى نصرة أهل العدل المتمسكين بخدمتها، والمعتصمين بعروتها، والقائمين فى أقطار الأرض بإنفاذ شعائرها وأوامرها المعلومة بقرائن الأحوال، فهذا حكم كل أمير عادل فى أقطار الأرض، وحكم من بغى عليه، والله أعلم.

يتضح لى من فتوى الإمام الغزالى أن رأيه فى قتال يوسف بن تاشفين لملوك الطوائف مبنى على كون أولئك الملوك من البُغاة والخارجين عن سلطة الدولة المرابطية التابعة للخلافة الإسلاميَّة.

وبهذا يتضح أن الفقهاء والعلماء رأوا ضرورة ضم الأَنْـدَلُس لقيـادة المغرب الأقصى بعد أن فرَّط أمراء الأَنْدَلُس فـى أمـور الـشرع ومـصالح الرعية, وحالفوا النصارى ضد إخوانهم المُسْلِمين.

ولا شكَّ فى أن ما فعله الأمير يوسف ضد ملوك الطوائف صحيح من الناحية الشرعية والاستراتيجية العسكرية والمنطلقات السياسية.

بل فى رأيى أن وجود ملوك الطوائف مفسدة عظيمة، والسعى لإزالتهم خطوة نحو توحيد الصفوف، ونجد كُتابًا من الغرب وأذيالاً لهـم مـن أبنـاء المُسْلِمين يصفون ما فعله الأمير يوسف ضد ملوك الطوائف بأنَّه خروج عـن الإنسانية، ودليل على الهمجية، حسب وجهة نظرهم المغـشوشة، وتـصوُّرِهم المغلوط، أمَّا بالنسبة للمؤرخ المسلم فإن ما قام به يوسف يعتبر عملاً عظيمًـا قدَّمه للأمة، وحفظ به الإسلام فى الأَنْدَلُس من انهيار مُحقَّق، وضبط الأمـور بعزم وحزم بعد فوضى وضياع وخنوع واستسلام مارسه ملوك الطوائف دون اهتمام بدين أو شعب أو عقيدة.

لقد تميَّز يوسف بن تاشفين بوفائه التام للعهود، وابتعاده عن الأطمـاع الدنيوية، وحرصه على إعزاز الدِّين، وإزاحة العوائق التى تحول دون وحـدة المُسْلِمين، ولذلك أقدم على الخطوة المباركة من اجل توحيد الأَنْدَلُس، وضمها تحت قبضة دولته الميمونة التابعة للخلافة العباسية السُّنِّيَّة.

إن كثيرًا من الحُكَّام المعاصرين المتسترين بالدِّين، والـذين يحـالفون النصارى الحاقدين واليهود الماكرين وأشياعهم وأتباعهم الكافرين, واجب على

الدولة الإسلاميَّة السُنيَّة الفتية أن تعمل على تخليص المُسلِمين من قبضتهم وتضمها إليها، وتسعى من أجل تحقيق ذلك بكل الأمور الشرعية المعروفة.

وإذا تعذّر وجود دولة سُنية لها هموم إسلاميَّة وتطلعات شرعية فعلى الحركات الإسلاميَّة أن توحّد صفوفها للوصول إلى هذا الهدف المنشود، ومن ثم السعى لتوحيد الأمة تحت دولة إسلاميَّة تقوم على عقيدةِ التوحيد، وتحكمها شريعة الرب المجيد, وإذا ما وصلت أى حركة معاصرة إلى ذلك الهدف المذكور تجد نفسها تحتاج إلى فتاوى شرعية وتجارب لتستأنس بها فى مسيرتها المباركة، ولذلك أرى من الفائدة العميمة والخبرة الرشيدة دراسة الدول الإسلاميَّة التى قامت، واجتهاداتهم فى الحروب، وتربيتهم للشعوب، لنسترشد بها ولنطورها على حسب متطلبات المرحلة التى نمرُّ بها.

ولذلك نجد أن الأمم عمومًا عندما تعد طلائع قيادية تهتم بدراسة الشعوب والحركات التحررية، والثورات الإنسانية لتكون رصيدًا لأولئك الذين يعدون ويربون على قيادة أمتهم فى المستقبل المنظور.

إن العقلية الضيقة المتحجرة عندما تكون فى سُدة القيادة لا تستطيع أن ترتقى بجنودها، وتجد نفسها تصطدم اصطدامًا عنيفًا مع مستجدات الحياة ومشاكلها المعقدة.

إن تجارب التَّاريخ الإسلامى تُكسب الطلائع القيادية للحركة الإسلاميَّة المعاصرة خبراتٍ مهمة فى مجال البناء والحركة والتنظيم والتكوين والتنفيذ والتمكين.

إن دروس التَّاريخ تعلمنا أن العلماء الربَّانيين، والفقهاء العاملين لهم مكانة فى نفوس شعوبهم، ومَهَابَة عند حُكَّامِهم، ولفتاويهم شأنٌ عظيم فى شئون الحُكم والدول والحرْوب وعزل الملوكِ وتوليةِ غيرهم. . . إلخ.

* * *

المبحث التاسع

العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين للأندلس

بعد طلب العلماء والفقهاء في الأَنْدَلُس والمغرب والمشرق من الأمير يوسف أن يضُمَّ الأَنْدَلُس إلى دولة المرابطين الفتية التابعة للخلافة العباسية السُّنيَّة، عبر الأمير يوسف بقوة ضخمة, عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء وسار على رأس جيشه إلى طُلَيْطِلَة وأرسل فرقاً من جيشه نحو مختلف المدن، وسار بنفسه نحو مدينة غرناطة.

واستطاع أن يفتحَ غرناطة بعد شهرين من حصارها واعتقل أميرها، عبد الله بن بلكين الصنهاجي الذى تحالف مع النصارى من أجل أملاكه، ثم أرسله أسيرًا إلى المغرب، واستقرَّ فى أغمات بالقرب من مراكش.

وحاول المُعْتَمِد بن عبَّاد والأفطس أن يثنيا الأمير يوسف عن عزمه، ولكنَّه رفض مقابلتهما, وأيقنا أن زوالهما قريب.

وألقى المرابطون القبض على تميم بن بلكين والى مالقة وأرسل إلى إفريقية، ثم رجع الأمير يوسف إلى سبتة، وتولَّى القيادة السياسية والعسكرية القائد المحنك سير بن أبى بكر، وبدأ الأمير يوسف فى إرسال الجيوش من المغرب إلى الأَنْدَلُس للقضاء الكلى على ملوك الطوائف، وأصبحت القوة المرابطة فى الأَنْدَلُس قوة ضاربة لا يستطيع أحد الصمود أمامها، وقسم الأمير يوسف جيش المرابطين إلى أربعة أقسام:

١- جيش بقيادة سير بن أبى بكر توجَّه إلى إشبيلية.

٢- وجيش سار إلى قرطبة بقيادة أبى عبد الله بن الحاج وواليها، آنذاك، ولد المُعْتَمِد الفتح أبو النصر.

٣- وسار جرور اللمتونى إلى أرض رندة بجيش ثالث، وفيها ولد آخر للمُعْتَمِد وهو يزيد الراضى بالله.

٤- وسار أبو زكريا بن واسندوا إلى المرية التى فيها المعتصم بن صمادح، صديق المُعْتَمِد الحميم.

وبقى يوسف بن تاشفين فى سبتة على رأس جيش احتياطى لكى يقوم عند الحاجة بإنجاد هذا الجيش أو ذاك.

وسقطت قرطبة فى يد المرابطين فى صفر ٤٨٤هـ/١٠٩١م بعد مقاومة عنيفة من ابنى المُعْتَمِد اللذين قتلا «المأمون ويزيد الراضي» ووصل المرابطون إلى ضواحى طُلَيْطِلَة مهددين ملوك النصارى، واستولوا على قلعة رباح التى فتحت الطريق أمامهم إلى قشتالة، واشتدَّ الخوف بالمُعْتَمِد بن عَبَّاد الذى أرسل إلى ألفونسو يستنجده ضد المرابطين، وعقد الخطر المشترك أواصر الصداقة بينهم.

وسقطت قومونة بعد حصار قصير فى ربيع الأول ٤٨٤/١٠٩١م، وأصبح أمير إشبيلية فى خطر عظيم، وجاءته إمدادات النصارى التى أرسلها ألفونسو بقيادة الكونت جومز، وعدتها أربعون ألف رجل مرتجل، وعشرون ألف فارس، ووصلت إلى مقربة من قرطبة وتصدَّى لهم القائد الشجاع إبراهيم بن إسحاق فى جند الشجعان، ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة، أصاب فيها المرابطون بالرغم من خسائرهم نصرًا كبيرًا مبينًا، وغدت إشبيلية بعد فرار النصارى تحت رحمة المرابطين، وكانوا قد ضربوا حولها الحصار، وكان سير بن أبى أبكر يقود الجيش المحاصِر، وفتحت إشبيلية عنوة فى رجب ٤٨٤هـ/١٠٩١م، وكانت خاتمة المُعْتَمِد بن عَبَّاد مأساة حزينة، وكانت عبرة لتقلُّب الدهر، وذلك أن الرجل الذى لبث زهاء ربع قرن يقبض بيديه على مصاير إسبانيا، والذى كان يحكم سواد النصف الجنوبى لشبه الجزيرة، والذى يرجع إليه سبب استيلاء ألفونسو السادس على طُلَيْطِلَة، والذى استدعى

المرابطين إلى الأندلس، اختتم حياته الحافلة بالأحداث في غمرة البؤس والحزن في أغمات المغرب فقد قبض عليه بعد سقوط إشبيلية، وعلى نسائه وأبنائه وبناته – وهم نحو مائة – وأرسلوا إلى مراكش¬( )، وفي طريقه تألم المُعتَمِد من قيده وضيقه وثقله فقال:

تبدّلت من ظل عزّ البنودِ

بذل الحديد وثقل القيود

وكان حديدى سنانًا ذليقًا

وعضبًا رقيقًا صقيل الحديد

وقد صار ذلك وذا أدهما

يعض بساقى عض الأسود

لقد أطنب الشعراء والمؤرخون وأهل الأدب في سيرة المُعتَمِد بن عَبَّاد، وسبب ذلك أمور كثيرة وأهمها في نظري أن قضيته غريبة، وشخصيته عجيبة، ومرّ بأمور رهيبة وكانت سيرته مليئة بالمتناقضات فهو الذى قال: «رعي الإبل ولا رعي الخنازير» وهو الذى استعان بالنصارى، وأجلب خيلهم ورجالهم ضد المُسلِمين، وسيرته تبين لنا سنن الله في إعزاز من يشاء وإذلال من يشاء، وإعطاء الملك لمن يشاء ونزعه ممن يشاء.

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وتوفى المُعتَمِد بن عَبَّاد في أغمات سنة ٤٨٨هـ –رحمه الله تعالى–.

وفي النادر الغريب أنه نودى في جنازته بالصلاة على الغريب، بعد عظم سلطانه وجلالة شأنه، فتبارك مَن له البقاء والعزّة والكبرياء.

من شعر المعتمد بن عباد:

دخل عليه ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه فخاطب قيده فقال:

قيدي، أما تعلمنى مُسلمًا

أبيت أن تشفق أو ترحما

دمى شرابٌ، واللحم قد

أكلته ولا تهشم الأعظُما

يُبصرنى فيك أبو هاشم

فينثني، والقلب قد هُشما

ارحم أخياتٍ له مثله

جرّعتهن السُّم والعلَقما

وقال ذات مرة بعد أن أحيط به فى إحدى معاركه:

لما تماسكت الدموع

وتَنَهنه القلبُ الصديع

قالوا الخضوعُ سياسة

فليبدُ منك لهم خُضوع

وألذ من طعم الخُضوع

على فمى السّمُّ النقيع

أتسلبُ عنى الدُّنا

ملاكى وتُسلِم القلبَ الضُّلوع

قد رُمتُ يوم نِزالهم

أن لا تحصّنني الدروع

وبرزت ليس سوى القميـ

ـص عن الحشى شيء دَفُوع

أجلي تأخّر, لم يكنْ

بهواي ذلي والخُضوع

ما سرتُ قطٌّ إلى القتال

وكان في أملي الرجوع

شيم الأولى أنا منهم

والأصل تتبعه الفُروغ

ولما تُوفّي في أغمات رثاه الشعراء بقصائد معبرة عن المشاعر الإنسانية الدفينة, وممن رثاه شاعره المخلص أبو بحر عبد الصمد بقصيدة طويلة أجاد فيها، وأولها:

ملك الملوك، أسامع فأنادي

أم قد عدتك عن السماع عوادي

لما نقلت عن القصور ولم تكن

فيها كما قد كنت في الأعياد

أقبلت في الثرى لك خاضعًا

وجعلت قبرك موضع الإنشاد

لقد كانت محنة المُعْتَمِد بن عَبَّاد عظيمة، وتعاطف معه كثير من المؤرخين والأدباء والشعراء، واتهموا يوسف بن تاشفين بالقسوة والغلظة وأنَّه صحراوى بدوى نزعت الرحمة من قلبه، واستدلُّوا أنه ذو نزعة توسعية دنيوية، ولذلك أنزل العقوبة المؤلمة على من استطاع من ملوك الأَنْدَلُس وتخلَّص منهم.

والواقع يقول: إن ابن تاشفين لم يطمع فى الأَنْدَلُس، وتردد كثيرًا قبل العبور، وعفَّ عن الغنائم بعد الزَّلاقَة وتركها للمُعْتَمِد ولأمراء الأَنْدَلُس، ولم يأخذ منها شيئًا، وكانت عودته, ثم عاد فى الجواز الثانى بسبب اختلافات ملوك الطوائف الهزلي، وتحالُفِ بعضهم مع ملوك النصارى، ولما اشتد الخطب على أهل الأَنْدَلُس, وأفتى العلماء بخلع ملوك الطوائف حرصًا على سلامة الدِّين والعقيدة؛ قرَّر الأمير يوسف أن يضع حدًا لمهزلة ملوك الطوائف, لقد آنَ - من أجل الشريعة والمصلحة العظمى للأمة- لهذه الدويلات الهزيلة الضعيفة المتناحرة المتحالف بعضها مع الأعداء أن تنتهي، وكما قال الشاعر محمود غنيم:

مَن عالج الباب العصى فلم يلن ... ليديه, حطَّمَ جانب المصراع

فقد شغله هؤلاء الأمراء المتفرقون عن الجهاد والفتوحات والمرابطة فى سبيل الله لضعفهم وفرقتهم، فلقوا جزاء خيانتهم وفرقتهم، وابن تاشفين خص الأمراء وحدهم بشدة عقابه, وعفا عن الشعب المسلم، لأن التناقض جلى بين الشعب الذى تعلق بالمرابطين وبالأمير يوسف لعدله وحزمه وجهاده، والذى حرص على رفع المظالم والضرائب والمكوس عن كاهل الشعب الذى طلب من ملوكه الاتحاد فى وجه النصارى، وبين الأمراء والملوك الذين آثروا التَّفرُّق والخلاف، حُبًّا فى الحكم، وحفاظًا على مصالحهم الشخصية.

وهذا الذى قام به الأمير يوسف، وإزاحة الملوك من أعظم حسناته ومآثره الخالدة فى تاريخه المجيد الذى تعتز به أمتنا العريقة.

وبسقوط إشبيلية تزعزعت باقي المُدُن والحصون، وأصبحت غرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية والمرية تحت حكم المرابطين في وقت لم يتجاوز ثمانية عشر شهرًا.

ولما سقطت المرية بيد داود ابن عائشة، هذا القائد المجاهد المرابط في سبيل الله، المنصور بإسلامه ودينه وصفاء عقيدته وحفظه للعهود، واصل سيره الموفق مع جنوده البواسل, وافتتح مرابيطر وبلنسية وشنتمرية، ولم تغن أمراءهم معاونة الكمبيادور وفرسانه، فبلنسية كان بها يحيى بن ذي النون «القادر»، وعلى الرغم من أنه كان منضويًا تحت حماية ملك قشتالة، وقد خفت لإنجاده فرقة كبيرة منهم، وقوة من المرتزقة المسلمين من مرسية بقيادة ابن طاهر على الرغم من كل هذا سقطت بلنسية بيد المرابطين أصحاب الأيادي المتوضئة، والقلوب الطاهرة، والضربات الفتاكة لكل جبار عنيد.

واستمرَّ داود ابن عائشة في فتح حصون وقلاع مُدُن شرق إسبانية تحفُّه العناية الإلهية، وتتنزل عليه الفتوحات الربَّانية, ويخط للمغاربة وللأمة الإسلاميَّة تاريخًا مجيدًا باقيًا على مر العصور والأزمان، واضحة معالم العقيدة والإيمان في نحته وكتبه بماء الذهب الصافي.

أمَّا القائد الربَّاني والفارس الميداني سير بن أبي بكر فكان جهاده الميمون في غرب الأنْدَلُس؛ حيث زحف إلى بطليوس وأميرها يومئذٍ مُحَمَّد بن الأفطس «المُتَوَكِّل» بعد أنْ فتح إشبيلية كما سلف، فاستولى على شلب ويابرة, ثم احتلَّ بطليوس في صفر ٤٨٧هـ - آذار (مارس) ١٠٩٤م.

وفي الوقت الذي سقطت فيه بطليوس، استطاع المرابطون أن يفتحوا جزر البليار، التي كان واليها يومئذٍ من بني شهيد أتباع أمراء بلنسية ودانية، وأحسن المرابطون صنعًا بفتح الجزر الشرقية «بليار» في الوقت الملائم، فقد كانت منعزلة تعيش تحت هيمنة الأسطول النصراني، وقد تم الفتح على يد القائد البحري ابن تافرطست.

بذلك أصبحت إسبانيا المسلمة تحت قبضة دولة المرابطين الفتية سنة٤٨٧هـ /١٠٩٤م، ونستثنى من ذلك ولاية سَرَقُسْطَة التى كان واليها أحمد بن هود «المستعين بالله» الذى أبلى بلاءً حسنًا فى جهاد النصارى، وظهرت فيه شهامة ورجولة أقنعت الأمير يوسف على إبقائه فى مُلكِه، وتحالف ابن هود مع إخوانه في العقيدة ضدُّ أعدائهم فى الدِّين، وكان سدًا منيعًا فى الثغور الشمالية وقد كلف النصارى خسائر هائلة فى الأموال والأرواح.

واستطاع النصارى أن يحتلُّوا مدينة «بلنسية» عام ٤٨٧هـ بقيادة القائد النصرانى الكمبيادور الذى أمن قاضيها «ابن جحاف» ثم أحرقه بالنار، وعمل المرابطون على إرجاع بلنسية والحصون التى وقعت فى يد النصارى، وتمكَّنوا من تحرير بلنسية عام ٤٩٥هـ.

والجدير بالذكر أن بابا الفاتيكان أفتى لأهل إسبانيا ومَن حولهم من الإفرنج إن قتالهم فى الأندُلُس ضد المُسلِمين جهاد مقدس، ولذلك لم يشارك الإسبان فى حروب النصارى الصليبية فى شرق العالم الإسلامى فى هذه الفترة.

لقد كانت سياسة الإسبان فى حروبهم للمُسلِمين صليبية النزعة، همجية الخلق، خالية من الأخلاق، ممزوجة بالغدر بعيدة عن العلم والحضارة.

وكانت سياسة المرابطين فى حروبهم وجهادهم مبنية على نشر الإسلام ومكارم الأخلاق فى أُطُر حضارية نابعة من مشكاة الوحيين كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ).

* * *

المبحث العاشر

الجواز الرابع للأمير يوسف فى الأندلس

لما أصبحت إسبانيا المسلمة تحت حكم المـرابطين بمـا فـى ذلـك سَرَقُسطَة التى حكمها بنو هود؛ عبر أبو يعقوب يوسف بن تاشـفين العبـور الرابع سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٣م بعد استرداد بلنسية بعام واحد، يبتغـى تنظـيم شئونها، وليطلع على حسن سير الإدارة، ودعا القادة والولاة وزعماء الأَنْدَلُس، وشيوخ القبائل المغربية التى تدين بالطاعة له إلى الاجتماع فى قرطبة، وعيَّن ولده الأصغر عليًّا «أبا الحسن» وليًّا للعهد؛ فقـد ظهـرت مواهبـه ونجابتـه ورجاحة عقله ولمس والده فيه الخصال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة.

نص ولاية العهد للأمير على بن يوسف:

عهد الأمير يوسف إلى كاتبه الفقيه أبى مُحَمَّد بن عبد الغفور أن يكتب نص ولاية العهد وكان مشهورًا ببلاغته، وهذا هو النص: «الحمـد لله الـذى رحم عباده بالاستخلاف، وجعل الإمامة سبب الائتلاف، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد نبيه الكريم الذى ألف القلوب المتنافرة، وأذل لتواضعه عـزة الملـوك الجبابرة.

أما بعد: فإن أمير المُسلِمين وناصر الدِّين أبا يعقوب بن تاشـفين لمـا استرعاه على كثير من عباده المؤمنين، خاف أن يسأله الله غدًا عما اسـترعاه كيف تركه هملاً لم يستتب فيه سواه، وقد أمر الله بالوصـية فيمـا دون هـذه العظمة، وجعلها من آكد الأشياء الكريمة، كيف فى هذه الأمور العائـدة فـى المصلحة الخاصة والجمهور، وإن أمير المُسلِمين بما لزمه من هذه الوظيفـة وحضه الله بها من النظر فى الأمور الدِّينية الشريفة، قد أعزّ الله رماحه وأحد سلاحه، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرهـا ارتياحًـا إلـى المعـالى

واهتزازًا، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازًا، فاستنابه فيما استرعي، ودعاه لما كان إليه ودعا، بعد استشارة أهل الرأى على القرب والنـأي، فرضـوه لمـا رضيه، واصطفوه لما اصطفاه، ورأوه أهـلاً أن يـسترعى فيمـا اسـترعاه، فأحضره مشترطًا عليه الشروط الجامعة بينهما وبين المشروط قبل، وأجـاب حين دُعي، بعد استخارة الله الذى بيده الخيرة والاستعانة بحول الله الذى مـن آمن به شكره، وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت النصيحة مرامى قصية، يقـول فى ختامه شروطها وتوثيق ربوطها، كتب شهادته على النائب والمستنيب مـن رضى إمامتها على البعيد والقريب، وعلم علمًا يقينًا بما وصاه فى هذا الترتيب وذلك فى عام ٤٩٥هـ / ١١٠١م.

أ- وأوصى يوسف بن تاشفين ابنه عليًا بما يلي:

ألا يُعَيّن فى مناصب الحُكّام والقضاة فى الولايات والحصون والمُـدُن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة.

وأن يحتفظ فى الأنْدَلُس بجيش دائم حسن الأجر من المرابطين، قوامه سبعة عشر ألف فارس، يطعمون على حساب الدولة يوزعون كما يأتي: أربعة ألاف فى ولاية سَرَقُسْطَة، وسبعة آلاف فى إشبيلية، وثلاثة آلاف فى غرناطة، وألف فى قرطبة، والباقى قدره ألفان يحتلون قلاع الحصون كحامية، ويحـسن أن يعهد إلى مسلمى الأنْدَلُس بحراسة الحدود النصرانية ومحاربة النـصارى، فهم لهم معرفة أوسع وخبرة أكبر على مقاتلة النصارى مـن المغاربـة، وأن يعمل على تشجيع الأنْدَلُسيين على روح الجهاد وأن يكـافئ المتفـوقين فـى الحرب منهم بالخيل والسلاح والثياب والمال.

ونصح أبو يعقوب ابنه أن يعامل أهل الأنْـدَلُس وخـصوصًا قرطبـة بالرفق واللين، وأن يقوى علاقته الأخوية مع بنى هـود الـذين هـم طليعـة الأنْدَلُسيين فى محاربة النصارى.

ولما انتهى يوسف بن تاشفين من تنظيم شئون الأَنْدَلُس وقسمها إلى ست ولايات هى إشبيلية، غرناطة، قرطبة، بلنسية، مرسية، وسَرَقُسْطَة، عاد ابن تاشفين إلى مراكش.

ب- لقد مرت سياسة المرابطين فى الأندلس بمراحل ثلاث:

١- مرحلة التدخل من أجل الجهاد وإنقاذ المُسْلِمِين، وقد انتهت بانسحاب المرابطين بمجرد انتصار الزّلاقَة.

٢- مرحلة الحذر من ملوك الطوائف، بعد أن ظل وضعهم وضع التنافر والتحاسد والتباعد، ولم يفكروا فى الاندماج فى دولة واحدة، بل فضل بعضهم التقرب إلى الأعداء للكيد ببعضهم.

٣- مرحلة ضم الأَنْدَلُس إلى المغرب، فوضعوا حدا لمهزلة ملوك الطوائف.

المبحث الحادى عشر

آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله

على ملوك الطوائف

١- إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكًا فى الدنيا، وهلاكًا وعذابًا فى الآخرة، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة فى وجهتها الدّينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمسّ جميع شئون حياتهم, قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

لقد كانت فى مُمَارسة ملوك الطوائف للحكم البعيد عن شرع الله آثار على الأمة، فتجد الإنسان المنغمس فى حياة المادة والجاهلية مُصاباً بالقلق والحيرة والخوف والجبن يحسَب كلّ صيحة عليه، يخشى مِن النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عزّ وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع فى معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصى على قلبه، وأصبح فى ضنك من العيش: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا) [طه:١٢٤].

٢- أمّا الآثار على الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبلّد وفقد الإحساس بالذات ومات ضميرها الروحي، فلا أمر بمعروف تأمر به، ولا نهى عن منكر تنهى عنه. وأصابهم ما أصاب بنى إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

فإن أيَّ أمَّة لا تعظِّم شرع الله أمرًا ونهيًا فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل، قال رسول الله (ﷺ): «كلا والله لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر ولتأخذُنَّ على يد الظالم ولتأطرنّه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضًا, ثم ليلعننكم كما لعنهم».

٣- إن ملوك الأَنْدَلُس تحققت فيهم سنة الله الماضية بسبب تغيُّر النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣].

كما أن المجتمعات التي تخضع تحت الحُكَّام الذين تباعدوا عن شرع الله تُذَل وتهان, حتى تقوم أمام مَن خالف أمر الله وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة, لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم.

إن ملوك الأَنْدَلُس انعكس انحرافهم على شباب الأَنْدَلُس كلِّه، وفرَّط أهل الأَنْدَلُس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانعكس ذلك في حركة الفتوحات الإسلاميَّة التي توقَّفتْ، ولذلك حرمت شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلى هذا الدِّين، لقد قست قلوب ملوك الطوائف وكثير من أتباعهم إلا من رحم الله، وتركوا الحق وانقادوا للضلال، وابتلوا بالنفاق وفضحهم الله بذلك، وحرموا التوفيق والرجوع للصواب، وخف دينهم وضعف إيمانهم، بسبب بطرهم للحق وغمطهم لحقوق الناس وابتعادهم عن شرع الله تعالى.

٤- لقد كانت ممالك الأَنْدَلُس مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض، وتعطلت أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن وبلايا تولّدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنها حتى بعد زوالهم.

٥- وبسبب الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) سهلت مهمة النصارى فى الأَنْدَلُس فأصبحت شوكتهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن ملوك الطوائف وأهل الأَنْدَلُس، وحرموا من التمكين، وأصبحوا فى خوف وفزع من أعدائهم، وبعض المُدُن تبتلى بالجوع بسبب حصار النصارى لهم, وكم قتلَ النصارى من المُسْلِمِين وكم سبوا من نسائهم.

٦- إن الابتعاد عن شرع الله فى الأَنْدَلُس ترتب عليه انتقاص الأرض وضياع الملك، وتسلُّط الكفار وتوالى المصائب.

٧- إن من سنن الله تعالى المستخرَجة من حقائق الدِّين والتَّارِيخ أنه إذا عُصى الله تعالى ممَن يعرفونه سلَّط عليهم مَن لا يعرفونه، ولذلك سلَّط الله النصارى على المُسْلِمِين فى الأَنْدَلُس، وعندما تحرك الفقهاء والعلماء وبعض الملوك واستنصروا إخوانهم فى الدِّين، والتفوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على أعدائهم، ثم خلَّص الله أهل الأَنْدَلُس من ملوك الطوائف الظالمين وأبدلهم بأمراء عادلين، منقادين لشريعة رب العالمين.

٨- إن الذنوب التى يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

أولهما: معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به.

وثانيهما: كفر النعم بالبطر والأشر، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء، والإسراف فى الفسق والفجور، والغرور بالغنى

والثروة، فهذا كلُّه من الكفر بنعمة الله، واستعمالها فى غير ما يرضيه من نفع النَّاس والعدلِ العام، والنَّوع الثَّانى من الذنوب هو الذى مارسه ملوك الأنْــدَلُس وأمراؤهم وأتقنوه إتقانًا عجيبًا.

* * *

الفصل الثانى

السياسة الداخلية والخارجية فى دولة المرابطين

المبحث الأول

حقوق الرعية في دولة المرابطين

إن الله تعالى جعل بين الحاكم والمحكوم حقوقًا وواجبات متبادلة، وبينت الشريعة الغرَّاء هذه الحقوق المتبادلة؛ فمن أهم حقوق الرعية على الرَّاعِي:

أولا: العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية:

وذلك عن طريق حفظ الدِّين على أصوله المستقرَّة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فهذا هو أهم الأمور التى تلزم ولاة الأمر تجاه الرعية، وأهم هذه الأصول: التمسك بالكتاب والسنة وإجماع القرون المفضلة الأولى، وفى دراستى التَّارِيخية لدولة المرابطين وجدت أن حُكَّامها ساروا على هذا المنهج الذى رسمه شيوخهم الذين سبقوهم، ولذلك توحدت دولة المرابطين، وكان لذلك المسلك سبب فى حماية الأمة من التَّفرُّق فى الدِّين إلى دروب الأهواء والضلالات، وكان حماية ووقاية للحاكم والمحكوم فى دولة المرابطين على السواء من الزيغ عن السبيل، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أي: تمسَّكوا بدين الله الذى أمركم به، وعهده الذى عهده إليكم، فى كتابه إليكم من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمر الله»، لقد كان يوسف بن تاشفين ومن سبقه من حُكَّام دولة المرابطين على منهج الفرقة الناجية وسبيل أهل السنة والجَماعَة، لا سُبُل أهل الزَّيغ والتفريق التى نهى الله عنها فى قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٥، ١٠٦].

قال ابن عبَّاس –رضى الله عنهما–: «يعنى تبيض وجوه أهل السنة والجَماعَة وتسوَّد وجوه أهل الفرقة والزيغ»، لقد قام يوسف بن تاشفين بحماية

أصول أهل السنة والجَماعَة بتشجيع العلماء والفقهاء وبنشرها وحمل الناس عليها واستخدم فى ذلك سلطانه وصلاحياته الشرعية[٦].

ثانيًا: توحيد المغرب تحت راية الخلافة الإسلامية:

قام يوسف بن تاشفين بتوحيد المغرب الأقصى تحت راية الخلافة الإسلاميَّة, واستعمل من أجل هذا الهدف كافة الأسباب المشروعة سواء بإصلاح ذات البين بين القبائل المتناحرة، أو باستعمال القوة مع مَن استعصى عن الإجابة، وكان يسعى سعيًا حثيثًا للقضاء على الشرور فى بلاده، ويعمل على إغلاق أبوابها أولاً بأول وسبيله فى ذلك: «تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعمَّ النصفة، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم».

ثالثا: العمل على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين:

حيث استطاع أمير المُسْلِمين يوسف بن تاشفين أن يؤمن السبل فى بلاده, وأن يبسط الأمن, ويقمع الأخطار التى هددت دولته من المارقين, ونظم طرق الأسفار ومسارب التجارات.

وقد عدَّ علماء الإسلام تأمين السبل والطرق حقًّا من حقوق الرعية التى سيُسأل عنها كل راع، فذكروا أن الإمام يلزمه: «حماية بيضة الإسلام, والذب عن الحُرم، ليتصرف الناس فى معايشهم وينتشروا فى أسفارهم آمنين على أنفسهم وأموالهم» , ولا شكَّ أن تأمين السبل دليل بارزٌ على انتصار الدِّين وتمكينه، فإنه (ﷺ) لما دَعا عدى بن حاتم إلى الإسلام، وعده – إن طالت به الحياة – أن يرى طرق المُسْلِمين آمنة، وسبلهم محفوظة لما يؤول إليه الأمر من قوة المُسْلِمين بعد ضعفهم، فقد روى البخارى فى صحيحه عن عدى بن حاتم قال: «بينما أنا عند النبى (ﷺ) إذا أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: يا عدى هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من

الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله...» وفيه أن عديًا t قال بعدها: «فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتي تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله».

رابعا: العمل على حماية الأمة من أعداء الخارج:

قام الأمير يوسف بن تاشفين – رحمه الله – بأعمال عظيمة حماية لدولته وشعبه من كلّ عدوٍّ يحاول أن يعتدي، واتخذ كل الأسباب المتاحة من أجل تحقيق هذا العمل المنشود من تحصين الثغور بالعُدَّة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يظفر الأعداء بثغرة ينتهكون بها محرمًا, ويسفكون دمًا لمسلم أو معاهد

وقضى على كلّ محاولات أعداء دولته من البرغواطيين والمغاورة والحَمَّاديين الذين حاولوا ضم أراض من دولته, وقضى على دويلات الكفر والإلحاد, وألزم الحَمَّاديين احترامه بالقوة.

خامسا: حفظ ما وضعت الشريعة لأجله:

فقام بإقامة الحدود، حتى تُصان محارم الله عن الانتهاك, وتحفظ حقوق العباد من أى إتلاف أو استهلاك, ونفذ فى رعيَّتِه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

سادسا: إعداد الأمة إعدادا جهاديا:

ومسيرة المرابطين منذ خروجهم من رباط عبد الله بن ياسين تدلُّ على أنَّهم قوم مجاهدون، وقام قادتهم بجهاد الوثنيين, واستمرَّ يوسف بن تاشفين فى قتال أهل الردة, وغلاة المبتدعة, وتوحيد القبائل الخارجة عن نطاق الدولة، وقام بواجبه فى جهاد الكفرة المعاندين للإسلام حتى أسلموا أو أدخلوا فى ذمة المُسْلِمِين قيامًا بحق الله تعالى فى ظهور دينه على الدِّين كلّه .

سابعًا: القيام على تحصيل الصدقات وأموال الزكـــاة والخراج والفيء:

حيث قام الأمير يوسف بالإشراف على جباية وصـــرف الزكـــاة فـــى مصارفها الشرعية من غير حيف ولا عسف، فكانـــت مـــن مـــصادر دولـــة المرابطين الزكاة والخراج والفيء وغيرها، فكان الأميـــر يوســـف لا يأخـــذ الضرائب والمكوسَ، بل أسقطها، وإنَّما يأخذ المال من حِلِّه، ويضعه فى حقه، ولا يمنعه من مستحقٍّ.

ثامنًا: تحرى الأمانة فى اختيار المناصب:

حرص الأمير يوسف على أن يختارْ الأمناء والأكفاء وأســـند إلـــيهم الولايات وقيادات الجنود ومناصب القضاة، وحرص على أن يولِّى كل عمـــل من أعمال المُسلِمِين أصلحَ مَن يجده لذلك العمل، واختار وانتخب أحسن وأنفع العناصر لدولته السُّنِّيَّة من أجل أن يقوم بواجبه نحو رعيَّتِه.

تاسعًا: الإشراف المباشر على شئون الدولة:

اعتاد الأمير يوسف أن يُشرف بنفسه على أمور رعيَّتِه، ويتابع ولاته، ويزورهم فى مواطنهم، ويستمع للنَّاس، وما كان يعتمد على التفويض وحـــده؛ خوفًا من الله تعالى الذى قال فى كتابه:﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِـــى الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَـــن سَـــبِيلِ اللهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقد عدَّ الإمام الماوردى هذا الأمر من حقوق الرعية على الوالي، وذكر أنـــه يلزمه: «أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور، وتصفح الأحوال؛ لينهض بـــسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعوِّل على التفويض تشاغلاً بلـــذَّة، أو عبـــادة؛ فقـــد يخون الأمين، ويغش الناصح...» .

كان الأمير يوسف يراقب ولاته مراقبة شديدة، ولا يترددُ فى تبـــديلهم وعزلهم إذا أساءوا، وكان يضع مصلحة الرعية فى المقام الأول عنـــد تعيـــين

الولاة ويوصيهم بها خيرًا، وقد جاء في كتابه إلى عبد الله ابن فاطمة: «فاتخذ الحق إيمانك، وارفع لدعوة المظلوم حجابك، ولا تسد في وجه المضطهد بابك، ووطن للرعية -أحاطها الله- أكنافك، وابذل لها إنصافك، والحرج من كل ما يَحيف عليها ويؤذيها، ومن سدَّد عليها من عمالك زيادة، أو خرق في أمرها عادة، أو غيَّرَ رسمًا، أو بدَّل حكمًا، أو أخذ لنفسه منها درهمًا ظلمًا فاعزله من عمله، وعاقبه في بدنه، وألزمه في ردِّ ما أخذ متعديًا إلى أهله، واجعله نكالاً لغيره حتى لا يقدم منهم أحد على مثل فعله».

وكان الأمير يوسف يُخطر أهل الولاية بتعيين الوالي الجديد؛ فكتب إلى أهل سبتة بشأن الأمير يحيى بن أبي بكر: «ونحن من وراء اختياره والفحص عن أخباره، فإذا وصل إليكم كتابنا؛ فالتزموا له السمع والطاعة، والنصح والمتابعة جهد الاستطاعة» بالإضافة إلى ذلك كان الأمير يوسف كثير الطواف في مملكته للإشراف على تنفيذ أوامره وتعليماته من قبل الولاة , والاطلاع على أحوال الرعية والنظر في أمورها.

* * *

المبحث الثاني

موقف الرعية فى دولة المرابطين

لقد استوفت الرعية فى دولة المرابطين حقوقها الشرعية، فكان طبيعيًّا جدًّا أن تؤديَ واجباتها إلى حُكَّامها وولاتها, وأهم هذه الواجبات التى أدتها:

أولا: الطاعة:

كان مسلمو المغرب فى زمن دولة المرابطين يتقربون إلى الله تعالى بطاعة أميرهم والانقياد له فى كل معروف، ويرون هذه الطاعة حقًا ثابتًا لحُكَّامهم بنص القرآن وصريح السنة وصحيحها. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

وفى مجتمع المرابطين كانت الشريعة فوق الجميع يخضع لها الحاكم والمحكوم، ولهذا فإن طاعة الحُكَّام كانت عندهم مقيدة دائمًا بطاعة الله ورسوله.

قال (ﷺ): «لا طاعة فى المعصية، إنما الطاعة فى المعروف».

ثانيًا: النصرة:

كان المُسلِمُون تحت قيادة أمراء المرابطين يعاضدون وينصرون أمراءهم فى أمور دينهم وجهادهم لعدوهم عاملين بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة:٢].

وكانوا يكرمون من يقيم شرع الله من حُكَّامهم، ويدافعون وينافحون عنه ويكرمونه ويجلونه لقوله (ﷺ): «إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذى الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه, وإكرام ذى السلطان المقسط».

ثالثا: النصح:

قامت هذه الدولة الميمونة المباركة على النصح المتبادل بين الحاكم والمحكومين، ونجد إن أحد الوزراء يطلب من الأمير يوسف عدم جواز البحر فى جهاده ضد النصارى حتى يسلم المُعْتَمِد بن عَبَّاد له الجزيرة الخضراء، فيسمع الأمير يوسف هذه النصيحة وينفذها فى أرض الواقع، وامتنع عن جواز البحر حتى تحصَّل على تلك الجزيرة التى أفادته فى جهاده كثيرًا، لقد كانت قيادات المرابطين تستمع للنصح فى تواضع جم، واستعداد نفسى رفيع يدل على عمق التربية العميقة التى تحصَّلوا عليها.

إن الإسلام أوجب على الرعية أن تُناصح ولاة أمرها، وقد جاء الأمر بذلك فى حديث من جوامع الكلم لرسول الله (ﷺ) إذ يقول: «الدِّين النصيحة – ثلاثًا – قال الصحابة: لِمَن يا رسول الله؟ قال: لله – عزَّ وجلَّ– ولكتابه ولرسوله ولأئمة المُسلِمين وعامتهم».

ومعنى النصيحة لهم فى هذا الحديث: «معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وتذكيرهم به وتنبيههم فى رفق ولطف، ومجانبة الوثوب عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق».

وقال (ﷺ): «ثلاثة لا يُغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المُسلِمين، ولزوم جماعتهم».

لقد أكرم الله حُكَّام المرابطين ببطانة آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر، مرشدة للصواب، ناصحة للراعي والرعية لا تخشى إلا الله.

رابعًا: التقويم:

كان المُسْلِمُون الذين ارتبطوا بدولة المرابطين لا يجدون حرجًا ولا مانعًا فى إيصال ما يرونه من النصح والإرشاد وتقويم الأخطاء التى يقع فيها الحُكَّام أثناء اجتهاداتهم فى شئون الحياة.

وهذا المبدأ قد استقرَّ فى مفهوم الصحابة منذ بداية دعوة الإسلام، فهذا الصدِّيق t عندما تولى الخلافة، قام فى الصحابة خطيبًا، فقال: «أيُّها النـاس، فإنِّى قد ولِّيت عليكم, ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعيونني، وإن أسأت فقوِّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع عليه حقه –إن شاء الله– والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه – إن شاء الله–، لا يدعُ قوم الجهاد فى سبيل الله إلا خذلهم الله بذلِّ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء, أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لى عليكم, قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

وكان عمر t لا يكتفى بإنصاف الناس من نفسه، حتى ينصفهم من عُماله وولاته، يسأل الرعية عمن أساء منهم، وكان يقول: «إنِّى لم أبعث عمالى ليضربوا أبشاركم وليشتموا أعراضكم ويأخذوا أموالكم، ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم، فمَن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له عليَّ، ليرفعها إليَّ حتى أقصه منه».

إن علاقة الحاكم بالمحكوم فى الإسلام غرضها الأول إعلاء كلمة الله, وإعزاز دينه, ولمصلحة الرَّاعِي والرعية, وثانياً: فهى بعيدة كل البعد عمَّن يجعلون فى مرتبة مَن لا يسألون فيها عما يفعلون, وبين مَن يحقرون ويمتهنون حُكَّامهم بدون وجه حق، إن الحاكم فى الإسلام له احترامه وحقوقه المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، وكذلك للمحكوم حقوقه المستمدَّة من أصل عقيدة الإسلام، لذلك نجد النصح والنقد والتقويم بين الحاكم والمحكوم فى تاريخ

الإسلام على مرّ العصور والأزمان، فإذا تأملت فى الدول التى سارت على شرع الله المولى – عزّ وجلّ –وجدت هذه المعالم واضحة.
وهذا يوسف بن تاشفين عندما دخل فى بلاد الأنْدَلُس للجهاد فى سبيل الله فأرسل إلى أهل المرية من ممالك الأنْدَلُس، وذكر لهم أن جماعة أفتوه بجواز طلب العون اقتداء بعمر بن الخطّاب t فردّ قاضى المرية «أبو عبد الله بن الفراء» على الأمير يوسف ردًّا فيه نقد وتقويم ونصح، فلم يتعرَّض ذلك القاضى لعقوبة، بل استمع إلى نصحه وإرشاده وما رآه حقًّا, وكان هذا القاضى من الدّين والورع بمكان، وهذا نصُّ الجواب الذى أرسله إلى الأمير يوسف: «أمَّا بعد, ما ذكره أمير المُسْلِمين من اقتضاء المعونة وتأخيرى عن ذلك، وإن أبا الوليد الباجى وجميع القضاة والفقهاء بالعُدوة والأنْدَلُس أفتوا بأن عمر ابن الخطاب t اقتضاها، وكان صاحب رسول الله (ﷺ) وضجيعه فى قبره، ولا يشك فى عدله، فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله (ﷺ) ولا بضجيعه فى قبره، ولا من لا يشك فى عدله، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلة فى العدل فالله سائلهم عن تقلدهم فيك، وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله (ﷺ) وحلف أن ليس عنده درهم واحد من بيت مال المُسْلِمين ينفقه عليهم، فلتدخل المسجد الجامع هناك بحضرة أهل العلم، وتحلف أن ليس عندك درهم واحد، ولا فى بيت مال المسلمين, وحينئذٍ تستوجب ذلك, والسلام».

ومحل الشاهد من هذه الرسالة هو النقد والتقويم المستمرُّ فى حياة الأمة بين علمائها وأمرائها بدون ظلم وجور واعتداء من الطرفين على بعضهما البعض، وبذلك تنطلق حضارة الأمة بآفاقها المتنوعة لتحدث تغييرًا حضاريًا فى دنيا الناس، مبنى على النصح والتناصح، والنقد والتقويم، كما حدث فى دولة المرابطين السُّنيَّة.

* * *

المبحث الثالث

موقف المرابطين من الخلافة العباسية

رأى المرابطون إن مبايعة الخليفة العبَّاسي واجبة، ولذلك أعطوا بيعتهم له لكونهم مالكيين سنيين، فاعترفوا بالخلافة العباسية واتخذوا السواد شعارًا لهم، ونقشوا اسم الخليفة العبَّاسي على نقودهم منذ منتصف القرن الخامس الهجري، وبعد أن بسط الأمير يوسف سيادته على الأَنْدَلُس طلب منه الفقهاء أن تكون ولايته من الخليفة لتجب طاعته على الكافة، ونزولاً عند رغبتهم اتصل بالخليفة العبَّاسي أحمد المستظهر بالله ٤٨٧-٥١٢هـ / ١٠٩٤م- ١١١٨م وأرسل إليه بعثة من عبد الله بن مُحَمَّد بن العربى الإمام المعروف، وزوَّدها بهدية ثمينة, وبكتاب يذكر فيه ما فتح الله على يده من البلاد فى المغرب والأَنْدَلُس، وما أحرزه من نصر للمسلمين، وعزٍّ للإسلام، ويطلب فى النهاية تقليدًا بولاية البلاد التى بسط نفوذه عليها، وأدَّت البعثة مهمتها بنجاح؛ فتلطَّفت فى القول, وأحسنت الإبلاغ وعادت إلى المغرب بتقليد الخليفة وعهده للأمير يوسف بن تاشفين الذى سُرَّ بذلك سرورًا عظيمًا.

لقد كانت دولة المرابطين من الناحية العملية تستطيع أن تستغنى عن الخلافة العباسية الضعيفة, حيث إن السلطان لا يملك من السلطة إلا اسمه، بل كان الأمير يوسف أكثر قوة منه؛ يملك ويحكم، ولكن حبَّهم لشريعة الإسلام وحرصَهم على تنفيذ أحكام الله فى أسوأ الظروف جعلهم يتقيدون بذلك، لقد كانت توجيهات القرآن الكريم فى وجوب لزوم الجماعة وذم التفرُّق واضحة المعالم بالنسبة إليهم, ولقد كانت أحاديث رسول الله (ﷺ) فى هذا المضمار هى التى أرشدتهم للانضمام للخلافة العباسية الضعيفة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَبْيَضُّ

﴿وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

[آل عمران:١٠٥-١٠٧].

لقد ذكر ابن جرير بسنده عن ابن عبَّاس – رضى الله عنهما–: قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ ونحو هذا فى القرآن أمر الله– جل ثناؤه –المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفُرقة، وأخبرهم إنَّما هلك مَن كان قبلهم بالمراء، والخصومات فى دين الله».

والأحاديث فى هذا الشأن كثيرة: فعن ابن عبَّاس – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله (ﷺ) : «مَن فارق الجماعة شبرًا فكأنَّما خلع ربقة الإسلام من عنقه».

وعن ابن عمر –رضى الله عنهما – قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «مَن فارق الجماعة، فإنه يموت مِيتة جاهليَّة» .

والمراد بميتة الجاهلية –وهى بكسر الميم– حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال، وليس له إمام مطاع، لأنَّهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافرًا، بل يموت عاصيًا، لقد ذهب علماء المرابطين إلى أن الجماعة المقصودة فى الحديث جماعة المُسْلِمِين إذا اجتمعوا على أمير، موافق للكتاب والسنة.

هذا فى نظرى سبب دخول المرابطين تحت الخلافة العباسية، وأما ما ذكره المؤرخون أن من أسباب ذلك بعدهم عن العبَّاسيين، ولذلك كانوا لا يخشونهم خاصَّة بعد أن تطرَّق إليهم الفساد، ودبَّ الضعف فيهم، وهى لا تشكل أى خطر عليهم، فإنِّى استبعد ذلك جيث إن سياسة قادة المرابطين تقاد بالشرع، وليس العكس، فهم إسلاميون سياسيون، وليسوا سياسيين إسلاميين فى علاقاتهم الخارجيَّة وشئون دولتهم الدَّاخليَّة وارتباطاتهم الدولية.

أولا: الخطاب الذى رفعه الفقيه ابن العربى إلى الخليفة المستظهر بالله ٤٨٧-٥١٢هـ:

يلتمس فيه تقليدًا يخوّل يوسف بن تاشفين حكم بلاد المغرب والأنْدَلُس:
بسم الله الرحمن الرحيم عليه توكلي:

أسعد الله الدنيا وأهلها بدوام أنوار المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية، وضاعف مددها، ولا أرى المُسلِمين أمدها بغرائب مجد تبدعها، وفرائض تشرعها الخلافة، ومستأنف سعود تحرص جنابها، ولا زالت الأيام التى هى لأيامها غرر، وفى إكليل الخلافة درر، وللدهر تمائم، وفى المحل غنائم، والحمد لله الذى جعل المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية شرائط السواد، وخصَّها بالمجد المؤثل المطول بالانتساب، كابرًا عن كابر إلى أعلى خندف ، فهى أعلاها عمادًا, وأوراها فى مواقف الفضل زنادًا, أرومة الرسالة وجرثومة الخلافة، إليها ينزع هاشم، وعنها أخذت المكارم، مفاخر شهد لها الكتاب المنزل، وعهد بتخليدها مخبرًا عن الوحى فى آله وعقبه النبى المرسل، قد آمنت بعصمة الله من الغير، وتحققت أواخرها على السنن أولها فى هداية البشر بحسن السير، أوزعنا الله الشكر على ما منَّ به من توفيقنا للتمسك بعراها الوثيقة, والإهداء بهداها إلى واضح الطريقة، فهم فى الدِّين أمتنا, ويوم الدِّين وسليتنا، استعملنا الله من طاعته وطاعتهم بما يؤدى إلى مرضاته ومرضاتهم، إنه الموفِّق الهادى لا ربَّ غيرُه.

وإن الخادم بالأدعية المتقبلة للمواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية، ألهمه الله منها لما يسمع فيرفع بمنه لما علم بموجب الشرع أن بيعة الإمام العادل من أركان الديانة، ومما يتعين ما يحتمل من رعاية الأمانة.

هاجر إلى ذلك بنفسه وبابنه المسترق القن من أقصى المغارب، معتقدًا أن عمله أفضل القرب والرغائب، واحتمل برد الهواء وظمأ الهواجر، واقتحم

دون ذلك مسالك بلغت فيها القلوب الحناجر، ولم يثنه بحر يزخـــر، ولا قفـــر يذعر ويحتسب فى ذلك أثره، ويرجو أن يقبل الله يوم الجزاء عثره، إلـــى أن انتهى هو وابنه إلى مدينة السلام لا زالت محروسة من غِيرَ الأيام، عاصـــمة لمن التجأ إليه من مهتضمى الأنام.

ولم يزل الخادم بالأدعية المتقبلة بحول الله يتوسّل بهجرته، ويتقـــرّب بخلوص علانيته وسريرته. ويسأل تشريف رقاعه، بملاحظاتها، والنّظر مـــن انقطاعه، رغبة فى الحظ الجسيم، إلى أن وصل إلى المجلس الـــسامى وخـــدم البساط العالي، زاده الله تعظيمًا وتشريفًا، وأنهى أغـــراض وفادتـــه ومقاصـــد إدارته. فنفذت الأوامر الشريفة، أدام الله سموّها وتشريفها. واصـــطفى علـــى الجميع ستر سلطانها، وكنف إحسانها بقبول وسائله، وإلحاح مطالبه، وإضـــافة الإحسان عليه.

ولما بسط له فى الأمل، وكان هو وابنه فى محلّ الكرامة والجذل، بدأ بعرض ما هو عليه ناصر الدّين، وجامع كلمة المُسْلِمين، القائم بدعوة مولانـــا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، الأمير أبـــو يعقـــوب يوسف بن تاشفين المتحرك بالجهاد المتجهز إلى المُـــسْلِمين باستئـــصال فئـــة العناد، ولمة الفساد، قام بدعوة الإمامة العباسية والناس أشياع. وقد غلب عليهم قوم دعوا إلى أنفسهم ليسوا من الرهط الكريم، ولا من شعبة الطاهر الصميم، فنبّه جميع من كان فى أفق قيامه بالدعوة الإمامية العباسية، وقاتل مَن توقّـــف عنها منذ أربعين عامًا إلى أن صار جميع مَن فى جهة المغارب على ســـعتها واستدادها له طاعة، واجتمعت بحمد الله على دعوته الموفّقة الجماعة، فيخطب الآن للخلافة، بسط الله أنوارها، وأعلى منارها على أكثر مـــن ألفـــى منبـــر وخمسمائة منبر، فإن طاعته ضاعفها الله من أول بلاد الإفرنج -استأصـــل الله شأفتهم، ودمّر جملتهم - إلى آخر بلاد السوس مما يلى بلاد غانة وهى بـــلاد معادن الذهب، والمسافة بين الحدين المذكورين مسيرة خمسة أشهر، وله وقائع

فى جميع أصناف الشرك من الإفرنج وغيرهم قد فللت غربهم، وقللت حزبهم، وألفت جموعه حربهم، وهو مستمرٌ على مجاهدتهم، ومضايقتهم فى كل أفق، وعلى كل الطرق، وقد استرجع كثيرًا من المعاقل التى استباحها الروم من أمور المُسْلِمِين، وسبت أهلها قبل حصول تلك الجهات فى حكم سلطانه، وكانت ثغور المُسْلِمِين بها مستضامة، وقد أعادها جده بحمد الله إلى أولها، واحترمت لحرمة المُسْلِمِين والإسلام وعزّ سلطانه. وهذا دأبه، وهجيراه الذى لا عمل له سواه.

وعدة جيوشه إذا جمعها لحركته ستون ألف فارس. وكان أمله مواصلة الخدمة والتشريف بإنهاء أعماله، والإعلام بمناقل أحواله وأفعاله. وباحتماله على حماية دين المُسْلِمِين. وإقباله على مجاهدة المشركين، إلا أن الحائل المانع دون ذلك لاشفاته، ولم يزل محافظًا على ما هو عليه من إقامة الدعوة السعيدة. والاعتراف بجمل النعم الوافدة العديدة بفضل الله، ولقد وصل إلى ديار المشرق فى هذا العام قاضى من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم، وذكر من حال هذا الأمير ما يؤكِّد ما ذكرته، ويؤيد ما شرحته، وأشاع القاضى المذكور ذلك بمكة، وصل الله تشريفها وتعظيمها، وذكر لى أن الروم على شفا جرف من تضييقه عليهم، وحصاره لهم، وقد تكرَّر إعلام الخادم بذلك لما تلزمه من طاعة أولى الأمر لاسيما هذا الأمير، وقد حظى بفضائل منها الدِّين المتين، والعدل المستبين، وطاعة الإمام، وابتدأ جهاده بالمحاربة على إظهار دعوته، وجميع المُسْلِمِين على طاعته والارتباط بحماية ثغور المُسْلِمِين، وهو ممن يقسم بالسوية، ويعدل فى الرعية. والله ما فى طاعته مع سعتها دان منه، ولا ناء عنه من البلاد ما يجرى فيه على أحد من المُسْلِمِين رسم مكس، وسبل المُسْلِمِين آمنة، ونقوده من الذهب والفضة سليمة من الشرب، مطرزة باسم الخلافة، ضاعف الله تعظيمها وجلالها.

هذه حقيقة حالِه، والله يعلم أنى ما أسهبت ولا لغوت، بل لعلى قد أغفلت أو قصَّرت، ولمولانا أمير المؤمنين المستظهر بالله، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، والطول العميم فى الأمر, تشريفه بقبول تأميله، وفى الإشارة إليه بما يقوى أمره، ويشد أزره, ويؤيد سلطانه، ويعلى شأنه, مجريًا له على السنن الكريم، الطول العميم، فوالله ما فى الأمراء ولا فى شيع النصحاء الأولياء من يجوز فى الولاء وصحة الانتماء سبقه، ولا يلْبس من النصيحة من الخلافة المقدسة المبنية على طريق النبوية، ما يصل يده ويقوى أيده ويشد عضده بمنه وطوله.

وضراعة الخادم بالأدعية المتقبلة لنفسه ولابنه المسترق القن بعد الامتنان بإباحة الصدر لهما إلى الوطن، فقد بعد عنه سبعة أعوام، وأقاما فى الجناب المخضب الظليل, والكنف الرحب المأهول مدة عامين، يستدرّان النعم الحافلة جملاً بعد جمل، ويكرعان فى المشارب الجمة العذبة عللاً بعد نهل, فلله الهام الشريفة التى مسحت على شكيتها من عدوان الأيام بيد شيم الكرام، فأزاحت عنهما جميع الشاكيات والآلام. . لا أعدم الله مولانا الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه المنتخبين مبرة تتضاعف بها المعالي, وسعادة تحرز أسنى الآمال، وكفاية يستمدُّ بها حرية الأيام والليالي، فذلك بيده وغيره معجزة، وهو المنعم الجوّاد، وكلُّ خير من طوله مستفاد، لا شريك له، ولا توفيق إلا به والحمد لله حق حمده، وصلواته على سيد المرسلين رسوله وعبده وعلى آله الطيبين، وعترته المنتخبين الراشدين، آباء أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين إلى يوم الدِّين، وحسبى الله ونعم الوكيل».

إذا تأمّلنا فى الرسالة المذكورة فإنها تدلُّنا على طابع رسائل الحُكّام فى فترة المرابطين، وتدلنا على حسن اختيار دولة المرابطين لممثليها عند الخلافة العباسية حيث إنّها اُختارت عالمًا فقيهًا ذا دراية وخبرة كبيرة فى مخاطبة

الحُكّام والخلفاء، وبذلك نجحت تلك الوفادة وحققت أهدافها، ورجعت تحمل معها ثمارها.

ثانيًا: رد الخلافة العباسية على طلب دولة المرابطين:

لاشكّ أن الخلافة العباسية دخلها سرور عظيم, وكسبت مكسبًا معنويًا كبيرًا, ولذلك حرص الخليفة على أن يرد بنفسه على خطاب ابن تاشفين حيث كتب سبعة وثلاثين سطرًا جاء فيها: «عرضت هذه القصة بمفاوز العز والعصمة، ومواقف الإمامة المطهرة المكرمة، زاد الله جلالها، وسبوغ ظلالها، فخرجت المراسم الشريفة بأن ذلك الولي الذى أضحى بحبل الإخلاص معتصمًا, ولشرطه ملتزمًا، وإلى أداء فروضه مسابقًا، وكل فعله فيما هو بصدده للتوفيق من الولاء، طويل نجاده, إذ كان مَن غدا بالدِّين تمسكه, وفى الذيادة عنه مسلكه، حقيقًا بأن يستتب صلاح النظام على يده، ويستشف من يومه حسن العقبى فى مَن يليه من الكفار, وإتيان ما يقضى عليهم بالاجتياح والبوار، اتباعه لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

فهذا هو الواجب اعتماده الذى يقوم به الشرع، وأن يؤلف شمل مَن فى جملته من الأنجاد على الطاعة الإمامية التى هى العروة الوثقى والذخر الأبقى واستقراه قوله تعالى العمل، والبدار إلى التشبث بسببه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

وليكن دأبه الجهاد فيما يكسب عند الله الزلفى, ويمنحه من رضاه القسم الأكمل الأوفى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وأن يختص رافعها وولده بالإرعاء الذى يضفو عليهما برده، ويصفو لهما ورده، وليظهر عليهما من المهاجرة جميل الأثر، ويؤول أمرهما فيما

يرجو أنهما إلى استقامة النظام وضمّ النشر، فليقابل الأمر الأسنى فـي ذلـك بامتثال واحتذاء مطاع المثال - إن شاء الله-».

لقد استطاعت دولة المرابطين أن تكون سندًا قويًـا معنويًـا للخلافـة العباسية السُنيَّة, وبذلك تكون نفَّذت أوامر ربها, واسترشدت بتوجيهات نبيهـا، فأصابها بركة ذلك من سمعتها العالمية فى ديار المُسْلِمين، وأصبحت جزءًا من الخلافة العباسية التى اكتفت منها بالطاعة المعنوية، وبـذلك تحـصل أمـراء المرابطين من اعتراف الخلافة العباسية بدولتهم, حيث إن المـرابطين كـانوا يعتقدون اعتقادًا راسخًا أنه لن يعتبر ملكهم مشروعًا إلا إذا باركتـه الإمامـة القرشية العباسية.

واختلف المؤرِّخون فى زمن اتصال المرابطين بالخلافة العباسية: فابن الأثير يقول: إن أول اتصال بين المرابطين والعبَّاسيين قد حدث عقب انتصار الزّلاقَة, واستيلاء يوسف على الأَنْدَلُس, ويتفق مع ابن الأثير فى هذا الرأى كلٌّ من ابن خلدون, والقلقشندي, والذهبي.

وأنا أميل إلى أن اتصال المرابطين كان قبل ذلـك بكثيـر حيـث إن واضع الخطوط العريضة لدولة المـرابطين الفقيـه «أبـو عمـران الفاسـى القيرواني» مِن أتباع العباسية, وكلُّ الفقهاء الذين من مدرسته سُنيُّون مالكيُّون، وبذلك يكون زعماء المرابطين ساروا على نفس التعاليم السُنّيَّة المالكية.

ونجد أن نقود المرابطين قد نقش عليها أسماء الخلفاء العبَّاسيين منـذ عام ٤٥٠هـ، أى منذ عهد الأمير أبى بكر بن عمران، وظلَّ اسـم الخليفـة العبَّاسى يذكر مقرونًا باسم أبى بكر بن عمران إلى أن توفى فى عام ٤٨٠هـ، وخلفه يوسف بن تاشفين فذكر اسمه على السكة مع اسم الخليفة العبَّاسي، وهذا يدل على صلة المرابطين بالعبَّاسيين قبل الزّلاقَة، ولا شكَّ أن كتابة اسم الخليفة على عملة المرابطين تم بعد اتصالهم بالخليفة العبَّاسي، وبعد أن تلقَّـوا منـه إجابة بقبول طاعتهم, وتقليدًا بولايتهم.

المبحث الرابع

علاقة الأمير يوسف مع بني حماد

حرص الأمير يوسف على علاقة حسن الجوار مع دولة بنى حَمَّاد الصنهاجية التى تقع فى شرق دولة المرابطين، وكان الحَمَّاديون يتحينون الفرصة لضم أطراف من مملكة المرابطين، وتمَّ لهم ذلك عندما عبر الأمير يوسف الأَنْدَلُس عام ٤٧٩هـ، فتحالفوا مع عرب بنى هلال؛ وغزوا المغرب الأوسط ؛وعادوا إلى بلادهم محملين بالغنائم، وسكت يوسف عن الانتقام منهم, وصالحهم، ولمْ يرغب فى الدخول فى حرب معهم مع وجود أسبابها حقنًا لدماء المُسْلِمِين وحفظًا لشوكتهم وقوتهم.

وعندما تُوفى الناصر بن علناس الحَمَّادى فى عام ٤٨١هـ, بعث الأمير يوسف بكتاب تعزية إلى ولده وخليفته المنصور، مما يدل على نيَّات يوسف السلمية تجاه بنى حَمَّاد، واستمرَّت حالة السلم بين الفريقين أكثر من عشر سنوات, ثم نشب خلاف بين والى تلمسان المرابطى تاشفين بن تنغمير وحُكَّام بنى حَمَّاد, فهاجم الأمير تاشفين بدون إذن من الأمير يوسف، واشتدَّ الصِّراع بين الطرفين, وتدخل الأمير يوسف واستطاع بحكمته وسياسته أن يحقن دماء المُسْلِمِين، وعزل حاكم تلمسان تاشفين وعيَّن مكانه الأمير مزدلي، وبعد أن ضم الأمير يوسف الأَنْدَلُس أضحت مملكة بجاية ملاذًا للفارِّين من الأَنْدَلُس، ومع ذلك لم يحرك الأمير يوسف ساكنًا تجاه عمل بنى حَمَّاد, وبَقى الأمر كذلك حتى وفاته.

لقد كان للتوجه السنى فى دولة الحَمَّاديين أثر فى تخفيف الصراع مع المرابطين، كما إن لصلة القرابة الصنهاجية سببًا آخر، وإلا ما كانت تستطيع دولة الحَمَّاديين أن تقاوم جيوش المرابطين الفتية، وفى نظرى إن بقاء دولة الحَمَّاديين كانت من الأسباب التى أضعفت الدولة الزيرية والصنهاجية، وسببت

توترًا وارتباكًا لدولة المرابطين، ولو ضمت لدولة المرابطين لكان أفيد للإسلام والمُسْلِمين وللمغرب الأوسط والأقصى.

* * *

المبحث الخامس

علاقة المرابطين مع ملوك الطوائف

مرّت علاقة المرابطين مع ملوك الطوائف بمراحل متعـددة، وهـي: المسالمة ، التحالف، القتال.

أولا: مرحلة المسالمة:

لمّا وصلت دولة المرابطين ذروة قوتها وحطت بجيوشها وأسـاطيلها على سهل البحر المتوسط ارتعد ملوك الطوائف، وأصابهم الخـوف وركـبهم الهمُّ، وأصبحوا بين قبضتين قويتين: بين النصارى الـذين يمكـن مـداراتهم بالأموال والتنازل عن بعض الحصون, وبين المرابطين الذى عرفوا بجهادهم واستعلائهم على متاع الدنيا، وحبّهم للشهادة, ورفع المظالم عن العبـاد، وقـد وصلهم ظلم ملوك الأَنْدَلُس، وقد اشتهر جنود المرابطين بصيت عظـيم فـى تحقيق النصر فى المعارك، وبأس شديد فى القتال مما أدخل الرعب فى قلوب ملوك الطوائف، فعقدوا اجتماعًا للتشاور فى أمر الخطر القادم من الجنـوب، واستقرَّ رأيهم أن يكتبوا للأمير يوسف يسألونه الإعراض عنهم, وأنَّهم تحـت طاعته، وهذا نص الكتاب:

«أما بعد, فإنَّك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم, ولم تنسب إلى عجز، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبنا فاختر لنفسك أكرم نسبتك، فإنَّك بالمحل الذى لا يجب أن تُسبَق فيه إلـى مكرمة، وإن فى استبقائك ذوى البيوت ما شئت مـن دوام لأمـرك وثبـوت والسلام».

وأرسلوا مع حامل الكتاب هدايا وتحفًا نفيسة.

وبعد أن تشاور الأمير يوسف مع مستشاريه رأى إن يسالمهم ويرضى بما قدّموا له من طاعة, وردّ عليهم بهذا الكتاب جاء فيه:

« بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية من سالمكم وسلم عليكم, وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم، وإنّكم مما فى أيديكم من الملك فى أوسع إباحة مخصوصين منا أكرم إيثار وسماحة، فاستديموا وفاءنا بوفائكم, واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم، والله ولى التوفيق لنا ولكم والسلام ».

وقد قرن الأمير يوسف الكتاب بالتحف وبدرق اللمط التى لا توجد إلا فى ديار المرابطين، ولما وصل كتابه إلى ملوك الطوائف فرحوا بذلك، وتقوّت نفوسهم على قتال الإسبان، وأحب أهل الأَنْدَلُس دولة المرابطين حُكّامهم ومحكوميهم.

ثانيًا: مرحلة التحالف:

وبعد سقوط طُلَيْطِلَة فى يد الإسبان النصارى عام٤٧٨هـ اضطرّ ملوك الطوائف أن يطلبوا النجدة من الأمير يوسف الذى لبى نداءهم، وكان سببًا فى إيقاف زحف النصارى على ممالك الأَنْدَلُس، وانتصر على ألفونسو فى معركة الزّلاقَة المشهورة.

وبعد أن احتك الأمير يوسف بملوك الطوائف, ووقف على خيانتهم وتحالفهم مع النصارى, واتصالهم بأعداء المُسْلِمين انتقلت العلاقة من التحالف إلى العداوة.

ثالثا: مرحلة العداوة:

حيث استعرتْ نار الحرب بين المرابطين وملوك الطوائف انتهت بضم كل ممالك الأَنْدَلُس لدولة المرابطين إلا سَرَقُسْطَة التى حكمها أحمد بن هود, والذى كان كالشوكة فى حلق النصارى، فقد قاومهم زمنًا طويلاً، وتراجع

النصارى أمام صمود بنى هود البطولي، وأظهر بنو هود مقدرة فائقة على قتال النصارى مما جعل المرابطين يحترمونهم، وتوطّدت العلاقة الوديَّة بين الأمير يوسف والأمير أحمد بن هود الذى كان وفيًا فى عهوده, ومخلصًا فى جهاده, وحريصًا على أمَّته، ورضى المرابطون ببقاء أحمد بن هود حاكمًا تابعًا لهم, بذلك أصبحت الأَنْدَلُس ولاية تابعة لدولة المرابطين، وتوارت العناصر والزعامات الهزيلة وانهار سلطان العصبيات الطائفية .

* * *

المبحث السادس

علاقة المرابطين مع الإسبان والنصارى

كانت علاقة المرابطين مع نصارى الإسبان عدائية بصورة دائمة إذ لم يتخللها أى اتصال وديٌ خصوصًا فى زمن الأمير يوسف بن تاشفين، والاتصال الوحيد الذى حدث عن طريق الرسائل بين الأمير يوسف وألفونسو أثناء قيام هذا الأخير بحملته العدائية على مملكة المُعْتَمِد، ووصوله إلى مضيق جبل طارق إذ أرسل إلى الأمير يوسف رسالة تفيض تهديدًا ووعيدًا، ويذكر فيها حالة ملوك الطوائف، وكان جواب الأمير يوسف مختصرًا: الجواب ما ترى لا ما تسمع- إن شاء الله - تعالى- وأردف:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسل إلا الخميس العرمرم

واستمرّ جهاد المرابطين للنصارى الذين امتنعوا عن دخول الإسلام, ورفضوا دفع الجزية, وحملوا السيف ضد المُسْلِمين، أمّا الذين دفعوا الجزية, وعاشوا داخل دولة المرابطين؛ فكانت أحكام الإسلام فى أهل الذِّمَّة تحفهم وتحفظ حقوقهم.

أولا: عاملتهم دولة المرابطين معاملة أهل الذمة:

فكانت عليهم واجبات فى دولة المُسْلِمين منها:

١- التزام الجزية، وإجراء أحكام أهل الذِّمَّة عليهم.

٢- ترك ما فيه ضرر على المُسْلِمين فى أنفسهم وأموالهم؛ كالتعدى على المُسْلِمين بضرب أو نهب.

٣- تحاشى ما فيه غضاضة على المُسْلِمين، كذكر الإسلام أو القرآن أو الرسول (ﷺ) بما لا ينبغي.

٤- تجنُّب ما فيه إظهار منكر، كشرب الخمر في الأماكن العامة للمُسلِمين.

٥- التميُّز عن المُسلِمين بعلامة خاصة يُعرفون بها، كأن تكون في اللباس أو غيره.

ثانيًا: حقوقهم في دولة المسلمين:

الكف عنهم والحماية لهم، ليكونوا بالكف آمنين، وبالحماية محروسين. روى نافع عن ابن عمر قال: «احفظوني في ذمتي» والأحكام فيما يتعلق بأهل الذِّمَّة كثيرة يرجع إليها في كتب الفقه المختصة.

* * *

الفصل الثالث

سياسة المرابطين فى دولتهم المجيدة

المبحث الأول

نظم الحكم والإدارة فى دولة المرابطين

أولا: النظام الإدارى:

١ـ نظام إمارة المسلمين:

كان النظام السائد فى إمارة المُسْلِمين عند المرابطين يعتمد على اختيار الأمير وفق فقه الشورى، وكانوا حريصين على تطبيق قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

[الشورى: ٣٨].

وكان زعماء المرابطين يتشاورون فى الوسائل التى تعين على تمكين الحق وإظهار الصواب، ونشر الصلاح بين العباد، واقتدوا بالقرآن الكريم فى توجيهه للرسول (ﷺ): ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾

[آل عمران:١٥٩].

«أى لا يصدنك ما كان منهم من خطأ رأيهم فيما بدا منهم يوم أحد عن أن تستعين برأيهم فى مواقع أخرى، فإنَّما كان قد حصل فلتة تُغفر وعثرة تُقال، وشاورهم فى أمر الحرب وأمثاله مما يجرى فيه المشاورة».

وقد دلَّت الآية على أن الشورى قد أمر بها الرسول (ﷺ) فى مهمات الأمة ومصالحها كالحرب ونحوها، وذلك فى غير أمر التشريع، لأن أمر التشريع إن كان فيه وحى فلا محيد عنه، وهى توجيه لكل ولاة الأمر بعده أن يشاوروا عن أمر الدِّين والدنيا، وما ليس فيه نصٌّ واضح، وهى تشمل هنا المشاورة فى شئون الأمة ومصالحها.

وكان مذهبهم فى الشورى مذهب المالكية وليس الخصوص، قال ابن خويز منداد: «واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما يشكل من أمور الدّين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها».

وأشار ابن العربى إلى وجوبها بأنها سبب الصواب، فقال: «والشورى مسبار العقل وسبب الصواب»، ويشير إلى أننا مأمورون بتحرى الصواب فى مصالح الأمة وما يتوقف عليه الواجب فهو واجب.

ويذهب ابن عطية أيضًا إلى الوجُوب، بل يؤكد هذا الوجوب فيقول: «الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم فعزله واجب، وهذا ما لا اختلاف فيه».

لقد كان نظام الشورى هو الأساس الذى اعتمده المرابطون فى نظام حكمهم فى بداية دولة المرابطين قبل يوسف بن تاشفين، فقد كان المرابطون يختارون بكامل الحرية رئيسهم الذى يتم تعيينه بعد عقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء يشارك فيه شيوخ المرابطين وأعيانهم، بهذه الطريقة تم اختيار عبد الله بن ياسين، الذى لم يحرص على استمرار الإمارة فى أسرته، كما أنه لم يباشر أى ضغط على المرابطين فى اختيار يحيى بن عمر ثم أبى بكر بن عمر، بل كانت وصيته الأخيرة للمرابطين قوله: «إياكم والمخالفة والتحاسد على الرياسة، فإن الله يؤتي ملكه من يشاء، ويستخلف فى أرضه من أحب من عباده، ولقد ذهبت عنكم فانظروا من تقدمونه منكم، يقوم بأمركم ويقود جيوشكم، ويغزو عدوكم، ويقسم بينكم فيئكم، ويأخذ زكاتكم وأعشاركم».

ومن هذه الوصية يتبين أن الزعيم الأول للمرابطين، لم يكن يرى طريقة الحكم الوراثي، أما يوسف بن تاشفين فقد كان يخشى أن يعود الأمر

فوضى بعده وأن تنفصم عرى هذه الوحدة، وتنتهى هذه الدعوة التـى عمـل جاهدًا على تبليغها زهاء نصف قرن، لذلك رأى يوسف أن يُعَيِّن واليًا للعهـد يستخلفه بعد موته, وهكذا حدث انحراف فى اختيار الحاكم عند المرابطين من الشورى إلى النظام الوراثى منذ أن اختار يوسف بن تاشفين ابنه عليًـا واليًـا لولاية العهد، وكان اجتهاد يوسف بن تاشفين فى هذا التعديل الخطيـر يعتمـد على رأيه أن اجتهاده ذلك يحفظ وحدة بلاده ودولته، ويقضي على التنافس من أجل الحكم ورأى مصلحة بلاده وشعبه تقتضى اختيار ابنه.

كان من الطبيعى أن يمهِّد لفكرته فى اختيار ولى العهد, ولذلك شـاور كل مَن يهمه الأمر حول هذا الاختيار، ولهذا بادر بمشاورة الفقهاء والقـضاة وزعماء القبائل وأفراد الأسرة المرابطية وكبار رجال الدولة فى سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م، وناقشهم فى المبررات التى دفعته إلى اختياره، فوافقه الجميع على ما اعتزم عليه، وعلى أثر ذلك قرئ مرسوم البيعة الذى يتضمن الأسباب التى حملته على هذا الاختيار، والشروط الواجب توافرها فيه، والمبادئ التى ينبغى أن يسير عليها، وهذا المرسوم كتبه الوزير الفقيه أبو مُحَمَّد بن عبد الغفـور، وكان من أعلام البلاغة فى ذلك العصر».

ونستخلص من نص الوثيقة التى ذكرتها فيما مضى: أن يوسـف بـن تاشفين اتبع مبدأين فى اختياره ولده أبا الحسن عليًا وليًا لعهده.

أولهما: مبدأ الاختيار:

فقد أشارت الوثيقة التى ذكرتها إلى أن يوسف قد اختار مِن بين أولاده مَن هو أصلح لقيادة تلك الدولة المترامية الأطراف: «فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحًا إلى المعالى واهتزازًا، وأكرمهـا سـجية وأنفـسها اعتزازًا، فاستنابه فيما استرعي ودعاه لما كان إليه دعا».

ثانيهما: مبدأ الشورى:

فقد أخذ يوسف به، وتمسّك بما جاء في القرآن الكريم, وما جاء على لسان نبيه (ﷺ) , وما سار عليه الخلفاء الراشدون: «ودعاه لما كان إليه دعا، بعد استشارة أهل الرأى على القرب والنأي».

كما أشار مرسوم البيعة إلى أنّها كانت مشروطة ببعض الشروط اشترطها الأمير يوسف على ابنه، وأهم تلك الشروط التمسك بالمبادئ التى دعا إليها الإمام عبد الله بن ياسين من إعلان الجهاد على أعداء الإسلام، واحترام الفقهاء والقضاة والعلماء، والعمل على إقامة العدل بين الرعية، بالإضافة إلى بعض الأمور التى تتعلق بضمان أمن الدولة من وضع سبعة عشر ألف فارس بالأندَلُس موزعة على أقطار معلومة، يكون منها بإشبيلية سبعة آلاف فارس وبقرطبة ألف فارس وباقي العدد على ثغور المُسلِمين للذّب والمرابطة في الحصون المعاينة للعدو.

وفى عام ٤٩٦هـ دخل يوسف بن تاشفين قرطبة، وجمع كبار رجال الدولة وأمراء لمتونة أشياخ البلاد، وقادة الرأى والفقهاء والعلماء والقضاة، وتلا عليهم عقد البيعة لابنه على الذى سبقت الإشارة إليه، وضمنه الأسباب التى حملته على اختياره وليًا للعهد، ثم أخذ البيعة له من جميع الحاضرين، وأقسم هؤلاء يمين الطاعة والولاء، ثم وقّعوا على عقد البيعة، وقام على أثر ذلك، فأقسم أمام الحاضرين بالتزام شروط العقد وترسم السّيَاسَة التى رسمها أبوه، ثم أشهد الكتاب ووقّع على الوثيقة.

أـ وفاة الأمير يوسف:

ثم عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب، حيث مرض مرضه الأخير الذى استمرَّ زهاء عامين وشهرين، وانتهى بوفاته عن مائة عام حافلة بالجهاد والدعوة وإعزاز دين الله، وكانت سنة وفاته ٥٠٠ هـ / ٢ سبتمبر ١١٠٦م وكان ولى العهد يقوم أثناء مرض أبيه بتصريف أمور الحكم نيابة عن أبيه،

ونجح نجاحًا كبيرًا فى إدارة دفّة الحكم لدولة المرابطين, وكانت آخر وصية من يوسف لابنه فى مستهلّ سنة ٥٠٠هـ، أن أوصى ولده وولى عهده بعده أبا الحسن عليًا بثلاث وصايا أولها: «ألا يهيج أهل جبل درن ومَن وراءه من المصامدة وأهل القبلة» والثانية: «أن يهادن بنى هود بالأندلس, وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم» والثالثة: «يقبل ممَّن أحسن من أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم».

ب- لقب أمير المسلمين:

كان زعماء المرابطين يطلقون على أنفسهم لقب الأمراء، وظل المرابطون يطلقون لقب الأمير على كل زعيم يتولى أمرهم ابتداءً من عهد أمير لمتونة أبى زكريا يحيى بن عمر اللمتوني، فتلقّب به يحيى كما تلقّب به أخوه أبو بكر بن عمر بعد وفاته، وعندما تولّى يوسف بن تاشفين زعامة المرابطين منذ ٤٦٤هـ, ظلّ يتلقب بالإمارة إلى سقوط أبى بكر ابن عمر شهيدًا فى إحدى المعارك فى سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م, وعندئذٍ أصبح يوسف الزعيم الأوحد للمرابطين، واجتمع إليه أشياخ قبيلته وعرضوا عليه أن يتلقّب بأمير المؤمنين، لإن حقّه أكبر من أن يُلقّب بالأمير فرفض ذلك قائلاً: «حاشا أن أسمى بهذا الاسم, إنما يتسمى به خلفاء بنى العبّاس لكونهم من تلك السلالة الكريمة وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم»، ولكنّهم قالوا له: إنه لابد له من اسم يمتاز به على سائر الأمراء واقترحوا عليه لقب أمير المُسلِمين وناصر الدّين، وأصبح العمل جاريًا به عند سائر المرابطين، وقد صدرت الكتب تحمل هذا اللقب بعد وفاة أبى بكر بن عمر على القول الأرجح, وهذا نص الكتاب الذى أرسله إلى الولاة والقادة والعلماء: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم تسليمًا: مِن أمير المُسلِمين وناصر الدّين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة أهل (فلانة) أدام الله كرامتهم بتقواه ووفقهم لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أمّا بعد, حمداً لله

أهل الحمد والشكر، وميسر اليسر وواهب النصر، والصلاة على مُحَمَّد المبعوث بنور الفرقان والذكر، وأنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بمراكش - حرسها الله -، وأنه لمَّا مَنّ الله علينا بالفتح الجسيم, وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة, وهدانا وهداكم إلى شريعة مُحَمَّد المصطفى نبينا الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ رأينا أن نُخصِّص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر أمراء القبائل، وهو أمير المُسْلِمِين وناصر الدِّين، فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى, والله وليُّ العدل بمنِّه وكرمه والسلام».

ويرى بعض المؤرخين من أمثال أبى زرع فى «روض القرطاس» إلى أن الأمير يوسف تلقَّب بأمير المُسْلِمِين فى يوم الزّلاقَة، ولم يكن يُدعى به من قبل، وأن ملوك وأمراء الأَنْدَلُس وكانوا ثلاثة عشر ملكًا بايعوه وسلَّموا عليه باسم أمير المُسْلِمِين وهو أول من سُمى به من ملوك المغرب.

وقد تأثَّر شعب النيجر بشكل خاص بالمرابطين, وأطلق على حُكَّامه لقب أمير المُسْلِمِين, وكانوا مالكيين فى المذهب, ويرجع ذلك إلى أن المرابطين هم الذين نشروا الإسلام فى تلك الربوع النائية.

جـ نائب الأمير:

كان اتساع مملكة المرابطين سببًا فى اتخاذ نوّاب ينوبون عن أمير المسلمين؛ حيث كان من المستحيل عليه أن يشرف وحده على تلك الدول المترامية الأطراف، فعيَّن بعض النواب المقرَّبين إليه، فعيَّن نائبًا على شئون الأَنْدَلُس ونوّابًا على إقليم المغرب، وكان يراعى فى اختيار النائب أن يكون أقرب الناس إلى أمير المُسْلِمِين، وأن يتوفر فيه حسن الإدارة والكفاية العسكرية ويعتبر ممثلاً أوليًا لأمير المُسْلِمِين, ويستمد نائب الأمير سلطته من الأمير شخصيًا، وكان ولى العهد نائبًا للأمير، وتولى نيابة الأَنْدَلُس، وكانت قرطبة هى المفضلة لإقامة ولى العهد لمكانتها السامية فى نفوس الأَنْدَلُسيين،

وأول نائب عيّنه الأمير يوسف على الأَنْدَلُس القائد سير بن أبى بكر اللمتوني، ثم بدّل به ابنه أبا الطاهر تميم بن يوسف، وتلى نيابة الأَنْدَلُس من حيث الأهمية نيابة فاس بالمغرب, وكان النائب يستقر فيها عندما كان الأمير يوسف يعود إلى مراكش كى لا تحدث ازدواجية فى السلطة.

كانت مهمة النائب بالدرجة الأولى عسكرية, إذ كان عليه أن يخوض الحروب, ويقمع الفتن وحركات التمرد, يعاونه قادة كبار من لمتونة.

وكان من سياسة يوسف بن تاشفين مع نوابه مراقبتهم, ولا يتيح لهم الاستقرار في مناصبهم لعهود طويلة حتى لا يعملوا على الاستقلال، فكان النوّاب دائمًا معرّضين للنقل من ولاية إلى أخرى.

وكان نائب أمير المُسْلِمِين يتخذ لنفسه كتّابًا يقومون عنه بالمكاتبات, أو تسند إليهم بعض الأعمال الإدارية، وممَن ظهر من كتاب نواب أمير المُسْلِمِين على بن يوسف فى الأندلس الكاتب الأديب أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبى الخصال كاتب الأمير مُحَمَّد بن الحاج، وأبو بكر بن الصائغ كاتب الأمير أبى بكر بن إبراهيم، والزبير بن عمر اللمتونى كاتب تاشفين بن علي، وكانت حياة كل نائب من نواب أمير المُسْلِمِين صورة مُصغَّرة من حياة هذا الأمير فكانوا يتخذون القصور والخدم والفقهاء والأعوان.

د – تولية الولاة:

كان الأمير يوسف يُعَيِّن الولاة على الأقاليم من لمتونة بشكل خاص وصنهاجة بشكل عام؛ فولّى أمراء قومه الأقاليم، فقبل ضم الأَنْدَلُس كان سير بن أبى بكر على مدائن مكناسة وبلاد مكلالة وبلاد فازاز، وولّى عمر بن سليمان المسوفى مدينة فاس وأحوازها، وداود ابن عائشة سجلماسة ودرعة، وتميم بن يوسف مدينة أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وتدلا وتامسنا, وبعد ضم الأَنْدَلُس عين يوسف بن تاشفين القائد سير بن أبى

بكر حاكمًا على الأَنْدَلُس، وفوَّض له تعيين والٍ على كل بلد يفتحه ويكون من لمتونة.

وكان الولاة يخضعون مباشرة لنائب الأمير، ومُنح الأمير يوسف سلطات واسعة: منها حق التصرف فى عزل وتعيين مَن دونهم مِن الولاة المحليين، ومَن يليهم مِن رجال السلطة، وكذلك القيام بتحركات عسكرية داخل مناطق نفوذهم، وكان الأمير يوسف وابنه من بعده يراقبون ولاتهم مراقبة شديدة، ويجرى تبديلهم وعزلهم إذا أساءوا، وكانوا يضعون مصالح الرعية فى المقام الأول عند تعيين الولاة.

هـ- نظام الوزارة:

كان الأمير يوسف بعيدًا كل البعد عن اتخاذ الألقاب والألفاظ والاهتمام بالمناصب، فلم يتخذ وزراء بالمعنى المتعارف عليه، ولم يمنح لقب وزير لأى شخص, إلا أنه اتخذ لنفسه أعوانًا يرجع إلى مشورتهم، وكُتَّابًا يشرفون على ديوان الرسائل أو الإنشاء، وكانت لديه هيئة استشارية تشترك فيها طائفة من الفقهاء، والأعيان والكُتَّاب يلازمونه فى قصره وتنقلاته يبدون آراءهم فى المشاكل المطروحة للبحث, وتبقى الكلمة الفاصلة للأمير، أمَّا فى الأمور المهمة فكان يجمع زعماء المرابطين وأبناء عمومته من لمتونة للتداول واتخاذ الآراء، وكان الاتصال بالأمير عن طريق الأعوان من السهولة بمكان، وساعد على ذلك ما امتاز به الأمير من زُهد فى الدنيا, وتطلع للآخرة, وحب البساطة، وميل للتواضع.

ويذهب الأمير يوسف فى مذهبه إلى أن الشورى معلمة وغير ملزمة وله فى ذلك أدلة؛ حيث ذهب بعض المفسرين إلى إن الشورى غير ملزمة مستندين فى ذلك إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ .

ذهب الإمام الطبرى إلى القول: «إذا صحَّ عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك، فامض لما أمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها، وتوكَّل فيما تأتى من أمورك على ربّك، فثق به فى كل ذلك، وارض بقضائه فى جميعه دون آراء سائر خلقه ومعونتهم».

ويرى بعض العلماء أن رأى الشورى ولو أنه غير ملزم لكنَّه ينير الطريق أمام الحاكم.

وأضاف العلامة أبو الأعلى المودودى فى قضية الشورى هل هى معلمة أو ملزمة بعدًا آخر وهو طبيعة المجتمع وما يسوده من أخلاق؛ حيث يقول: «ما وجدت حكمًا قاطعًا فى هذا الباب فى أحاديث الرسول (ﷺ), غير أن العلماء قد استنبطوا من عمل الصحابة فى عهد الخلافة الراشدة أن رئيس الدولة هو المسئول الحقيقى عن شئون الدولة، وعليه أن يُسيِّرها بمشاورة أهل الحل والعقد، ولكنّه ليس مقيدًا بأن يعمل بما يتفقون عليه كلهم أو أكثرهم من الآراء، وبكلمة أخرى أنه يتمتع بحق الاعتراض على آرائهم.

ولكن هذا الرأى فى صورته المجملة كثيرًا ما يسبب سوء الفهم بالقياس إلى أحوالهم وأوساطهم الحاضرة، ولا ينظرون إلى ذلك الزمان ولا الوسط الذى قد أخذنا هذا الرأى من أعمال الأمة فيه، فما كان أهل الحِلِّ والعقْد فى عهد الخلافة الراشدة منقسمين إلى أحزاب متفرقة, بل كانوا كلما دُعوا للمشاورة يأتون المجلس بقلوب ملؤها الإخلاص. . ثم يوازن الخليفة بين الحجج الموافقة والمعارضة ويعرض عليهم ما عنده من الدلائل، ويبين رأيه, وكان هذا الرأى فى عامة الأحوال رأيًا يسلم به أعضاء المجلس كلهم. . » ثم قال: «لم نعثر فى تاريخ الخلافة الراشدة كلِّه على مثال واحد نرى فيه أهل الحِلِّ والعقْد قد تفرقت آرائهم حتى آل الأمر إلى عدد الأصوات»، وهذا تفريق

جميل بين المجتمع الإسلامى فى حاضرنا وبين المجتمع الإسلامى القائم على أسس دولة القرآن التى تربّى المسلم على خشية الله فلا ينحرف عن الجادّة.

وربما كان يوسف بن تاشفين وأمراء المرابطين مُحقّين فى أخذهم بالرأى القائل بأن الشورى معلمة للأمير وليست ملزمة، ولهم أدلة كثيرة للتدليل على هذا المبدأ.

إلا أننى أرى الفائدة الكبرى والاستفادة العظمى فى زمننا هذا فى الأخذ بالرأى القائل بأنها ملزمة، والقائلون بهذا القول لهم أدلتهم منها:

إن الشورى ملزمة للحاكم طالما أنّها مؤيدة بالشرع والعقل، فيقول ابن تيمية: «وإذا استشارهم فإن بيَّن له بعضهم ما يجب اتباعه من كتاب أو سنة رسوله أو إجماع المُسلِمين، فعليه اتباع ذلك، ولا طاعة لأحد فى خلاف ذلك، وإن كان عظيمًا فى الدِّين والدنيا، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

ولو كانت الشورى غير ملزمة، لكان بإمكان النبى (ﷺ) أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التى تعرّضت لها فى غزوة أحد – لو أنه قضى برأيه فى خطة المعركة، مستندًا إلى رؤياه. . ولم يستشر أصحابه، أو لو أنه رجع عن الرأى عندما سنحت له فرصة الرجوع. . ولكنّه – وهو يقدر النتائج كلها – أنفذ الشورى. . ثم يجئ الأمر الإلهى له بالشورى – بعد المعركة– تثبيتًا للمبدأ فى مواجهة نتائجه المريرة »، وبهذه الأدلة التى ذكرتها نسترشد بهذا المبدأ فى مسيرتنا الحركية والدعوية والتنظيمية التى تسعى لإعادة الإسلام كنظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا، ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبًا.

و- ديوان الرسائل والمكاتبات عند المرابطين:

كان المرابطون يهتمون بديوان الإنشاء، ولذلك حرصوا على أن يتولاه رجال من أشهر الأدباء في تلك الفترة جلهم أَنْدَلُسيون، واهتم الأمير يوسف بجلب الأدباء والبلغاء والفقهاء لهذه الأعمال، واستفاد من كُتَّاب ملوك الطوائف, وتوسع ديوان الرسائل مع امتداد رقعة دولة المرابطين، وانتفع المرابطون انتفاعًا عظيمًا بخبرة الأَنْدَلُسيين أصحاب الحضارة والأدب، وأقبل المغاربة على ثقافة الأَنْدَلُس ينهلون منها في تواضع المستفيدين, وحدث تنافس بين الكُتَّاب، وحاولوا أن يثبتوا جدارتهم في هذا الفن، وأصبح ديوان الأمير يوسف متألقًا بالحضارة.

وقام ابنه على بتطوير ديوان الرسائل وجلب له كتابًا في غاية البلاغة ودقة الأسلوب, وجمال التعبير, ومما دفع الأمير عليًا إلى تطوير دولته تربيته الرفيعة وذكاؤه الوقّاد, واهتمامه بكتاب ملوك الطوائف, وتقريبهم إليه في زمانه، فشعر بحاجته إلى طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود، وتجيد فنون الكتابة، ومن أشهر أولئك الكتاب والأدباء والبلغاء، مُحَمَّد بن سليمان الكلاعى المتوفى عام ٥٠٨هـ, وصفه ابن خاقان في «القلائد» بقوله: «غرة في جبين الملك، ودرّة لا تصلح إلا لذلك السلك، باهت به الأيام, وتاهت في يمينه الأقلام، واشتملت عليه الدول اشتمال الكمام على النور، وانسربت إليه أماني انسراب الماء على الغور».

ويقول عنه ابن الصيرفي: «الوزير الكاتب الناظم الناشر، القائم بعمود الكتابة, والحامل للواء البلاغة، والسابق الذى لا يشق غباره، ولا تخمد أبدًا أنواره، اجتمع له براعة النشر، وجزالة النظم، رقيق النسيج حصيف المتن رقعته وما شيت في العين واليد».

وكذلك انضم إلى البلاط المرابطى أبو مُحَمَّد عبد المجيد بن عبدون المُتَوَفَّى ٥٢٠هـ، وأبو القاسم مُحَمَّد بن عبد الله بن الجد الفهرى المتوفى في

عام ٥١٥هـ، وابن أبى الخصال الغافقى المُتَوَفَّى ٥٤٠هـ، وأبو زكريا بن مُحَمَّد بن يوسف الأنصارى الغرناطى المُتَوَفَّى ٥٧٠هـ فى غرناطة، وأحمد بن أبى جعفر بن مُحَمَّد بن عطية القضاعى الذى نكبه عبد المؤمن بن على خليفة الموحِّدين، وغير هؤلاء كثير من الأدباء والكتَّاب الذين عملوا فى خدمة دولة المرابطين زمن أمير المُسْلِمين على بن يوسف, ولا ننسى أن الوزارة فى زمن على بن يوسف تطوَّرت تطورًا ملحوظًا, وأصبح الوزير بمنزلة السمع والبصر واللسان والقلب بالنسبة لأمير المُسْلِمين، وفى الأمثال: نعم الظهير الوزير.

كان الحكم فى دولة المرابطين قائماً على أسس عسكرية، فأمير المُسْلِمين هو قائد الجيش الأعلى، ومعاونوه هم قواد الجيش، لهذا كان من الطبيعى أن يتسم منصب الوزير بالطابع العسكرى كذلك، ولكن لما كان الأمر يتطلب من الوزير أيضًا كتابة الوثائق، والمراسيم وصياغتها فقد وُجِد فى دولة المرابطين صنفان من الوزراء.

١- وزراء عسكريون من قادة الجيش, وهم من قرابة السلطان عادة أو من قبائل لمتونة وصنهاجة التى قامت على أكتافهم دولة المرابطين.

٢- وزراء كُتَّاب وهم من الفقهاء.

وكان المغاربة يطلقون كلمة فقيه على العالم بالأحكام الشرعية إلا أن أهل المشرق أصبح ذلك المصطلح عندهم يطلق على دارس الفقه عمومًا من الطلبة.

وتوسَّع الأمير على بن يوسف فى اتخاذ الوزراء والمستشارين من الفقهاء وكبار العلماء، وكان من أخصّ وزرائه الفقيه مالك بن وهيب الإشبيلى الذى شارك فى جميع العلوم، ونظم الشعر، وكتب مؤلفات فى الفلسفة والتَّاريخ، وهذا الفقيه هو الذى أشار على سلطان المرابطين على بن يوسف بقتل مُحَمَّد

بن تومرت زعيم دولة الموحّدين فيما بعد، حيث تفرّس فيه حدة نفسه وذكاء خاطره، واتساع عبارته, فأشار على أمير المُسلِمين بقتله أو اعتقاله، قبل أن يستفحل خطره، لأنّه رجل مفسد ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه, غير أن على بن يوسف توقف فى قتله واعتقاله، وأبى ذلك عليه دينه، لعدم ثبوت التهمة عليه، وقد صحَّ ما تفرّسه مالك بن وهيب، إذ إنه على يد هذا المدعى المهدية الكذاب ابن تومرت قامت دولة الموحدين التى قضت على دولة المرابطين فى المغرب والأَنْدَلُس.

* * *

المبحث الثاني

النظام القضائى فى دولة المرابطين

تمهيد:

للقضاء مكانة عظيمة ومنزلة شريفة، وفاصل بين النّاس فى خصوماتهم

وحاسم للتداعى وقاطع للتنازع، وكان العرب فى جاهليتهم يعرفون منزلة القضاء, ويختارون له أهله, ويطلقون عليهم الحُكّام، واهتم المسلمون بهذا الأمر, ومارسه رسول الله (ﷺ) فى زمانه، وسار الخلفاء من بعده على دربه، وأصبح القضاء بعد رسول الله (ﷺ) فى عداد الوظائف الداخلة تحت الخلافة، وتطور القضاء مع تطور دولة الإسلام فكان الخليفة يتخذ قاضيًا فى حاضرة الخلافة وقضاة آخرين فى الولايات والأمصار.

كان القضاء فى الأمصار أول الأمر مُضافًا إلى الولاة حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب فجعله مستقلاً عن نظر الوالي، عيَّن له مَن يتفرَّد بالنظر فيه, ومع استقلال القضاء عن نظر الوالي، فإن تقليد القضاء فى الولايات كان يتم فى الغالب عن طريق الولاة بتفويض الخليفة لهم، أمَّا فى العاصمة فكان الخليفة هو الذى يُعيِّن القاضى إلى أن جاء الخليفة العبَّاسى أبو جعفر المنصور الذى انحرف بالقضاة نحو مركزية الدولة، وأخضع المؤسسات القضائية لرقابته المستمرَّة، وجعل تقليد القضاة على قضاء الأمصار من قبله، وتابعه على ذلك خلفاء بنى العبَّاس، إلى أن استحدث منصب قاضى القضاة فى فترة تالية، فتولَّى قاضى القضاة النظر فى مؤهلات المرشحين للقضاء ومراقبة الكفاءة المهنية للقضاة فى عاصمة الخلافة وخارجها ، واهتمَّت كلُّ الدول التابعة للخلافة بتطوير نظامها القضائى وخصوصًا المرابطين الذين حرصوا

على إقامة العدل ونشره فى ربوع بلادهم، فكان لمنصب القضاة أهمية كبيرة، ولذلك حرص أمراء المرابطين على تعيين القضاة ممَّن برزوا فى العلم والفقه وتميزوا بالمقدرة على تولى هذه المناصب فى دولتهم دون الاستناد على العصبية القبلية، حتى أصبح أكثر القضاة من غير قبيلة صنهاجة وهى سياسة حكيمة اتبعها الأمير يوسف رغبة فى تحقيق العدالة وتطبيق تعاليم الإسلام.

وقد منحهم رتبة عالية فى الدولة حتى كثرت أموالهم، واتسعت مكاسبهم، وكانوا يستمدون نفوذهم من سلطة الدولة نفسها، يحكمون وفق المذهب المالكي، ويقوم بتنفيذ أحكامهم الولاة والحُكَّام المحليون، وقد شارك القضاة فى معارك الجهاد فى الأَنْدَلُس، واستشهد بعضهم فى معركة الزَّلاقَة منهم القاضى عبد الملك المصمودى قاضى مراكش.

وكانت السُّلطَة القضائية تتمتع باستقلال كبير عن السُّلطَة التنفيذية، وكان تعيين القاضى يصدر بمرسوم عن أمير المسلمين، وكذلك عزله، وكان لأهل البلدان التابعة لدولة المرابطين حق الترشيح لمَن يرونه مناسبًا لمنصب القضاء فى بلدهم.

وإذا أراد أمير المسلمين عزل قاضٍ فى بلد معين فعليه أن يوضح الأسباب لأهل ذلك البلد.

أ- منصب قاضى الجماعة فى الأندلس:

يعتبر منصب قاضى الجماعة من أرفع المناصب القضائية فى الأَنْدَلُس، كان صاحبه يشرف على القضاء فى جميع أنحاء الأَنْدَلُس، ومن المرجح إن هذا المنصب الخطير كان لا يتولاه إلا كل مَن يثبت كفاءة عالية فى أمور القضاء، وكان قاضى الجماعة فى الأَنْدَلُس يتمتع بسلطات واسعة، ومنهم أبو القاسم أحمد بن على بن مُحَمَّد بن عبد العزيز التغلبى الذى وجَّهه الأمير يوسف بن تاشفين إلى اتباع الحق فى الأحكام دون أن يعرف فى الله

لومة لائم، فكتب له: «ولا تُبالِ برغم راغم وتشفق من ملامة لائم، فآس بين النّاس فى عدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوى فى حيفك ولا ييأس ضعيف فى عدلك، ولا يكن عندك أقوى مِن الضعيف حتى تأخذ الحق له، ولا أضعف مِن القوى حتى تأخذ الحق منه. . » .

ومن أشهر مَن تولّى منصب قضاء الجماعة فى الأنْدَلُس فى عصر علي بن يوسف أبو الوليد مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أحمد بن رشد المالكى وأبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن خلف إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج.

ب- قاضى الجماعة فى المغرب:

كانت رئاسة القضاء فى المغرب فى زمن دولة المرابطين تسند إلى قاضى الجماعة بمراكش، الذى كان يُسمى بقاضى قضاة المغرب أو بقاضى الحضرة، وكان على من يتولّى هذا المنصب أن يكون مِن المقربين إلى قلب أمير المسلمين يستفتيه فى كل ما يعرض له من شئون، ومن أشهر مَن تولّى هذا المنصب: أبو مُحَمَّد عبد الله بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي، وأبو الحسن على بن عبد الرحمن المعروف بابن أبى حقون، وأبو سعيد خلوف بن خلف الله.

لقد قطع المرابطون فى تنظيم القضاء شوطًا أبعد من مجرد تقسيم قضاء الأنْدَلُس والمغرب وجعل زعامة القضاء فى كل منهما لقاضى القضاة، أحدهما يختص بالأنْدَلُس والآخر بالمغرب، بل إن المرابطين اتخذوا فقيهًا له السُّلطَة العليا على قضاء المغرب والأنْدَلُس على السواء، ومن المرجح أن زعامة القضاء فى العدوتين كانت أحيانًا من نصيب قاضى مراكش أو قاضى سبتة أو طنجة، وأحيانًا أخرى لقاضى الجماعة بقرطبة.

جـ- مجلس الشورى القضائي:

كان للقاضي فى صحبته مجموعة من فقهاء البلد الذى تولَّى قـضاءه ليشاورهم قبل أن يصدر الأحكام، وكان قاضى المدينة يتولى اختيـار هـؤلاء الفقهاء من أهل مدينته، مِمَّن يُعرفون بالورع والتقوى والتبحر فى الفقه والعلوم الدينية، ويحدد ابن عبدون هؤلاء الفقهاء والمشاورين بأربعة: اثنين يـشتركان فى مجلس القاضي، واثنين يقعدان فى المسجد الجامع .

د- القضاء العسكري:

عرفت دولة المرابطين ما يمكن تسميته بالقضاء العـسكري، وكـان يمارسه قضاة مختصون بحل مشاكل الجند فى مواضع خاصَّة بالمعـسكرات، كما كانوا يشتركون فى القتال لحثِّ الجند وتشجيعهم على القتال، وكان هؤلاء القضاة يسمون بقضاة المحلة أو قضاة الجند، وممن ذكرهم التاريخ فيمن تولَّوا منصب القضاء العسكري: عبد الرحيم بن إسماعيل الذى عُـيِّن قاضـيًا فـى معسكر أمير المسلمين على بن يوسف بمدينة سلا.

هـ- قضاء الذميين فى دولة المرابطين:

أما بالنسبة لأهل الذِّمة فى الأَنْدَلُس، فقد كان رجال الـدين النـصارى واليهود يتولون القضاء لهم، دون أن يتدخل فيهم قضاة المسلمين، أجاز الفقهاء تقليد الذِّمى القضاء لأهل الذِّمة، وفى الأَنْدَلُس خصص المسلمون لأهل الذِّمـة قاضيًا يعرف بقاضى النصارى أو قاضى العجم، أما إذا كانت الخصومة بـين ذمي ومسلم فإن قضاة المسلمين يتولون الفصل بينهما، وفى هذا الصدد يـشير أشباخ إلى أن النصارى كانوا «يتمتعون بحرية الشعائر ويحتفظـون بـبعض القوانين القوطية ولهم أساقفتهم وقضاتهم».

و- شجون وأحزان وآلام وآمال:

إن السعى لإقامة دولة الإسلام فى أى بقعة من بقـــاع العـــالم يحتـــاج للطلائع التى تسعى لهذا الهدف العظيم وفقه الأخذ بأسباب التمكين فى جميــع الأصعدة ومختلف الميادين.

وإذا نظرنا فى النُظُم القضائية التى لابد منها فى أى دولـــة دينيـــة أو علمانية وسألنا أنفسنا ما حظ الحركات الإسلامية من هذا الفقـــه؟ ومـــا هـــى الخطط التى وضعت لإيجاد هذه النُظُم القضائية الشرعية التى لابد منهـــا فـــى أسلمة الدولة؟ وما هى الوسائل التى اتخذتها؟ وهل بدأت فى إيجاد الكوادر التى تجْمع فقه الشريعة والنُظُم المعاصرة بحيث تستطيع أن تقدم نموذجًا حيًا لقدرة الإسلام على مواكبة التطور والتقدم بْمفهومه الصحيح المنبثق من عقيدة الأمة ودينها وشريعتها لكانت الإجابة محزنة.

إن السعى لتحقيق هذه الجزئية مِن الجزئيات المطلوبة فى إقامة الدول يحتاج مِن العاملين فى هذه الميادين إلى جهد مضنٍ وسهر متواصل، وتصميم أكيد على الوصول للهدف، وسعى دءوب ممزوج بالدموع والعرق والـــدماء، وهمم لا تعرف الوهن، وعزائم تنخر فى هياكل الجاهلية ليدخل من خلال تلك الثقوب نور الإيمان وهدى القرآن لينتشر رويدًا رويدًا؛ زاحفًا علـــى الظـــلام والضلال والظلم والكفران، وإعادة دولة الإسلام فى أثوابها الزاهية، وتيجانهـــا الناصعة، وعدلها المنتظر، وآفاقها الواسعة، ووظائفها المتعـــددة مـــن إقامـــة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بـــالمعروف والنهـــى عـــن المنكـــر، ونـــصرة المستضعفين ومقارعة الظالمين، وفتح أبواب الجهاد وشراء سلعة الجنة بالمهج والأنفس والأرواح ثمنًا لها. إن أصحاب تلك الأهداف السامية والنبيلة لابد لهم من أن يتميزوا فى حياتهم عن غيرهم فإن الآمال العظيمة لا يـــصل إليهـــا إلا أصحاب النفوس الكبيرة.

وإذا كانت النفوس كبـــــارًا   تعبت من مرادها الأجسام

إن تحديات الحركة الإسلامية كثيرة جدًا فعليها أن تستعين بخالقها على تحقيق أهدافها, وعليها أن تكثر العمل وتُقلِّل مِن الجـدل، وتهـتم بالرواحـل وتترك المثبطين، وتصعد بأبنائها على كل المجالات والأصعدة وتهتم بتربيتهم وتزكيتهم وتفجير طاقاتهم وتوجيهها حتى تسُدَّ الثغرات المتعـددة، وعليهـا أن تحرص على أوقات أبنائها وتشغلهم بالنافع المفيد للأمة ولهم.

إن تحريك الشعوب الإسلامية نحو التغيير لإقامة شرع الله مقيد بسنن الله فى المجتمعات والدول والأشخاص، وسنن الله لا تجامـل ولا تـرحم ولا تتغير ولا تتبدل، فعلينا أن نفقه سنن الله لنحسن التعامل معها, ونأخذ بها فـى خطواتنا لإقامة دولة الإسلام ونشر شريعة الرَّحمن.

صفات المجاهدين فى سبيل الله:

إن الجهاد فى سبيل الله عظيم الكلفة والمشقة على النفس البشرية، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

ولذلك لم يستطع أن يقوم بالجهاد الإسلامى على أصوله الصحيحة إلا من رزقه الله صفات تجعله أهلاً للقيام بهذه العبادة الكريمة.

والأصل العظيم الذى تنبثق منه كل صفات المُجَاهِدين سواء كانوا قادة أو جنودًا، أو صفات الجيش كله هو الإيمان بالله العلى العظـيم الـذى بقوتـه تقوى صفات المُجَاهِدين، وبضعفه تضعف تلك الصفات الرفيعـة فـى القـادة والأفراد والجيش على حد سواء، ولذا قال ابن تيمية رحمـه الله: «وإذا كـان أولياء الله هم المؤمنين المتقين فبحسب إيمان العبد وتقـواه تكـون ولايتـه لله تعالى، فمن كان أكمل إيمانًا وتقوى، وكان أكمل ولاية لله، فالنَّاس متفاضـلون فى ولاية الله عز وجل بسبب تفاضلهم فى الإيمان والتقوى».

والذى يكون إيمانه أكمل يحقق عبوديته لله أكثر، فيكون وقته كله عبادة وصبرًا وعلمًا وتذكرًا وتقوى وإحسانًا وإخلاصًا واعتزازًا بدينه، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ٩-١٢].

إن زعماء المرابطين فى تاريخهم المجيد حرصوا على تربية شعبهم المُجَاهِد على صفات المُجَاهِدين سواء على مستوى الأفراد أو القادة أو الجيش أو الشعب.

أ- صفات القائد العسكرى عند المرابطين:

إذا نظرنا فى سيرة قادة المُجَاهِدين فى دولة المرابطين نجد أن خيار قادتهم تميَّزوا بصفات أهَّلتهم لقيادة الجيوش وتحقيق النصر وإلحاق الهزائم بالأعداء، ومِن أشْهر أولئك القادة الذين تميَّزوا بصفاتهم القيادية أبو بكر بن عمر، ويحيى بن عمر، ويوسف بن تاشفين, وأبو مُحَمَّد مزدلي, وسير بن أبى بكر، وأبو عبد الله مُحَمَّد بن الحاج، وداود ابن عائشة، وعبد الله بن فاطمة وغيرهم كثير.

نلاحظ أنهم تميَّزوا بأمور أهمها:

١- الإكثار من طاعة الله وإعداد النفس لتحمل المشاق:

حيث تربَّوا على حسن صلتهم بربهم الذى يمدهم بالعون بقدر ما يحققون له العبودية؛ فكان لهم حظ مِن القرآن والصيام والقيام وحسن الصلة والإنفاق فى سبيل الله، وكان لتربية عبد الله بن ياسين لهم فى رباطه أثر كبير

لازمهم على طول حياتهم، فكان فى مرحلة التكوين يُربِّى أتباعه على الذكر والتوكُّل على الله, والصبر على الأذيَّة فى سبيل الله، وكان يعلِّمهم أساليب إتعاب النفس فى ذات الله حتى تستطيع أن تتحمل المشاق فى سبيله، وكان منهجه فى ترسيخ هذه المعانى فى نفوس أتباعه القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾

[المزمل: ١-

يقول سيِّد قطب رحمه الله فى «ظلاله» فى ترسيخ هذه المعانى فى نفوس الدعاة: «إن الذى يعيش لنفسه قد يعيش مستريحًا ولكنَّه يعيش صغيرًا ويموت صغيرًا، فأمَّا الكبير الذى يحمل العبء فماله والنَّوم، وماله والراحة، وماله والفراش الدافئ، والعيش الهادئ، والمتاع المريح، ولقد عرف رسول الله (ﷺ) حقيقة الأمر وقدَّره، فقال لخديجة -رضى الله عنها- وهى تدعوه أن يطمئن وينام: «مضى عهد النوم يا خديجة» أجل مضى عهد النوم, وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق».

لقد كان قادة المرابطين فى تربيتهم الرشيدة جادين بعيدين عن الهزل واللهو واللعب, وتميز فيهم أبو بكر بن عمر, ويوسف بن تاشفين، فكان لهما السبق على أتباعهما فى كل مجال مِن المجالات التى تُعتَبر من ضرورات القائد الناجح.

٢ـ القدوة الحسنة للجنود:

حيث نجد أن قادة المرابطين يقودون المعارك بأنفسهم, فقتل عبد الله بن ياسين فى ساحات الوغي، ويحيى بن عمر كذلك, وأبو بكر بن عمر فى جهاده فى الصحراء الكبرى، كما كان يوسف بن تاشفين يقود الحرس الخاص الذى أعده لانتزاع النصر مِن الأعداء فى الساعات الحرجة، ويندفع بجواده فى ميادين الجهاد عندما يشتدُّ وطيس المعركة، وضربوا أمثلة رائعة فى إيمانهم وعملهم الصالح وشجاعتهم وكرمهم الفياض وحزمهم وإيثارهم وإقدامهم.

٣ـ حرصوا على تزكية وتطهير جنودهم والارتقاء بهم طاعة لله:

إن بُعد الجنود عن التعليم والتربية والتطهير يكون سببًا فى قسوة قلوبهم وانغماسهم فى الآثام والذنوب ومِن ثَمَّ الهزيمة.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

[آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة:٢].

يقول سيِّد قطب رحمه الله: «ويزكيهم ويطهرهم ويرفعهم وينقيهم: يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم، ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم، ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم، ويطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة, وما تبثه فى الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد

هابطة بالإنسان وبمعنى إنسانيته، ويظهرهم من دنس الحياة الجاهليـــة, ومـــا تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم».

٤ـ الخبرة بأمور الحرب والقوة فيها:

وظهر ذلك في قادة المرابطين في جهادهم من أجل توحيـــد المغـــرب الأقصى كله, والقضاء على دولة برغواطة الملحدة، وما خاضوه من حـــروب ومعارك ظهرت فيها خبرتهم الحربية, ومقدرتهم على تنفيذ أساليب الكر والفر، وظهرت خبرة القائد الأعلى يوسف بن تاشفين في معركة الزَّلاَّقَة التي أكسبت أركان الحرب خبرات عميقة؛ ساعدتهم في جهادهم من أجل ضـــم الأَنْـــدَلُس لدولتهم الفتية تحت راية الإسلام بمنهجه السني القويم، والقضاء على الخطـــر النصراني في الأَنْدَلُس.

وفي القرآن الكريم نجد إشارة لطيفة تبين صـــفات القائـــد العـــسكرية وهي: العلم والقوة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقد ظهر علمه وخبرته في اختيار جنده, ومعرفة الصالح منهم للجهاد وغير الصالح، وبرزت قوته في صموده وصبره ومـــصابرته ونجاحـــه فـــي جهاده.

قال سيِّد قطب رحمه الله: «وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيـــادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلُّها واضحة في قيادة طالوت، تبرز فيها خبرتـــه بالنفوس وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة, وعدم اكتفائه بالتجربـــة الأولـــى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه، ثم – وهذا هو الأهم – عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده

تجربة بعد تجربة، ولم يثبت معه فى النهاية إلا تلك الفئة المختارة، فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص, ووعد الله الصادق للمؤمنين».

٥ـ البعد عن طلب القيادة وابتغاء الرئاسة:

وظهر لى هذا المعنى فى شخصية الأمير المُجَاهِد الزاهد أبى بكر بن عمر، فعندما لمس من ابن عمه مقدرة على القيادة أسند الأمر إليه، ودخل متوغلاً فى الصحراء الكبرى من أجل الدعوة والجهاد حتى أكرمه الله بالشهادة، وكان أمراء المرابطين يرون الإمارة قربة وعبادة يتقربون بها إلى الله لنصر دينه وتحقيق مصالح عباده, وليست مغنمًا من جاه أو منصب أو مال.

٦ـ إسناد الأمور إلى أهلها:

وهذه الصفة ظهرت لى فى سيرة يوسف بن تاشفين فى تعيينه للولاة والقادة والفقهاء، وما كان ليمتنع عن عزل مَن قصَّر فى عمله, ويعين مَن هو أفضل منه.

٧ـ تربية الجندى على التسليم المطلق لله لا لشخص القائد:

وكان أمراء المرابطين يضربون أروع الأمثلة فى زرع هذه المعانى فى نفوس المُجَاهِدين، فهذا أمير المسلمين يرفع يديه نحو السماء مناجيًا المولى عز وجل: «اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازنا هذا إصلاحًا للمسلمين فسهّل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه».

وفى وسط معركة الزّلاقة وهو يبث الحماس فى نفوس المُجَاهِدين: «يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين, ومَن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومَن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة»، وهكذا القائد المسلم هو الذى يربى جنوده بالمواقف على تحقيق العبودية الخالصة لله.

ولهذا لما قتل عبد الله بن ياسين لم يتأثر المرابطون, وقتل يحيى بن عمر ومن بعده أبو بكر بن عمر، وما زادهم ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، وهذا يدل على حسن تربيتهم للمُجَاهِدين وتعلقهم وتسليمهم لله لا للأشخاص، أما تربية اليوم فى جيوش المسلمين شبيهة بالفرعونية حيث يربى القائد جنوده على طاعته المطلقة فى الخير والشر, كما يربيهم على الخضوع الكامل لشخصه.

ووصف الشيخ مُحَمَّد الغزالى – رحمه الله – هذه التربية فقال: «إن الذى يدرس المجتمعات الفاسدة, ويتغلغل فى بحث عللها، والذى يتتبع أعمال الأدعياء وطلاب الزعامة، ويستقصى وسائلهم الملتوية فى تسخير الجماهير للوصول إلى القمة، والذى يلحظ النهضات الكبرى وكيف يدركها الفشل فجأة لأنهم أصيبوا برجال يحبون الظهور، فلا يرحبون بالنصر إلا إذا جاء عن طريقهم وحدهم، أمَّا إذا جاء عن طريق غيرهم فهو البلاء المبين».

وقال سعد جمعة: «والفرق بين الإسلام والنُّظُم المعاصرة أن الولاء فى الإسلام هو لله وحده، بينما الولاء فى النُّظُم الأخرى المنعوتة بالتقدمية، هو للطاغية، أو الدكتاتور أو الحزب الحاكم أو الجيش العقائدى أو الإيديولوجية المتسلطة، ولذا فهو ولاء إكراه وضغط فكرى وقهر بوليسي، لا ولاء الخير والمحبة والمودة والتقوى والأخوة».

وكم نحن محتاجون إلى منهج الإسلام الصحيح فى غرس الربانية والتسليم المطلق لله لا للأشخاص.

٨ـ الحرص على قاعدة الشورى:

كان لأمير المسلمين فى دولة المرابطين ونائبه مجلسٌ حربيٌ يضم قواد الفرق العسكرية المختلفة لدراسة الخطط الحربية، وتلقى الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى, والتشاور فى أمور الجهاد والبلاد والعباد، واتصف قادة المرابطين بحرصهم على إقامة مبدأ الشورى فيما بينهم.

فكان قرار الجهاد ضد النصارى فى الأنْدَلُس بعد شورى شارك فيها الشيوخ والقادة والعلماء والفقهاء، وكان قرار ضم ممالك الطوائف بعد شورى كذلك, واشتهر الأمير يوسف بمشاورة ذوى الرأى من علماء الشريعة الإسلامية وذوى الخبرة فيما يعرض له من أمور.

٩- الحرص على تحقيق الأهداف والضبط الإدارى وقوة التأثير:

ظهرت هذه الصفات فى شخصية يوسف بن تاشفين الذى أظهر مهارة إدارية عندما فتح مدينة سجلماسة, واستطاع أن يحقق أهداف المرابطين بعد جهاد دام ربع قرن، جنى بعدها المرابطون ثمرة أتعابهم وبسطوا سيطرتهم على المغرب الأقصى، ونُشر الأمن فى ربوعه، واستطاع يوسف بحسن سيرته وعدله أن يؤثِّر بقوَّة الحق الذى التزمه على قبائل المصامدة وزناتة وغمارة وغيرها.

١٠- الشجاعة والكرم:

وظهرت هاتان الصفتان فى قادة المرابطين فى جهادهم فى الأنْدَلُس, فبعد معركة الزّلاّقة عفَّ الأمير يوسف وجنوده عن الغنائم وتركوها لملوك الطوائف، مع كونهم بذلوا مِن الدماء والنفوس فى تلك المعركة ما لا يعلمه إلا الله، فدل فعلهم ذلك على شجاعتهم وكرمهم.

١١- التصرف الحكيم السريع أمام المفاجآت:

وظهرت لى هذه الصفة عندما تدخل الحماديون مِن الحدود الشرقية، واعتدوا على دولة المرابطين من أطرافها, فجرَّد المرابطون لهم جيشًا, وردوهم إلى حدودهم, وعقدوا معاهدة أمن وسلام، وعندما أخطأ والى تلمسان المرابطى وشنَّ هجومًا على بنى حماد دون إذن مِن القيادة العليا عُزل ذلك القائد وعُيِّن مكانه مَن هو أفضل منه, وتراضوا مع بنى حمَّاد، وعندما تأكَّد

الأمير يوسف من خيانة ملوك الطوائف أسرَ بعضهم, وقتل بعضهم، وضرب الحصار على ممالكهم حتى أسقطها جميعًا، وساعده على تحقيق تلك الأهداف قادة عظام اتصفوا بصفات عظيمة انعكست على جنود المرابطين.

هذه بعض الصفات التى حرص المرابطون على غرسها فى قياداتهم وزعمائهم، فكانت خيرًا وبركة على تلك الدولة السنية الفتية.

ب ـ المنهج التربوى لجيش المرابطين:

اهتم المرابطون بتربية جنودهم تربية جهادية, اهتموا بجميع جوانبها الروحية والنفسية والفكرية والجسدية، وقد تميزت تربيتُهم الروحية بربط المُجَاهِد بالجنة والاشتياق إليها، فشهدت المعارك التى خاضوها ضد أعدائهم على حبهم للموت كحب خصومهم النصارى للحياة.

وغرس علماء المرابطين فى نفوس جنودهم عقيدة الإيمان بالقدر، فأصبح الفارس منهم ينطلق كالسهم فى صفوف الأعداء يضرب ذات اليمين وذات الشمال، لا يخشى إلا الله تعالى مؤمنًا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تدل على تعميق هذا المفهوم فى نفوس المُجَاهِدين.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٤٢]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١].

وقال (ﷺ): «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمِّه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد..» .

وكانت وسائل المرابطين فى تقوية الجانب الروحى فى جنودهم وشعبهم المقاتل تعتمد على إحياء شعيرة الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج،

وتلاوة القرآن، والذكر، وأما وسائلهم فى التربية النفسية فتعتمد علـى جهـود العلماء والفقهاء الذين يقومون بتزكيتهم وإيضاح حقيقة النفس والكون والحيـاة وغرض الإنسان وهدفه فى هذه الدنيا.

وكانوا يرون أن أهم أسباب تربية النفوس أن تستعد دائما للجهاد، وأن تتربى على خشونة العيش والطعام والشراب, وقلة النوم لتنمية فضيلة الـصبر في نفوسهم.

ج- أبرز الجوانب التربوية فى جيش المرابطين:

١- الأخوة الإسلامية:

كانت من أسباب قوة الجيش المرابطى سريان روح الأخوة بين جميع فصائل الجيش، وامتلأت قلوبهم ونفوسهم بهذا المعنى السامى الذى كان سـببًا فى تذويب النعرات الإقليمية والعرقية، وجيوشهم تتكون من الزنـوج، ومـن قبائل صنهاجة المتفرّقة, ومن العرب, ومن مسلمي الإسبان، وكل هذه الفصائل المتعددة والمتنوعة كوّنت أمّة واحدة.

قـال تعـالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات:١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران:١٠٣].

لقد تحلى جيش المرابطين بهذه الصفة الربانية العظيمة فقوّت رابطـة المُجَاهِدين, وجعلتهم صفًّا واحدًا كالبنيان المرصوص فى مواجهة الأعداء.

٢- التواصى بالحق والتواصى بالصبر:

فعندما أصيب عبد الله بن ياسين بجراح بالغة, وحُمِل على إثرها إلـى معسكره؛ جمع رؤساء وشيوخ المرابطين وحثّهم على الثبـات فـى القتـال،

وحذَّرهم من عواقب التفرقة والتحاسد فى طلب الرئاسة وما لبث أن فارق الحياة.

وهكذا جند الله المجاهدون لا يتباطأون فى مناصحة بعضهم بعضًا، لعلمهم أن فى هذا التباطؤ هلاكهم جميعًا الذى وصفه لهم الرسول (ﷺ) فى حديث النعمان بن بشير -رضى الله عنهما- فقال: «مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة, فأصاب بعضهم أعلاها, وبعضهم أسفلها, فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء مرُّوا على مَن فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا, ولم نؤذ مَن فوقنا, فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا, وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا».

إن مفهوم الجندية الإسلامية يترعرع فى بيئات التناصح والتواصى بالحق والتواصى بالصبر.

٣- إصلاح ذات البين:

حرص المرابطون على نبذ الشقاق والقضاء على الخلاف وعلى رأب الصدع وإصلاح ذات البين؛ لعلمهم أن فساد ذات البين يقضى على جند الجهاد أكثر مما يقضى عليهم عدوهم الخارجى مهما قويت شوكته وكثر جنده، فاتخذوا أسلوب الحكمة واللين والرفق من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود، وإذا خرجت فئة تستمرئ الشقاق أو تعمل على إيجاده؛ جرَّدوا لها الجيوش وأخضعوها بالقوة، وهذا ما قام به الأمير أبو بكر بن عمر عندما تمرَّدت بعض قبائل الصحراء على مبادئ المرابطين, واشتبكوا مع بعض القبائل الأخرى فى قتال؛ فخرج إليهم بجيشه الكثيف, وأصلح ذات البين مستعملاً فى ذلك القوة، ومن أجل الضرورة وإصلاح ذات البين أذن النبى (ﷺ) لمن أراد أن يستعمل الكذب الذى لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالاً, لا سيما إذا كان من باب التورية والتعريض، كما فى حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «ليس الكذب الذى يصلح بين النَّاس فينمى خيرًا أو يقول

خيرًا»(وجعل النبى (ﷺ) إصلاح ذات البين أفضل مِن الصلاة والصيام والصدقة, وحذَّر النبى (ﷺ) من فساد ذات البين، قال رسول الله (ﷺ): «ألا أخبركم بأفضل درجة مِن الصيام والصلاة والصدقة؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة»

٤.نصر الحق والثبات عليه:

لما أرسل فقهاءُ سجلماسة ودرعة إلى الفقيه ابن ياسين, يرغبون فى الوصول إليهم ليخلص بلادهم مما تعانيه مِن الحُكَّام الطغاة الظلمة زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن وانودين، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه, وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة؛ فأشاروا عليه بمَد يد المعونة لهم، وقالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر بنا على بركة الله تعالى».

ولما طلب ملوك الطائف العون مِن المرابطين لنصرتهم على النصارى لبوا نداء الحق، لقد كان جيش المرابطين حريصًا على نصرة الحق وإحقاقه والقتال عليه.

لقد حرص المرابطون على أن يشملهم قول رسول الله (ﷺ): «لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك»، وقوله (ﷺ): «مَن يُرِدِ الله به خيرًا يفقهه فى الدين, ولا تزال عصابة مِن المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة».

إن صفة نصر الحق والثبات عليه والقتالَ عليه ليست دعوة تقال، أو شعاراً يرفع على مستوى الجماعات أو الدول أو الطوائف, وإنَّما حقيقة لها دلالتها الواقعية فى حياة النَّاس، وأى جماعة أو دولة تفقد صفة الفقه فى الدين ونصر الحق أو إحداهما فليست أهلاً لأن تكون هى الطائفة المنصورة.

وأى خلل يقع فى أى جماعة؛ فلابد أن يكون مصدره فقد إحدى الصفتين أو فقدهما معًا أو ضعف فى إحداهما أو فيهما معًا.

إن دولة المرابطين فى جيلها الريادى حققت صفة الفقه فى الدين متمثلاً فى فقهائها العظام، فاستحقّت أن تكون مِن الطائفة المنصورة التى حالفها نصر الله وتوفيقه. وعندما ضعفت تلك الصفات آل أمرها إلى طائفة مغلوبة، بل زالت مِن الوجود.

د ـ عناصر جيوش المرابطين:

١ – **الملثمون أو المرابطون:** كانوا هم النواة الأولى التى تكوّن منها الجيش المرابطي، وقد قامت الدولة على أكتافهم, وقد اشتهر هؤلاء الملثمون بقوة بأسهم فى الحرب، وكانوا أثبت مِن الجبال الرواسى فى المعارك، ومهما تفوّق عليهم عدوُّهم فى العدد فلا يتقهقرون، ولقد حققوا انتصارت رائعة فى معاركهم فى المغرب الأقصى أو فى معارك الجهاد فى الأَنْدَلُس.

٢ – **العرب:** وشكّلوا فرقة أصبحت مِن أهم فرق الجيش المرابطى وشاركوا فى معارك الأَنْدَلُس، وتنتمى بعض العناصر العربية إلى عرب الأَنْدَلُس الذين استقرُّوا فى المغرب فى عصر الأدارسة، ويرجع البعض الآخر إلى قبائل بنى هلال التى انخرطت فى سلك جيش المرابطين، وشاركوا فى معارك الجهاد، ومن أشهر تلك المعارك معركة كنسويجرة.. يقول ابن الكردبوس: «فجر ابن تاشفين عسكرًا جرارًا من مرابطين وعرب وأَنْدَلُس الشرق والغرب، وقدم عليهم قائده مُحَمَّد بن الحاج، فالتقوا بكنثرة فكانت بينهم جولات وحملات إلى أن زلزل الله أقدام المشركين, وولوا مدبرين...».

كما شاركوا فى معركة إقليش، فيقول ابن القطان: «واستشهد فى هذه الوقيعة – أى إقليش – الإمام الجزولي، وكان رجل صدق, وجماعة مِن الأعيان والعربان.. ».

٣- الحرس الخاص: كانت قوى الحرس الخاص تتألف من أشجع الجند من مختلف الولايات، ويشترط في قبولهم أن يكونوا من ذوى القوام الحسن والشجاعة الفائقة والقوة والبراعة، يقول أشباخ: «جمع يوسف بن تاشفين من تجار الرقيق من أقليم غانا، عددًا كبيرًا مِن العبيد واختار منهم أمهرهم وزودهم بالسلاح والخيل, ودربهم على جميع فنون القتال، وأنشأ من حرسه الخاص الأسود مِن ألفي رجل، وأنشأ على هذا النمط حرسًا خاصًا من الأنْدَلُسيين يتألف من فتيان مِن النصارى المعاهدين، وكان يوسف يحبسوهم بعطفه وصلاته، وينعم على مَن امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة بمختلف الهبات مِن الخيل والثياب والسلاح والعبيد».

وبين الدكتور سعدون عبَّاس نصر الله أن النصارى في جيش المرابطين اعتنقوا الإسلام، وأصبح الحرس الخاص ركنًا أساسيًا من أركان الجيش المرابطي، لا سيما أن على بن يوسف ضمَّ إليه الكثير من أسرى الحروب, وشارك هذا الحرس الخاص في حراسة معاقل المغرب، بل حتى في حروب الدولة ضد المُوَحِّدِين.

٤- الحشم: كانت فرق الحشم من أهم فرق الجيش المرابطي, وكانت تتكون من زناتة والمصامدة، وكانت هذه الفرق تتقدم عادة الجيوش المرابطية في القتال.

هـ- فنون القتال:

لما تولَّى الأمير يوسف مقاليد حكم المرابطين عمد إلى إصلاح نظام تسليح الجيش وطريقة إعداده للقتال، ففي البدء كانت أسلحتهم يدوية ويعتمدون على الإبل, وهذه الأسلحة تصلح لحرب الصحراء، أمَّا حرب المدن والحصون فإنها تتطلب وسائل وأسلحة تتلاءم مع الوضع الجديد الناشيء عن حرب الحصار؛ ولهذا ابتكر الأمير يوسف الخطة العسكرية المعروفة بالتقري،

وخطة التقرى تعتمد على توجيه الجيوش إلى بلاد معينة للقتال مع جيوشها فى معارك فاصلة لا لحصار المدن.

وسلّح الجيش بكل أنواع الأسلحة المعروفة من مغربية وأندلُسية ونصرانية, وكان سلاح كل فرقة مِن الجيش يتناسب مع تركيبها ووضعها القتالي: فمشاة الصف الأول يتسلحون بالقنا الطوال وبدروق اللمط.

وكان للأمير يوسف الفضل فى تنظيم جيش المرابطين, ومعرفة الرجال ومواهبهم الفذة الذين أعادوا إلى الأذهان تاريخ الفتوحات الأولى لأمة الإسلام، لقد كانت حركة المرابطين مقنعة للعالم فى زمانها بأن الإسلام قادر فى كل زمان ومكان على إنجاب القادة الأفذاذ أمثال سير بن أبى بكر، وداود ابن عائشة، وابن فاطمة, وابن ميمون ومزدلى وغيرهم، وعلى رأس الجميع القائد الربانى الذى أنقذ الله به الإسلام فى الأندلس والمغرب يوسف بن تاشفين.

كان الأمير يوسف أثناء المعارك يرتب جيشه وفق نظام خماسي؛ المقدمة: ويحتلها الجنود المشاة ووحدة الفرسان الخفيفة، والجناحان الميمنة والميسرة: وفيهما حملة القسى والنبال وأكثرهم من أهل الثغور، والقلب يتمركز فيه الفرسان المرابطون المزودون بالأسلحة الثقيلة والخفيفة، والمؤخرة ويقودها الأمير بنفسه وتتألف من صفوة الجنود والحرس، وكان لكل قسم من هذه الأقسام قائده الخاص، ويجتمع قادة الوحدات قبيل المعركة على شكل مجلس حربى لتلقى الأوامر والتعليمات مِن القائد الأعلى يوسف.

وتطوّرَت فنون القتال عند المرابطين وأهدى ابن الصيرفى إلى الأمير تاشفين بن على قصيدة احتوت على فنون الحرب والقتال فقال:

أهديكَ من أدب السياسة ما به

كانت ملوك الفرس قبلك تولع

لأنت أدرى بها ولكنها

ذكرى تحض المؤمنين وتنفع

خندق عليك إذا ضربت محلة

سيان تتبع ظاهرًا أو تتبع

حارب من يخشى عقابك بالذي

يخشى وهو فى جود كفك يطمع

قبل التهارش عبئ جيشك مفسحـــ

ـــًا حيث التمكن والمجال الأوسع

إياك تعبئة الجيوش مضيقًا

والخيل تفحص بالرجال وتمزع

حصن حواشيها ولكن فى قابها

واجعل أمامك منهم من يشجع

واحذر كمين الروم عند لقائها

وأمض كمينك خلفها إذا تدفع

لا تبقين خلفك عندما

تلقى العدو فشرُّه متوقع

واصدمه أول وهلة لا ترتدع

بدءًا تقدم فالنكوص يضعضع

ونستطيع أن نستخرج بعض فنون الحرب التى أوصى بها الشاعر فى قصيدته للأمير تاشفين بن علي:

١- ضرورة حفر الخنادق حول المدن لحمايتها من أى خطر خارجي.

٢- ضرورة تعبئة الجيوش وتنظيمها قبل المعركة بوقت كاف لكي تدخل هذه الجيوش إلى المعركة، وهى على أهبة الاستعداد، وحتى لا يأخذها العدو على غرة.

٣- ضرورة وضع أقوى الفرق العسكرية فى جناحى الجيش، وفى المقدمة، بينما يقود القائد العام للجيش المعركة من قلب جنده.

٤- ضرورة نصب الكمائن خلف خطوط العدو.

٥- عدم القتال وظهورهم إلى الماء، لأن فى ذلك هلكة لجيوشهم.

٦- ضرورة إحداث عنصر المفاجأة في بداية المعركة، عن طريق الصدام مع العدو، مع ضرورة التقدم وعدم التقهقر.

هذه بعض الفنون العسكرية التى طبقت فى دولة المرابطين.

وكان المرابطون فى بداية أمرهم قليلى الخبرة بفن الحصار لاعتمادهم على قوات الفرسان المستعدة دائمًا للهجوم، إلا أنهم بعد فترات من جهادهم استطاعوا أن يتقنوا فنَّ الحصار، وتجلى ذلك بوضوح خلال حصارهم لقلعة شنتيرين الحصينة، وتمكُنهم مِن التغلب عليها، كما ظهرت براعتهم فى هذا الفن أثناء الحصار الذى فرضته الجيوش الإسلامية على مدينة غرناطة, لحمايتها مِن الفونسو المحارب خلال غزوته الكبرى للأَنْدَلُس، التى كان يهدف من ورائها تلبية دعوى النصارى المعاهدين فى مدينة غرناطة إلى نصرتهم.

وضرب المرابطون الحصار، وكان موفقًا وحقق نتائجه المطلوبة.

وكما أتقنوا فنَّ ضرب الحصار، فقد تفوّقوا أيضًا فى فنِّ التخلص مِن الحصار، كما حدث فى تخلصهم مِن الحصار الذى ضربه الموحدون على

مراكش عام ٥٢٤هـ، ودام ما يقرب من أربعين يومًا، ثم تمكَّنوا وأوقعوا بالمُوَحِّدين هزيمة منكرة عند البحيرة.

واهتم المرابطون بجميع الأسلحة المعروفة في زمانهم من نشاب وسهام ورماح وسيوف ودروع ورعادات ومزاريق ودرق لمطية والأطاس.

و- الأسطول:

ومع توسُّع المرابطين في المغرب الأقصى واستيلائهم على معظم مدنها ولم تبق إلا طنجة وسبتة، شعر الأمير يوسف بأهمية الأسطول البحرى لما وصلت دولته إلى شواطئ البحر الأبيض، وبعد القضاء على دولة برغواطة صاحبة الأسطول البحرى بدأ يوسف يهتم بتطوير أسطوله، واستفاد من خبرات أهل الأَنْدَلُس في ذلك، وأصبح أسطول المرابطين يتقدم نحو الهيمنة على البحر المتوسط، وأثمرت جهود يوسف في الاهتمام بالأسطول في زمن ابنه علي.

وأصبح أسطول المرابطين بفضل الله تعالى، ثم قادته الكبار -وعلى رأسهم أبوعبد الله بن ميمون- قوة ضاربة هددت النصارى في جنوب البحر المتوسط، ونفَّس الله به كربات مسلمي الشمال الإفريقي، وحقق أسطول المرابطين انتصارات تجاوزت كل تقدير وحسبان.

ز- استيلاء المرابطين على جزر البليار:

كانت جزيرة البليار خاضعة لمُجَاهِد العامرى صاحب دانية، الذى استقل بملكها سنة ٤٠٥هـ، وولى عليها بعض الولاة، ولما قتل مُجَاهِد في سنة ٤٣٦هـ تولَّى ابنه على الذى وقع في أسر بنى هود عام ٤٦٨هـ ومات في سرقسطة سجينًا عام ٤٧٤هـ، وكانت جزيرة ميورقة تابعة لجزر البليار وكان بها مبشر بن سليمان الذى أعلن استقلاله بميورقة، وأما مدينة دانية فضمها المقتدر بن هود إلى سرقسطة، ولما ضم المرابطون ممالك الطوائف

تركوا مبشر بن سليمان صاحب الليار حرًا تقديرًا لجهوده التى بذلها لصدّ النصارى، وما اشتهر به من غيرة على مصالح المسلمين، وقدرته الفذة فى حماية ملكه من غارات النصارى المتتابعة فضلاً عن كونه أقرّ العدل، وأرضى الرعية، وهكذا أصبح مبشر يحكم الجزائر الشرقية فى عهد يوسف بن تاشفين، وفى السنوات الأولى من حكم على بن يوسف إلى عام ٥٠٨هـ.

وعندما تحالف النصارى من أمراء فرنسا والبرتغال وإسبانيا وقرروا القضاء على جزر مبشر بن سليمان خرجوا له فى خمسمائة سفينة، وضربوا على جزيرة ميورقة حصارًا عنيفًا، وراسل مبشر أمير المسلمين على بن يوسف لنجدته ونصرة المسلمين، وتُوفى مبشر بن سليمان أثناء الحصار وقام بعده قريبه الربيع بن سليمان بن ليون، وسقطت ميورقة عام ٥٠٨هـ، وقتل النصارى من المسلمين، وسبوا نساء المسلمين، وعاثوا فى الأرض فسادًا ونهبًا وتخريبًا.

وعندما اقترب أسطول المرابطين بقيادة القائد البحرى ابن «تافرطاست» وجد النصارى قد رحلوا وتركوها كأن لم تكن بالأمس، وفى الحال شرع ابن «تافرطاست» فى تعمير الجزيرة، وأعاد إليها الفارين من سكانها، وكان قد لجأ منهم إلى الجبال جموع غفيرة، وبذلك أصبحت تلك الجزر تابعة لدولة المرابطين الفتية.

وكان لأسطول المرابطين الفضل بعد الله فى التصدّى لأطماع النورمنديين فى مدن الشمال الإفريقي، وكان لأسطول المرابطين جهاد مشكور فى سواحل أوروبا الجنوبية؛ مما عزّز من هيبة المسلمين فى نفوس النصارى الحاقدين، فأغار على سواحل جليقية وقطلونية وإيطاليا والإمبراطورية البيزنطية.

ومن أشهر قادة الأسطول المرابطي أبو عبد الله بن ميمون, وتــوارث أبناؤه من بعده قيادة أساطيل المرابطين, ولعبت أسرة بنى ميمون دورًا رياديًا فى حماية ثغور المسلمين, والذّود عن حوزتهم وأعراضهم وأموالهم وعقيدتهم.

ح – موانئ أسطول المرابطين:

كان المرية من أكبر موانئ الأسطول المرابطي فى الأَنْدَلُس، وكان بها قسم كبير من أسطول المرابطين بقيادة أمير البحر أبى عبــد الله مُحَمَّــد بــن ميمون، وكان بالمرية دار صناعة للسفن، ثم تأتى بعد المرية مدينة دانية التى تعتبر مقر قيادة الأسطول المرابطي فى الأَنْدَلُس.

وكان موانئ أسطول المرابطين تنتشر على شواطئ سواحل المغــرب والأَنْدَلُس، ومن أشهرها طنجة، وبجاية وإشبيلية والجزيرة الخضراء، وجــزر البليار.

إن الشمال الإفريقى لا عزّة لشعوبه ولا كرامة إلا بالتمــسّك بــالمنهج الرباني، وتربية شعوبه على الانقياد لمنهجه الرشيد، ويحتــاج ذلــك لعلمــاء ربانيين وقادة سياسيين يعرفون قيمة دينهم، ويؤمنون بمنهج ربهم، ويستعدُّون لجهاد عدوهم, ويهتمون بإحياء روح الجهاد، ويغرسون معانى الــشهادة فــى شعوبهم حتى تتدفق دماء الإسلام من جديد فى شرايينهم، ليعملوا على إرجــاع الأَنْدَلُس المفقود, ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبًا.

* * *

المبحث الثالث

النظام المالى فى عصر المرابطين

حرص المرابطون فى دولتهم على إسقاط الضرائب غير المشروعة عن كاهل شعوبهم التى فرضها الزناتيون فى المغرب وملوك الطوائف فى الأندلس، وكذلك المكوس والرسوم والضرائب في جبل طارق، ولم يفرض المرابطون فى دولتهم رسم مكس أو معونة خراج لا فى حاضرة ولا فى بادية، واتبعوا نظامًا ماليًا يقوم على قواعد الإسلام، وكان هذا النظام ظاهر المعالم فى زمن الأمير يوسف بن تاشفين الذى التزم بالكتاب والسنة في جمع الأموال وتوزيعها، فاعتمد على الزكاة والعشر والجزية وأخماس الغنائم، وجبي بذلك مِن الأموال على الوجه الشرعى ما لم يجبه أحد، وترك فى خزائنه مبلغ ثلاثة عشر ألف ربع مِن الورق، وخمسًا وأربعين ألفًا من دنانير الذهب. وأمَّا فى عصر على بن يوسف فاختلف الأمر; وفرض الضرائب على بعض السلع، وفرض ضريبة جديدة على مدن الأندلس الهامة، وكان يُخصِّص دخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم الأسوار القديمة، وكان سبب فرض هذه الضريبة دخول ألفونسو المحارب للأندلس غازيًا عام ٥١٩هـ؛ فاضطرَّ لتحصين المدن وترميم الأسوار وتقوية الجيوش؛ ففرض ضرائب تساعده فى تسديد هذه النفقات التى لا غنى عنها.

العملة:

كانت العملة الرئيسية لدولة المرابطين هى الدينار الذهبى الذى كان عماد الاقتصاد فى الدولة, وظلّت هذه العملة المرابطية الذهبية مستخدمة لعدة قرون، حتى بعد سقوط الدولة المرابطية، كما استخدمت العملة الفضية المعروفة بالدرهم الفضي، لتسهيل المعاملات التجارية.

وانتشرت دور سك العملة فى مختلف أجزاء الدولة فى المغرب أو فى الأندلس مثل أغمات, تلمسان، سجلماسة، فاس، مـراكش، سـبتة، مكناسـة، طنجة، شاطبة، إشبيلية، دانية، غرناطة، قرطبة، مالقة، مرسـية، سرقـسطة، وغيرها.

الفصل الرابع

أهم أعمال دولة المرابطين الحضارية

المبحث الأول

الآثار المعمارية فى المغرب والأندلس

إن دولة المرابطين تركت آثارًا معمارية بارزة ظلَّت باقية على مــرِّ الدهور وكرِّ العصور؛ لترشد الأجيال المتعاقبة على سموِّ حضارة المــرابطين المعمارية، ومن أعظم هذه الآثار على الإطلاق:

١ـ جامع القرويين:

من أهم المساجد الجامعة فى بلاد المغرب وأكثرها شهرة لكونه جامعة إسلامية عريقة ضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ، وكانــت هــذه الجامعــة تقارع الأزهر الشريف فى العلم وتخريج الدعاة والعلماء والفقهاء.

ولقد مرَّ جامع القرويين بثلاثة أدوار:

الأول عند تأسيسه سنة ٢٥٤هـ/٨٥٩م.

والثانى عند الزيادة فيه سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦هـ.

والثالث عندما زيدت مساحته فى عصر على بن يوسف سنة ٥٣٠/١١٣٥م.

وتولَّى مشروع زيادة مسجد القرويين وتوسيعه القاضى أبو عبــد الله مُحَمَّد بن داود بسبب ضيق المسجد بالنَّاس, واضطرارهم للصلاة فى الشوارع والأسواق فى يوم الجمعة، وحرص على أن يكون المال من أوقـــاف مــساجد المسلمين، وأشرف القاضى أبو عبد الله بنفسه على هذا المشروع الحــضارى العظيم وكان تمام التوسعة عام ٥٣٨هـ.

ولقد تخرَّجتْ فى جامع القرويين على مرِّ العصور وكرِّ الدهور أفواج عديدة من فقهاء الأمة وعلماء الملة ودعاة الشريعة والمُجَاهِدين الأبرار والقادة العظام، وكان لمسجد القرويين عند المرابطين مكانة عظيمة فى نفوسهم.

وتذكرُ كتب التاريخ أن منبر جامع القرويين من أجمل منابر الإسلام، وتدل على روعة المغاربة فى اختياراتهم الذوقية الرفيعة.

٢ـ المسجد الجامع بتلمسان:

وكان مقرًا لنشر علوم الإسلام وتربية المسلمين على معانى القرآن، وتم بناء هذا المسجد عام ٥٣٠هـ فى إمارة على بن يوسف، وكانت هندسته المعمارية فى غاية الجمال ودقة الإتقان، ورأى بعض المؤرخين إن البنيةَ المعمارية لمسجد تلمسان فيها لمسات أَنْدَلُسية, وفنون معمارية قرطبية، بل بعضهم يرى أن عرفاء مسجد تلمسان قلّدوا جامع قرطبة تقليدًا مباشرًا فى لوحتى الرخام اللتين تكسوان إزار واجهة المحرابْ بتلمسان، وكذلك سقف المسجد الخشبى شبيه بسطح مسجد قرطبة، وكذلك البلاط شبيةٌ به أيضًا.

والذى يظهر أن دولة المرابطين انصهرتْ فى بوتقتها حضارة المغاربة والأَنْدَلُسيين والأفارقة، فتجد تلك المعالم الحضارية المختلفة فى كافة بقاع دولة المرابطين، ولا ينكر تأثير المعالم الحضارية المعمارية الأَنْدَلُسية فى جميع مدن الدولة.

٣ـ الآثار الحربية:

اهتم المرابطون بالحصون والقلاع؛ ولذلك انتشرت فى المدن والثغور.

وزاد الاهتمام بالتحصينات العسكرية فى زمن على بن يوسف, الذى أكثر من الأسوار والقلاع والحصون للدفاع عن دولته فى المغرب ضد الحركات السياسية والثورات العدائية المناهضة لدولة المرابطين، وواصل الأمير على اهتمامه بهذا الأمر كذلك فى الأَنْدَلُس.

ومن أروع آثار المرابطين الحضارية الحربية أسوار مراكش حيث بدأ الأمير على بن يوسف فى بناء سور المدينة عام ٥٢٠هـ وكمّل بناء السور عام ٥٢٢هـ.

وانتشرت فكرة بناء الأسوار فى الأَنْدَلُس، وفرضت الدولة على رعاياها ضريبة تنفق على هذا الهدف الاستراتيجى الجهادى الدفاعي.

ومِن أشهر الأسوار التى بنيت أو أعيد ترميمها فى الأَنْدَلُس، أسوار المرية وأسوار قرطبة التى امتازت بأبراجها المستطيلة الضخمة المتقاربة، وأسوار إشبيلية من جهة نهر الوادىْ الكبير، وبنى المُرَابطون فى المناطق الوعرة حصونًا بالحجر، وشحنوها بالجنود والأقوات؛ لكى تصمد للحصار مدة طويلة.

وكان عدد جنود الحصون والقلاع ما يعادل ٢٠٠ فارس و ٥٠٠ راكب في

كل حصن.

ومن أشهر قلاع المرابطين فى الأَنْدَلُس قلعة منتقوط التى تقع على بساتين مرسية، ومِن أشهر قلاع المرابطين فى المغرب قلعة تاسغيموت التى تقع على بعد ثلاثة كيلو مترات جنوب شرق مراكش، وعلى بعد نحو عشرة كيلو مترات شرق أغمات على سطح هضبة أطرافها ذات أجراف وعرة شديدة الانحراف، يصعب على الغازين ارتقاؤها، وأسوارها تمتد على حافة الهضبة نفسها.

إن قلاع المرابطين وحصونهم تدل على أن فنّ العمارة فى زمانهم تأثر بالغ التأثر بفنّ العمارة الأَنْدَلُسي.

* * *

المبحث الثاني

الحياة الأدبية والعلمية فى دولة المرابطين

الحركة الأدبية:

ازدهرت الحركة الأدبية فى دولة المرابطين فى عهد الأمير على بن يوسف الذى اهتم بالشعر والأدب، وشجَّع الشعراء والأدباء؛ فتوافدوا على بلاطه من أهل الأَنْدَلُس، ومِن الذين مدحوا الأمير على بن يوسف الشاعر الكبير أبو العبَّاس أحمد بن عبد الله القيسى المعروف بالأعمى التطيلى حيث قال:

يا على العلاء فى كل يوم

وما أنت للملك بالسائس

يا ربيع البلاد يا غيمة العالم

من بين مؤتل وموال

يا قريع الأيام عن كل مسجد

يا سليل الأذواء والأقيال

لك من تاشفين أو من أبي

يعقوب ذكر مكارم وفعال

وكان الشعراء يقصدون ولى عهد الدولة فى زمن الأمير على بن يوسف لمدح ابنه تاشفين، ومن أشهرهم الشاعر أبو بكر يحيى بن مُحَمَّد بن يوسف، كما حظى الشعراء فى عصر على بن يوسف بمكانة عظيمة لدى الأسرة الحاكمة وكبار القادة وعمال الدولة على الأقاليم المختلفة.

وكان الأمير عبد الله بن مزدلى موضع اهتمام الشعراء منهم ابن عطية الذى قال فيه:

ضاعت بنور إيابك الأيام

واعتز تحت لوائك الإسلام

ومن قبل مدح الشعراء والده الذى قال فيه أبو عامر بن أرقم:

أنت الأمير الذى للمجد همته

وللمسالك يحميها وللدول

لمزدلى لواء كان يرفعه

مناسب كالضحا والشمس فى الحمل

يا أيها الملك المرهب صولته

وارتجى غوثه فى الحادث الجلل

ووصل المديح إلى الفقهاء والعلماء لمكانتهم العالية فى دولة المرابطين، فهذا الأعمى التطيلى يمدح القاضى الفقيه ابن أحمد قاضى الجماعة بقوله:

إليك ابن حمدين وإن بَعُد المدى

وأن غربت بى عنك إحدى المغارب

صبابة ود لم يكدر جمامه

مرور الليالى وازدحام الشوائب

وذكر عساها أن تكون مهزة

ترى على أعقابه كل شاغب

بأيه ما كان الهوى متقاربًا

وخطوى فيه ليس بالمتقارب

ولا ننسى أن أعداء المرابطين مِن الشعراء قاموا بالتندر بالمرابطين، وبفقهاء دولتهم، وممن اشتهر بالهجاء والتندر في هذا العصر الشاعر أبو بكر يحيى بن سهل اليكي، الذى هجا المرابطين, ومن ذلك قوله:

فى كل من ربط اللثام دناءة

ولو أنه يعلو على كيوان

ما الفخر عندهم سوى أن ينقلوا

من بطن زانية لظهر حصان

المنتمون لحمير لكنهم

وضعوا القرون مواضع التيجان

لا تطلبن مرابطا ذا عفة

واطلب شعاع النار فى الغدران

وازدهر فى عصر المرابطين لون آخر مِن ألوان الشعر أعني الطبيعة، فقد شهد هذا العصر ظهور عدد كبير مِن الشعراء الذين نبغوا فى هذا الفن الشعري، نذكر منهم ابن سارة الشنتريني، وابن الزقاق، وابن خفاجة البلنسي، وعبد الحق بن عطية، ومن ذلك قول الشنترينى الشاعر يصف البركة:

لله مسجورة فى شكل ناظرة

من الأزهر أهداب لها وطف

فيها سلاحف ألهانى تقصمها

فى مائها ولها من عرمض لخف

تنافر الشط إلا حين يحضرها

برد الشتاء فتستدلى وتنصرف

كأنّها حين يُبديها تصرفها

جيش النصارى على أكتافها الجحف

وهذا أبو الحسن على بن عطية بن الزقاق يصف فرسًا أغر:

وأغر مصقول الأديم تخاله

برقًا إذا جمع العتاق رهان

يطأ الثرى متبخترًا فكأنّه

من لحظ مَن فى متنه نشوان

فكأن بدر التم فوق سراته

حسنًا وبين جفونه كيوان

وهذا أبو جعفر بن سلام المعافرى يصف فى شعره الثلج:

ولم أر مثل الثلج فى حسن منظر

تقرُّ به عين وتشنعه نفس

فنار بلا نور يضيء له سنا

وقطر بلا ماء يقلبه اللمس

ترى الأرض منه فى مثال زجاجة

كأن كئوس الماء يجمعه كأس

وهذا شاعر آخر يصف لنا قوسًا:

يا رب مائسة الأعطاف مخطفه

إذا دنا نزعها فالعيش منتزح

ظلّت ترنُّ فظلَّ النزع يعطفها

كما ترنم نشوان به قزح

وقد تألّف نصل السهم مندفعًا

عنها فقل كوكب يرمى به قزح

وهذا ابن خفاجة يصف الربيع وهو مِمَّن عاصر الأمير على بن يوسف:

أذن الغمام بديمة وعقار

فأمزج لجينا منهما بنضار

وأربع على حكم الربيع بأجرع

هزج الندامى مصفح الأطيار

وكمامة حدر الصباح قناعها

عن صفحة تندى مِن الأزهار

فى أبطح رضعت ثغور أقاحه

أخلاف كلِّ غمامة مدرار

نثرت بحجر الروض فيه يد الصبا

دور الندى ودارهم النوار

وقد ارتدى غصن النقى وتقلّدت

حلى الحباب سوالف الأنهار

فحللت حيث الماء صفحة ضاحك

جذل وحيث الشطر بدء عذار

والروح تنفض بكرة لمم الرُبا

والطلّ ينضح أوجه الأشجار

لقد ازدهرَ الشعر والأدب فى عصر الأمير على بن يوسف ازدهارًا عظيمًا شهدت بذلك قصائد شعراء المرابطين التى سجلت فى ذاكرة التاريخ الخالدة.

وما قيل عن انحطاط الشعر والأدب فى عصر المرابطين أكذوبة استشراقية بان زيفها أمام حقائق التاريخ التى لا تُجامل ولا تعرف التحايل.

ولا ننسى شيوع فن الموشحات والأزجال فى عصر المرابطين، يقول ابن خلدون عن نشأة فنّ الموشحات: «وأمّا أهل الأندَلُس، فلما كثُر الشعر فى قطرهم, وتهذّبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فنًا يسمونه بالموشح ينظمونه أسماطًا وأغصانًا يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة, ويسمون المتعدد منها بيتًا واحدًا, ويلتزمون عند قوافى تلك الأغصان, وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهى عندهم إلى سبعة أبيات، ويشمل كلّ بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب, وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل فى القصائد, وتجاوزوا فى ذلك إلى الغاية واستطرفه النّاس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه».

ومِن أشهر وشاحى عصر المرابطين الأعمى التطيلي, ومن موشحاته:

دمع مسفوح وضلوع حرار ماء ونار

ما اجتمعا إلا لأمر كبار

بئس لعمرى ما أراد العذول

عمر قصير وعناء طويل

يا زفرات نطقت عن غليل

ويا دموع قد أعانت مسيل

وأما نشأة الزجل فقال ابن خلدون عنه: «إنه لما شاع فنُّ التوشيح في أهل الأَنْدَلُس، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعرابًا، واستحدثوا فنًّا سموه بالزجل، والتزموا النَّظْم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة».

ويعتبر أبو بكر بن قزمان القرطبى أول من ابتكر الزجل.

ومن أشهر أزجاله ما كان فى مدح القاضى أحمد بن الحاج قوله:

وصل المظلوم لحق وانتصف غنى ومسكين يحضر الإنكار والإقرار ويقع الفصل فالحين اجتمع فيه الثلاثة الورع والعلم والدين فيزول الحق إذا زال ويدوم الحق إذا دام.

هذه نبذة مختصرة عن بعض فنون الأدب التى ازدهرت وترعرعت فى ظلِّ دولة المرابطين.

* * *

المبحث الثالث

من مشاهير علماء دولة المرابطين

كانت دولة المرابطين مبنية على أسس شرعية ولذلك اهتمت بالعلماء والفقهاء الذين لا دوام لدولة تريد أن تحكم بشرع الله بدونهم, ولذلك كثر المُحَدِّثون والفقهاء، نذكر منهم:

أولا: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد (ت ٥٢٠هـ).

هو الإمام العلامة شيخ المالكية، قاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد.

أ. شيوخه:

مِن أشهر شيوخه الذين تتلمذ عليهم أبو جعفر أحمد بن رزق، وأبو مروان بن سراج، ومُحَمَّد بن خيرة، ومُحَمَّد بن فرج الطلاعي، والحافظ أبو علي، وأبو العبَّاس بن دلهات.

قال ابن بشكوال فيه: «كان فقيهًا عالمًا، حافظًا للفقه مقدمًا فيه على جميع أهل عصره، عارفًا بالفتوى، بصيرًا بأقوال أئمة المالكية، نافذًا في علم الفرائض والأصول، من أهل الرياسة في العلم، والبراعة والفهم، مع الدين والفضل، والوقار والحلم، والسمت الحسن، والهدى الصالح، ومن تصانيفه كتاب «المقدمات» لأوائل كتب المدونة، وكتاب «البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل»، واختصار «المبسوطة»، واختصار «مشكل الآثار» للطحاوي، سمعنا عليه بعضها، وسار في القضاء بأحسن سيرة وأقوم طريقة، ثم استعفى منه، فأعفي، ونشر كتبه، وكان النَّاس يُعوِّلون عليه ويلجأون إليه، وكان حسن الخلق، سهل اللقاء، كثير النفع لخاصته جميل العشرة لهم، بارًّا بهم».

ب- ومن أشهر فتاوى ابن رشد الجد ما أفتاه فى شأن المعاهدين مِن النصارى فى بلاد الأَنْدَلُس بإبعادهم وتغريبهم لغدرهم بالمسلمين ومساعدتهم لألفونسو المحارب، عاش هذا العالم الجليل سبعين عامًا, ومات فى ذى القعدة سنة عشرين وخمسمائة، وصلى عليه ابنه أبو القاسم، وروى عنه أبو الوليد بن الدباغ فقال: «كان أفقه أهل الأَنْدَلُس، وصنَّف شرح العتبية، فبلغ فيه الغاية»

ثانيًا: الشهيد القاضى الفقيه أبو على الصدفي:

هو العالم الفقيه القاضى المُحَدِّث الحسين بن مُحَمَّد بن سُكرة.

أ- شيوخه:

روى عن أبى الوليد الباجي، ومُحَمَّد بن سعدون القروي، وحجَّ سنة إحدى وثمانين، ودخل مصر على أبى إسحاق الحبال، وقد منعه المستنصر العبيدى الرافضى مِن التحديث.

قال: فأول ما فاتحته الكلام أجابنى على غير سؤالي، حذرًا أن أكون مدسوسًا عليه، حتى بسطته وأعلمتُه أنَّنى من أهل الأَنْدَلُس أريد الحج، فأجاز لى لفظًا، وامتنع من غير ذلك.

رحل للعراق، فسمع بالبصرة من جعفر بن مُحَمَّد بن الفضل العباداني، وعبد الملك ابن شغبة، وبالأنبار: الخطيب أبا الحسن على بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الأقطع، وببغداد: على ابن الحسن بن قُريش بن الحسن صاحب ابن الصلت الأهوازي، وعاصم بن الحسن الأديب، وأبا عبد الله الحميدي.

وتفقَّه ببغداد على أبى بكر الشاشي، وأخذ بالشام عن الفقيه نصر المقدسي، ورجع إلى بلاده فى سنة تسعين بعلم كثير، وأسانيد شاهقة، واستوطن مُرسية، وجلس للإسماع بجامعها.

ورحل النَّاس إليه، وكان عالمًا بالحديث وطرقه, عارفًا بعلله ورجاله، بصيرًا بالجرح والتعديل، مليح الخطِّ، جيد الضبط، كثير الكتابة، حافظًا

لمصنفات الحديث, ذاكرًا لمتونها وأسانيدها، وكان قائمًا على «الصحيحين» مع «جامع» أبى عيسى الترمذي، ولي قضاء مُرسِيَّة، ثم استعفى منه فأعفي، وأقبل على نشر العلم وتأليفه، وكان صالحًا ديِّنًا، عاملاً بعلمه، حليمًا متواضعًا، وخرَّج القاضي عياض شيوخه, وذكر أنه أخذ عن مائة وستين شيخًا، وأنَّه جالس نحو أربعين شيخًا مِن الصالحين والفضلاء, وأنَّه أكره على القضاء فوليه، ثم اختفى حتى أعفى منه.

وتصدَّر فى زمن على بن يوسف فى نشر الكتاب والسنة فى مرسية بالأَنْدَلُس, وتوافد عليه الطلاب من كل حدب وصوب لينهلوا من علمه الجم الغزير, ونفع الله به المُسلمين فى تلك الأقطار.

ب- وفاته:

استشهد أبو على الصدفى فى وقعة قُتُنْدَة بثغر الأَنْدَلُس، لست بقين من ربيع الأول، وهو مِن أبناء الستين، وكانت هذه الوقعة على المسلمين, وكان عيش أبى على من كسب بضاعة مع ثقات إخوانه.

انظر رحمك الله إلى هذا الطوْد الشامخ، والجبل الراسخ، والبحر الزاخر في حبه لطلب العلم ونشره، والدعوة إلى دينه والدفاع عنه، وحبه للجهاد والرِّباط، وحرصه على أكل الحلال، والتحرى فى لقمة العيش، والاستعلاء على الدنيا وزخارفها الكاذبة، ويا تُرَى كم نفس أحياها خبر استشهاد هذا العالم الفقيه الزاهد، وكان – رحمه الله – يتذوَّق الشعر الذى فيه الذَّود عن سنة سيِّد المرسلين, ويكتبه لتلاميذه, منه ما قال أبو عبد الله مُحَمَّد بن على الصورى لنفسه:

قل لمن أنكر الحديث وأضحى

عائبًا أهله ومن يدعيه

أبعلم تقول هذا؟ أين لي

أم بجهل فالجهلُ خُلُقُ السفيه

أيُعاب الذين هم حفظوا الدِّين

من الترهات والتمويه؟

وإلى قولهم وما قد رَوَوْه

راجعٌ كلُّ عالم وفقيه

ثالثا: القاضى الفقيه أبو بكر بن العربي:

من أعظم فقهاء الأندَلُس فى عصر المرابطين، هو القاضى أبو بكر مُحَمَّد بن عبد الله ابن مُحَمَّد المعافرى الأندَلُسي، الإشبيلي, الإمام العلامة، المتبحر فى العلوم.

ولد عام ٤٦٨هـ/١٠٧٦م وتأدَّب ببلده، وقرأ القراءات، ثم رحل إلى مصر، والشام وبغداد ومكة وكان يأخذ عن علماء أى بلد يرحل إليه حتى أتقن الفقه، والأصول وقيد الحديث، واتسع فى الرواية، وأتقن مسائل الخلاف، وتبحر فى التفسير، وبرع فى الأدب والشعر، وعاد إلى بلده إشبيلية بعلم كثير، لم يأت به أحد قبله مِمَّن كانت له رحلة إلى المشرق.

أ- مكانته العلمية:

قال الشيخ صديق حسن خان عن ابن العربي: «إمام فى الأصول والفروع، سمع ودرس الفقه والأصول, وجلس للوعظ والتفسير، وصنَّف فى غير فنٍّ، والتزم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى أُوذى فى ذلك بذهاب كتبه وماله؛ فأحسن الصبر على ذلك كله».

قال عنه القاضى عياض, وهو مِمَّن أخذوا عنه: «استقضي ببلده فنفع الله به أهلها لصرامته، وشدة نفوذ أحكامه، وكانت له فى الظالمين سورة

مرهوبة، وتؤثر عنه فى قضائه أحكام غريبة، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه».

قال عنه الشيخ أحمد بن مُحَمَّد المقري: «علم الأعلام، الطاهر الأثواب، الباهر الأبواب، الذى أنسى ذكاء إياس، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع مِن الأصل، وغدا فى الإسلام أمضى مِن النصل».

ب- مؤلفاته:

للإمام القاضى أبى بكر بن العربى مؤلفات كثيرة لم يصلنا أغلبها، وقد قضى أربعين سنة فى الإملاء والتدريس، وفى بثّ ما حصّله مِن العلوم، وصنّف -رحمه الله- فى فنون متعددة منها: علوم القرآن, والحديث، و«مشكل القرآن والحديث»، وأصول الدين، وكتب الزهد، وأصول الفقه، وكتب الفقه، والجدال والخلاف، واللغة والنحو والتاريخ، ومِن أشهر المؤلفات التى انتفع بها المسلمون «العواصم مِن القواصم»، «عارضة الأحوذى فى شرح الترمذي»، «أحكام القرآن»، «القبس فى شرح موطأ ابن أنس»، «المسالك على موطأ مالك», «الإنصاف فى مسائل الخلاف»، «أعيان الأعيان»، «المحصول فى أصول الفقه»، «قانون التأويل».

كان الإمام ابن العربى يصول ويجول بفقهه فى بلاد الأَنْدَلُس ينور طرق الظلام بعلمه، ويقضى على الشبهات بحججه، ويدمغ البدع المنتشرة بصبره وحلمه ودعوته، وكان من أعمدة دولة المرابطين فى نشر الكتاب والسنة وتفقيه النّاس وتربيتهم على مبادئ الإسلام وأخلاق الإيمان ودرجات الإحسان.

وله فوائد علمية سجّلها فى كتبه وانتفع بها طلاب العلم من بعده منها:

١- قوله: قال علماء الحديث: ما من رجل يطلب الحديث إلا كان على وجهه نضرة، لقوله (ﷺ): «نضر الله أمرأ سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها..».

قال: وهذا دعاء منه (ﷺ) لحملة علمه, لابد بفضل الله تعالى من نيل بركته.

٢- ومنه قوله: كنت بمكة فى سنة ٤٨٩هـ وكنت أشرب من ماء زمزم كثيرًا، وكلّما شربته نويت العلم والإيمان، فنويت العلم والإيمان، ففتح الله لى ببركته فى المقدار الذى يسَّره لى مِن العلم، ونسيت أن أشرب للعمل، ويا ليتنى شربته لهما حتى يفتح الله لى فيهما، ولم يقدر فكان صفوى للعلم أكثر منه للعمل.

وفاته:

أتاه أجله «بمغلية» قرب مدينة «فاس» في ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ، ودفن فى فاس خارج باب المحروف على مسيرة يوم من فاس غربًا منها.

رابعًا: القاضى الفقيه عياض:

هو القاضى أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى اليحصبى السبتي، كان إمام وقته فى الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، وصنف التصانيف المفيدة، ولد فى سبتة فى عام ٤٧٦هـ، وتتلمذ على شيوخها ومن أشهرهم: القاضى أبو عبد الله بن عيسى، والخطيب أبو القاسم, والفقيه إسحاق بن الفاسي، وإبراهيم بن جعفر اللواتي، وإبراهيم بن أحمد القيسي، وأبو بكر القاسم بن عبد الرحمن الكومى وغيرهم الكثير.

أـ رحلته إلى الأندلس:

كان خروجه للأَنْدَلُس من بيته يوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى سنة ٥٠٧هـ، وكان عمره إذ ذاك واحدًا وثلاثين عامًا، ومِن أشهر شيوخه الذين تتلمذ عليهم فى قرطبة أبو مُحَمَّد عبد الرحمن بن مُحَمَّد المشهور بابن عتاب القرطبي, وقاضى الجماعة أبو

عبد الله بن الحاج، والفقيه أبو جعفر بن رزق، وأبو مروان عبد الملك بن سراج، وأبو الوليد بن رشد الجد، وأبو مُحَمَّد عبد الله بن أحمد بن سعيد الأَنْدَلُسى الإشبيلى وأبو علي الصدفي.

وتحصَّل على علوم غزيرة وتصدَّر للتعليم والتدريس، وعُين فى القضاء، ونبغ فيه, واشتهر بعلمه وعبادته وعدله وجوده، وكانت مؤلفات القاضى عياض أكثرها فى الحديث الشريف، ثُمَّ فى التاريخ والطبقات ثم فى الفقه، ثم فى القرآن.

ب ـ مؤلفاته:

١- «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، موضوعه فى السيرة النبوية والعقيدة والأصول والتفسير والحديث.

٢- «مشارق الأنوار على صحيح الآثار» وموضوعه تفسير غريب الحديث فى الصحاح الثلاثة: «موطأ مالك» و «صحيحي البخارى ومسلم»، فضبط أسماء الرجال والألفاظ, ونبَّه على مواضع الأوهام والتصحيفات.

وفى هذا الكتاب قال الشاعر:

مشارق أنوار تبدَّت بسبتة ومن عجب كوْن المشارق بالمغرب

فأجابه آخر بقوله:

وما شرف الأوطان إلا رجالها وإلا فلا فضل لتُرب.على تُرب

٣- كتاب «الإكمال»، أكمل به كتاب «المعلم بفوائد كتاب مسلم» لشيخه المازرى الفقيه المالكى المُحَدِّث المتوفى سنة ٥٣٦هـ.

٤- كتاب «منهاج العوارف إلى روح المعارف» وهو فى شرح مشكل الحديث.

٥- كتاب «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع» فى مصطلح الحديث.

٦- كتاب «بغية الرائد فيما فى حديث أم زرع مِن الفوائد».

٧- كتاب «التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة» فى الفقه وجمع فى هذه الكتاب فوائد وغرائب.

٨- كتاب «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» فى العقيدة.

٩- كتاب «الخطب» يحتوى على خمسين خطبة من خطب الجمع.

١٠- كتاب «جامع التاريخ» فى التاريخ والطبقات.

١١- كتاب «تاريخ سبتة» وهو مسودة.

١٢- «ترتيب المدارك وتقريب المسالك فى معرفة أعلام مذهب الإمام مالك».

١٣- «الغنية» وذكر فيه شيوخه وترجم لهم.

١٤- «المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان».

١٥- «غنية الكتاب وبغية الطالب»، فى الأدب والإنشاء، وغيرها مِن المخطوطات والكتب التى تدل على سمو منزلته وسلامة منهجه.

لقد برع القاضى عياض فى أمور عِدَة منها: القضاء والفقه والحديث واللغة والأدب، وكان شاعرًا مجيدًا, وله موهبة رائعة تدل على قدرته على نظم الشعر، ومن أروع ما قاله القاضى عياض مِن القصائد تلك التى أنشدها وهو يودِّع قرطبة فى عام ٥٠٨هـ، بعد أن تلقَّى العلم فيها من شيوخها، وتوطَّدتْ له صلات بأهلها ومودة وصداقة وأخوة أكيدة، فقال مودعًا المدينة الأنْدَلُسية ذات التاريخ العريق:

أقول وقد جدَّ ارتحالى وغرَّدت

حُداتى وَزُمَّت للفراق ركائبي

وقد غمضت من كثرة الدمع مقلتي

وصارت هواء من فؤاد ترائبي

ولم تبقَ إلا وقفة يستحثها

وداعى للأحباب لا للحبائب

رعى الله جيرانًا بقرطبة العُلا

وسقى ربُاها بالعهاد السواكب

وحيًا زمانًا بينهم قد ألفته

طليق المُحيًا مُستلان الجوانب

أإخواننا بالله فيها تذاكروا

معهاد جار أو مودة صاحب

غدوتُ بهم من برهم واحتفائهم

كأنى فى أهلى وبين أقاربي

ومن أشعاره الإخوانية التى وصف فيها ليلة جمعت من أصحابه كل ذى مكانة وفضل وجاه:

سَمَحَ الزمانُ بليلةٍ

غراءَ جامعة السرورْ

أجنتْ أكفُّ جُناتِها

قَطفَ الأمانى والحبور

ما فضَّ طينُ ختامها

فيما تقدم من دهور

دارت على فلك السعود

بمثل أشباه البدور

ما إن ترى إلا أميرًا

حاز إرثًا عن أمير

تَخذُوا القلوب أسرة

وثَوَوْا بها عوض السرير

فعليهم وقف العلاءُ

وإن تُدووِلَت الأمور

لقد اهتمَّ الأمير على بن يوسف بالقاضى عياض لما كان شابا وظهر ذكاؤه وانتشر صيته، فأكرمته دولة المرابطين، وهيأت له الأجواء للمزيد من التحصيل والتفقه فى الدين.

وكان القاضى عياض لا يحب كثرة الأسفار والارتحال، ويلاحظ المتتبع لسيرته وحياته أنه كان قليل الارتحال بالقياس إلى معاصريه وأترابه

مِن العلماء والفقهاء والمُحَدِّثين، وكانت له نظرية عجيبة فى ذم السفر وبيان أضراره وعيوبه نظمه فى الشعر، وخالفه كثير مِن العلماء فى نظرته المتفردة وإليك الأبيات التى ذكرها فى ذم السفر:

تقعَّد عن الأسفار إن كنت طالبًا

نجاةً ففى الأسفار سبعُ عوائق

تشوفُ إخوانٍ وفقدُ أحبةٍ

وأعظمها يا صاح سُكنى الفنادق

وكثرةُ إيحاشٍ وقلةُ مؤنسٍ

وتبذيرُ أموالٍ وخيفةُ سارق

فقد كان ذا دهرًا تقادم عهده

وأعقبه دهر شديدُ المضايق

فهذه مقالى والسلام كما بدا

وجرِّب ففى التجريب علمُ الحقائق

وهذه فلسفة غريبة فى الأسفار أخالف القاضى عياض - رحمه الله - فيها، إلا أنِّنى أقول إن الإنسان فى أسفاره العلمية أو التجارية عندما يقضى مآربه عليه أن ينتقل إلى غيرها, حتى يحقق أهدافه ويرجع إلى وطنه وقومه غانمًا سالمًا مفيدًا لأهله وشعبه, وقد ذكر العلماء فى الأسفار فوائد فقال الشافعى رحمه الله:

تغرَّب عن الأوطان فى طلب العلى

وسافر ففى الأسفار خمسُ فوائد

تفرج همٍّ واكتسابُ معيشة

وعلمٌ وآداب وصحبةُ ماجدِ

وقال الإمام الشافعى فى الاغتراب أيضًا:

ما فى المقام لذى عقلٍ وذى أدبِ

من راحةٍ فَدَعِ الأوطان واغتربِ

سافر تجد عوضًا عمن تفارقه

وانصب فإن لذيذَ العيش فى النصب

إنّى رأيت وقوف الماء يفسده

إن ساح طاب وإن لم يجرِ لم يطبِ

والأسدُ لولا فراقُ الأرض ما افترست

والسهمُ لولا فِراقُ القوسِ لم يُصب

والشمسُ لو وقفت فى الفلك دائمة

لملّها النّاس من عُجم ومن عرب

وكان ممّن عاصر القاضى عياض العلامة الشيخ يعلى أبو جبل, وكان له رأى يخالف رأى القاضى عياض فى السفر نظمه فى هذه الأبيات:

سافر لتكسب فى الأسفار فائدة

فَرُبَّ فائدةٍ تُلقى مع السفر

ولا تُقم بمكان لا تُصيبُ به

نصحًا ولو كنت بين الظل والشجر

فإن «موسى» كليم الله أعوزهُ

علم تكسّبَهُ فى صحبة الخضر

ومن شعره فى الأشواق ما نظمه من أبيات واصفًا فيها شوقه وحنينه لزيارة المدينة المنورة فقال:

يا دار خير المرسلين ومَن به

هدى الأنام وخُصَّ بالآياتِ

عندى لأجلك لوعة وصابة

وتشوقٌ متوقدُ الجمرات

وعليَّ عهدٌ إن ملأت محاجري

من تلكم الجدران والعرصات

لأعفرنَّ مصونَ شيبى بينها

من كثرة التقبيل والرَّشفات

لولا العوادى والأعادى زرتها

أبدًا ولو سعيا على الوجنات

لكن سأهدى من جميل تحية

لقطين تلك الدار والحُجُراتِ

أذكى مِن المسك المفتق نفحةً

تغشاه بالآصال والبُكرات

وتخصهُ بزواكى الصلوات

ونَوامى التسليم والبركات

وله أبيات يصف فيها نفسه وشوقه إلى وطنه قالها فى مدينـــة «داي» ببلاد المغرب سنة ٥٤١هـــ، وكان قد ناهز الخامسة والستين مِن العمر، وكان مرغمًا على البقاء فيها ممنوعًا للرجوع إلى بلاده فى زمن دولة المُوَحِّدين.

يعلم الله وأنا أمر على هذه الأبيات التى فجرت الأحزان فى نفـــسي، وألهبـــت مشاعرى وهيجت الأشواق إلى مدينتى «بنغـــازي» ومنطقتـــى «الحـــدائق»، وذكرتنى ببلادى العزيزة ليبيا ما تملكت دموع الشوق إلى مسقط رأسى الـــذى طالت مدة غيابى عليه أكثر من أربعة عشر عامًا نصفها مسجونًا فى بـــلادي، والنصف الآخر قضيتها متنقلاً بين البلدان، ولم تكن تهمتى التى كلفتنى هـــذه العقوبة القاسية التى أحتسبها عند الله إلا أن رضيت بالله ربا وبالإســـلام دينًـــا وبمُحَمَّد نبيًا ورسولاً (ﷺ).

إن أبيات القاضى عياض فى غربته أضفت على وأنا أتـــرجم حياتـــه مسحة مِن الحزن، ولوعة مِن الأسى، وإحساسًا بالحنين إلى أهلـــى ووطنـــي، وأحبتى وإخواني، فقال القاضى – رحمه الله – وهو يحاور حمامة مرّت به:

أقمرية الأدواح بالله طارحِي

أخا شجى بالنوح أو بغناء

فقد أرقتنى من هديلك رنة

تهيج من شوقى ومن بُرحائي

لعلك مثلى يا حمامُ فإنني

غريب «بداي» قد بُليتَ بداءِ

فكم من فلاةٍ بين «داي» و «سبتة»

وخَرق بعيد الخافقين قواءِ

تصفقُ فيه للرياح خوافقٌ

كما ضعْضعتنى زفزةُ الصعداء

يذكرنى سحٌّ المياه بأرضها

دموعًا أريقتْ يوم بنتُ ورائي

ويعجبنى فى سهلها وحزنها

خمائل أشجارِ ترف لِرائي

لعلّ الذى كان التفرُّق حكمةً

سيجمع منّا الشمل بعد تنائي

جـ- عياض والقضاء:

رجع القاضى عياض إلى سبتة بعد أن أتمَّ ما أراد من علوم الأنْـدلُس، وكان دخوله لمدينته الحبيبة إلى نفسه عام (٥٠٨هـ)، وفرح أهل سبتة بابنهم البار، وتصدَّر للتعليم والتدريس بعد أن امتحنه علماء مدينة سبتة فـى الفقـه المالكي، وأصبح من أهل مجلس الشورى، وكان حينئذ فى الثانية والثلاثين من عمره أو يزيد قليلاً، وكانت تلك المرحلة سببًا فى إعداده ليتسنم سدة القـضاة الشريفة الرفيعة فى سبتة.

ولما كان عياض فى التاسعة والثلاثين من عمره تولى القضاء، وكان ذلك عام ٥١٥هـ، وظلّ متربعًا على كرسى القضاء فى بلده سبتة ستة عـشر عامًا، فسار فيها أحسن سيرة، وكان محمود الطريقة مشكور الحالة، أقام جميع الحدود على ضروبها واختلاف أنواعها، وبنى الزيادة الغربية فى جامع سـبتة التى كمل بها جماله وترك فى بلده آثارًا محمودة.

ويبدو أن بعض الأمراء لم يعجبهم حزم وعدالة القاضى عياض، كمـا خافوا من كثرة أتباعه وانتشار صيته ومحبة النّاس له، فلذلك عزموا على نقله

إلى غرناطة, ولم يذكروا سببًا مقنعًا، مما جعل الفقيه أبا الحسن بـــن هـــارون المالقى يمدح القاضى عياضًا فى أبيات سجلتها ذاكرة التاريخ:

ظلموا عياضًا وهو يَحْلُمُ عنهم

والظلمُ بين العالمين قديمُ

جعلوا مكانَ الراءِ عينًا فى اسْمه

كى يكتموه فإنّه معلوم

لولاه ما فاحتْ بطائحُ سبتة

والروض حول فنائِها معدوم

وانتقل القاضى عياض إلى غرناطة ممتثلاً لأمر الأمير فهـبَّ أهـل غرناطة لاستقباله كما يستقبل الفاتحون، وبالله إنه لحق فاتح للعقـول, ومنـور للقلوب, ومطهر للنفوس بعلمه الغزير، وخُلُقه المتواضع وسيرته العطرة.

وسار فى النّاس سيرة العدل، ورفع الظلم، وإحقاق الحقوق دون خوف من أمير أو وزير، ونشط وضاق به ذرعًا مَن تعرّضت مصالحه للخطر، ولا يستطيع الحصول عليها إلا بالظلم، وأسفرت مكايد الأشرار فى غرناطة عـن عزل القاضى النزيه فى عام ٥٣٢هـ، ورجع إلى بلده ليكـون بعيـدًا عـن القضاء قريبًا لطلاب العلم وحلقاته, وقصده النّاس وانتفع به العباد, ونشر نور الكتاب والسنة فى البلاد، واستمرّ على تلك الحالة الدعوية سبع سـنين، وفـى أواخر دولة المرابطين عام ٥٣٩هـ دعى ليتولّى قضاء سبتة من جديد، وهـو فى الثالثة والستين من عمره، وكان شيخًا جليلاً وعالمًا عظيمًا، وقاضيًا حكيمًا, وأبًا رحيمًا، فابتهج النّاس لعودته, وسار فيهم سابق سيرته، وما مضت شهور قليلة حتى سقطت دولة المرابطين على يد دولة المُوَحّدِين البدعيـة فاضـطرّ القاضى الجليل إلى خوض الحياة السياسية والحربية.

د- معارك السياسة والحرب:

إن ظهور دولة المُوَحِّدِين على يد المبتدع الكبير مُحَمَّد بن تومرت كانت من أسباب سقوط دولة المرابطين، فطبيعي جدًا أن يخوض حربًا ضد دولة المُوَحِّدِين، وتولَّى قيادة جيوش المُوَحِّدِين عبد المؤمن بن على الذى استطاع بجيشه أن يحتل مدن المغرب مثل فاس ومراكش وغيرهما.

ورأى القاضى عياض أن المصلحة العليا لمدينة سبتة وأهلها أن يبايع عبد المؤمن حفاظًا على الأعراض والأموال، وتجنيب المدينة من الدمار الشامل, وقبل أمير المُوَحِّدِين تلك البيعة الاضطرارية، وما أن قام مُحَمَّد بن هود بثورته على المُوَحِّدِين حتى استجاب أهل سبتة لذلك بزعامة القاضى عياض، وقام السبتيون بقتل عامل المُوَحِّدِين وأصحابه، وسار القاضى عياض إلى يحيى بن على المسوفى المعروف بابن غانية فى قرطبة وبايعه، وكان متمسكًا بدعوة المرابطين, وطلب منه أن يُعيِّن واليًا على سبتة فبعث معه يحيى بن أبى بكر الصحراوى، وأصبحت بذلك مدينة سبتة خارجة عن دولة المُوَحِّدِين, وعادت إلى حكم المرابطين.

إلا إن جيوش المُوَحِّدِين استطاعت إخضاع مدينة سبتة وأهلها, وأعادوا البيعة من جديد للمُوَحِّدِين الذين قبلوا ذلك, واشترطوا إبعاد القاضى عياض عن مدينته إلى مراكش، وقيل تدلا, إلى أن توفاه الله تعالى.

إن موقف القاضى عياض كان منسجمًا مع عقيدته وعلمه ودعوته فى محاربته للمُوَحِّدِين الذين اعتقدوا عصمة إمامهم مُحَمَّد بن تومرت، وغير ذلك من العقائد البدعية التى سنفصِّلها بإذن الله تعالى عند كلامنا عن المُوَحِّدِين.

إن القاضى عياض ليس من أهل السنة وحسب، ولكنَّه فقيه أهل السنة آنذاك على الإطلاق، وهو كذلك يرى وجوب الوقوف أمام دعوة ابن تومرت،

وينبغي التخلُّص منها حتى حانت أول فرصة، وإن يكن قد بايع فالبيعة آنــذاك كانت حفاظًا على سلامة بلدته وأهلها، أما وقد لاحت الفرصة بخروج بعــض المدن على سلطان المُوَحِّدين القائم على بدعة الإمامة المعصومة، أمــا وقــد جرت الريح بما لا تشتهي السفن؛ فإن مِن العقل الاستسلام ثم المبايعة وله حكم المضطرّ في ذلك.

وإن سلطان المُوَحِّدين عبد المؤمن كان على مقدرة عجيبة مِن الــدهاء والمكر، ولذلك رأى لمصلحة دولته أن يضع الفقهاء والعلماء الذين يشك فــي ولائهم له في مراكش، ومنعهم مِن العودة إلى بلادهم، أو يضعهم فــي مــدن أخرى ليخدموا مخططات الدولة الناشئة.

هـ- وفاة القاضي عياض:

توفي رحمه الله في منفاه بعيدًا عن وطنه في عام ٥٤٤هـــ ودفن فــي مراكش،( ) فعليه مِن الله الرحمة والمغفرة والرضوان على ما قدَّمه للإسلام.

هؤلاء بعض العلماء الذين كان لهم سبق ومكانة في دولة المــرابطين, وانتفع النّاس بعلمهم وفقههم، ترجمت لهم ترجمة متواضعة, كما برز في علوم الفقه والحديث كثير مِن العلماء والمُحَدِّثين في عصر دولة المرابطين منهم: أبو الحسن

علي بن عبد الرحمن المعروف بابن أبي حقون ولــه مختــصر فــي أصول الفقه سماه «بالمقتضب الأشفى في أصول المستصفى», ومــنهم أبــو مُحَمَّد عبد الله بن علي بن عبد الله بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمي، ويعرف بالرشاطي، وكانت له عناية بالحديث والرجال والرواة والتواريخ، وله كتــاب سماه «اقتباس الأنوار، والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثــار»، ومنهم أيضًا أبو عبْد الله بن مُحَمَّد بنْ حسين بن أحمد بن مُحَمَّد الأنــصاري، وأبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي

عبيدة بن مُحَمَّد الخزرجي، وقد ألف كتابًا فى أحكـام الرسـول (ﷺ) سماه «آفاق الشموس وأعلاق النفوس»، وكتابًا آخر سماه «مقـاطع الـصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان»، وأبو مُحَمَّد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربى وله كتاب يُسمى «بالوجيز فى التفسير»، وكذلك برز فـى عصر على بن يوسف من الفقهاء وعلماء الحديث: أبو عبـد الله مُحَمَّـد بـن حسين بن أحمد الأنصارى المعروف بابن أبى أحد عشر، وأبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن سعيد بن يربوع بن سليمان، وأبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن عمر المعروف بابن الدباغ، وأبو عبد الله

مُحَمَّد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبى المعروف بـابن الحـاج قاضى الجماعة بقرطبة.

* * *

المبحث الرابع

علوم اللغة فى زمن المرابطين

ونبغ فى علوم اللغة فى عصر على بن يوسف عدد كبير مِن العلماء المبرزين فى النحو وعلوم اللغة نذكر منهم: أبا مُحَمَّد, عبد الله بن مُحَمَّد بن السيِّد البطليوسى النحوى ت ٥٢١هـ، وكان حجة فى علمه عالمًا متبحرًا فى النحو وعلوم اللغة، وكان النَّاس يجتمعون إليه ويقرأون عليه، ومن تواليفه كتاب «الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب», وكتاب «التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة», وكتاب آخر فى شرح الموطَّأ, بالإضافة إلى ذلك كان شاعرًا مطبوعًا فمن نظمه قوله:

أخو العلم حي خالد بعد موته

وأوصاله تحت التراب رميم

وذو جهل ميت وهو ماشٍ على الثرى

يظن مِن الأحياء وهو عديم

ومن أئمة اللغويين وأعلامهم فى عصر على بن يوسف، أبو الحسن على بن أحمد بن خلف الأنصارى النحوي، وقد كان من أهل المعرفة بالآداب واللغة، متقدمًا فى علم القراءات، وأبو مُحَمَّد بن أحمد بن عبد الله بن مُحَمَّد بن أحمد بن عبد الله النحوى المعروف بابن اللجاش، وكان عالمًا متبحرًا فى النحو، وأبو العبَّاس أحمد بن عبد الجليل ابن عبد الله المعروف بالتدميرى ت ٥٥٥هـ، ومن تواليفه «نظم القرطين وضم أشعار السقطين» وجمع فيه أشعار «الكامل» للمبرد و «النوادر» لأبى على البغدادي، كما له كتاب «التوطئة فى العربية» وله شرح على كتاب الفصيح لثعلب، وله فى شرح أبيات جمل الزجاجى كتاب سماه «شفاء الصدور»، وكتاب «الفوائد والفرائد»، ومنهم أبو

العبّاس أحمد بن عبد العزيز بن هشام بن غزوان الفري، وكـــان مـــن أهـــل المعرفة بالنحو واللغة والعروض, وله أرجوزة مزدوجة فى قراءة نافع وثانية فى قراءة ابن كثير، ومن تواليفه كتاب «فوائد الإفصاح عن شواهد الإيضـاح»

* * *

المبحث الخامس

علوم التاريخ والجغرافيا فى عصر المرابطين

ظهر فى عصر المرابطين عدد كبير من أعلام الرواية والكتابة التاريخية نذكر فى مقدمتهم: أبو زكريا بن يحيى بن يوسف الأنصارى الغرناطى المعروف بابن الصيرفى، كان من أعلام عصر على بن يوسف فى البلاغة والأدب والتاريخ، كتب بغرناطة عن الأمير تاشفين بن على بن يوسف أيام أن كان واليًا على الأَنْدَلُس، وألَّف فى تاريخ الأَنْدَلُس فى العصر المرابطى كتابًا سماه «الأنوار الجلية فى تاريخ الدولة المرابطية»، وكتابًا آخر سماه «قصص الأنباء وسياسة الرؤساء», وهما مؤلفان لم يصلا إلينا مع الأسف، ولم يصل إلينا من مؤلفاته الأولى سوى شذور نقلها المتأخرون مثل ابن الخطيب خاصة روايته عن غزوة ألفونسو المحارب للأَنْدَلُس سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م، وقد توفى ابن الصيرفى بغرناطة فى سنة ٥٧٠هـ، وهناك أيضًا أبو الحسن على بن بسام الشنترينى (ت٥٤٢هـ) صاحب كتاب «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة», وهذا الكتاب موسوعة أدبية تاريخية يتضمن تراث القرن الخامس الهجرى/ الحادي عشر الميلادي، وأبو عبد الله مُحَمَّد بن خلف بن الحسن بن إسماعيل الصدفي، ويعرف بابن علقمة, وهو من أهل مدينة بلنسية وله كتاب سمَّاه «البيان الواضح فى الملم الفادح» وتوفى ابن علقمة عام ٥٠٩هـ/١١١٤م، وأبو طالب عبد الجبار عبد الله ابن أحمد بن أصبغ، وله كتاب يسمى «عيون الإمامة ونواظر السياسة»، وأبو عامر مُحَمَّد بن أحمد بن عامر البلوى المعروف بالسالمي، وقد ألَّف كتابًا فى التاريخ سماه «درر القلائد وغرر الفوائد»، وأبو نصر الفتح بن مُحَمَّد القيسى الإشبيلي، والمعروف بالفتح بن خاقان، ومن تواليفه كتاب «قلائد العقيان فى محاسن الأعيان»، وكتاب «مطمع الأنفس ومسرح التأنس», وكتاب «رواية المحاسن وغاية المحاسن»,

وأبو القاسم خلف بن عبد الملك ويعرف بابن بشكوال، وكان من أعلام المؤرخين فى عصر المرابطين، وأشهر تواليفه كتابه المعروف «بالصلة»، الذى جعله تتمة لكتاب ابن الفرضى فى تاريخ علماء الأَنْدَلُس، ومن تواليفه أيضًا كتاب «الغوامض والمبهمات» فى اثنى عشر جزءًا، وكتاب «المحاسن والفضائل فى معرفة العلماء الأفاضل» فى واحد وعشرين جزءًا وقد توفى ابن بشكوال فى رمضان ٥٧٨هـ .

وفى مجال الجغرافية نبغ عدد من كبار جغرافى الأَنْدَلُس والمغرب فى عصر المرابطين نذكر منهم: الشريف أبو عبد الله مُحَمَّد الإدريسي، صاحب كتاب «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»، وقد ألّف الإدريسى لرجار الثّانى صاحب صقلية، ولذا يُعرف هذا الكتاب فى كتب الجغرافية العربية باسم الرجاري.

ومن جغرافيى عصر المرابطين عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجارى صاحب كتاب «المسهب فى غرائب المغرب»، وقد اتخذ بنو سعيد كتابه أساسًا لكتابهم المعروف باسم «المغرب فى حلى المغرب».

* * *

المبحث السادس

علوم الطب فى عصر المرابطين.

تقدمت العلوم الطبية والصيدلانية فى عصر المرابطين تقدمًا يشهد له الأسماء والأعلام التى تألقت فى حضارة الأندَلُس والمغرب، وأشهرها ابن زهر وهو اسم طبيب أندَلُسى من أعظم أطباء الإسلام، ممَّن تركوا بصماتهم واضحة فى تاريخ الحضارة الإنسانية جمعاء، وينتسب أبو مروان عبد الملك بن زهر إلى أسرة أندَلُسية لمعت فى ميدان الطب والعلوم الطبيعية والكيميائية، عَميدها الأكبر هو أبو مروان عبد الملك ابن الفقيه مُحَمَّد بن مروان بن الأزهر الأيادى الإشبيلي، وكان والده الفقيه محمد بن مروان من جلة الفقهاء المتميزين فى علم الحديث فى إشبيلية، وقد رحل أبو مروان فى شبابه إلى المشرق وسمع فى القيروان ومصر، وتتلمذ علىأيدى علماء المشرق فى الطب، ورجع إلى الأندَلُس، وأصبح من أشهر علماء الطب فيها. وتوفى فى إشبيلية، وورثه فى علم الطب ابنه أبو العلاء الذى تبوأ مكانة عظيمة فى دولة المرابطين، ومن تواليفه «الخواص» وكتابه «الأدوية المفردة» وكتاب «الإيضاح بشواهد الافتضاح» فى الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن إسحاق فى كتاب المدخل إلى «الطب»، وكتاب «النكت الطبية»، وكتاب «الطرر» ومقالة فى تركيب الأدوية، وتوفى أبو العلاء فى قرطبة ٥٢٥هـ. وحُمل إلى إشبيلية ودفن بها، وأمر الأمير على بن يوسف بجمع كتبه ونسخها، وتم ذلك عام ٥٢٦هـ. وورث ابنه أبو مروان من والده صناعة علوم الطب، ونبغ فى هذا المجال، ولم يكن فى زمانه مَن يماثله أو ينافسه، وكان له حظوة لدى الأمراء المرابطين، فقد صنف للأمير أبى إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين كتابًا سماه «الاقتصاد فى صلاح الأجساد»، ومن تواليفه أيضًا كتاب «التيسير فى المداواة والتدبير» وقد ألفه القاضى أبو الوليد بن رشد وهذا الكتاب يُعد من

أعظم مراجع الطب فى العصور الوسطى، وله أيضًا كتاب «الأغذية»، ومقالة فى علل الكلى، ورسالة فى علتى البرص والبهق، وتوفى هذا العالم فى عـــام ٥٥٧هــ فى إشبيلية.

ومن الأطباء الذين برعوا فى عصر على بن يوسف: أبو عامر مُحَمَّد بن أحمد بن عامر البلوي، وله فى الطب كتاب سماه «الشفا», وأبـــو الحـــسن على بن عبد الرحمن بن سعيد السعدى وغيرهم.

ومما يؤكد اهتمام دولة المرابطين بالطب وجود منصب يعرف برئيس الصناعة الطبية, وهو منصب هام يقابل ما نطلق عليـــه اليـــوم اســـم وزيـــر الصحة، إذ كان فيما يبدو المسئول الأول أمام الأمير فى صناعة الطب, ومـــا يتعلق بها مِن الأدَويَة والعقاقير.

المبحث السابع

أسباب سقوط دولة المرابطين

١- ظهور روح الدعة والانغماس فى الملذّات والشهوات عند حُكّام المرابطين وأمرائهم فى أواخر عصر عليّ بن يوسف، وكان للمجتمع الأَنْدَلُسى تأثير لا ينكر فى قادة وأمراء وحكام دولة المرابطين الذين استجابوا لنزوات شهواتهم وانغمسوا فى الحياة الدنيا، فتحقّق قول الله تعالى:﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:١٦] .

يقول سيِّد قطب رحمه الله: «والمترفون فى كلّ أمّة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال، ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة والراحة، وبالسيادة حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع فى الفسق والمجانة وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ فى الأرض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا مَنْ يَضْرِبُ على أيديهم عاثوا فى الأرض فسادًا، ونشروا الفاحشة فى الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التى لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثُمّ تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها فتهلك وتطوى صفحتها..».

والآية تقرر سنة الله هذه فى إهلاك مَن انغمس فى الشهوات، وأسرف فى الملذات، وتحلل مِن القيم والأخلاق ولازم الفسق والانحلال والفساد.

٢- ظهور السفور والاختلاط بين النساء والرجال، وبدأت دولة المرابطين فى آخر عهد الأمير على بن يوسف تفقد طُهرَها وصفاءَها الذى اتصفَ به جيلهم الأول، مما جعل الرعية المسلمة تتذمر من هذا الانحراف والفساد، وتستجيب لدعوة مُحَمَّد بن تومرت الذى أظهر نفسه للناس بالزاهد والنّاسك والآمر بالمعروف والناهى عن المنكر.

٣- انحراف نظام الحكم عن نظام الشورى إلى الوراثي الذي سبب نزاعًا عنيفًا على منصب ولاية العهد بين أولاد علي بن يوسف، كما تطلع مجموعة من الأمراء إلى منصب الأمير علي ونازعوه في سلطانه مما سبب تمزقًا داخليًا، ففقدت الدولة المرابطية وحدتها الأولى، وكثرت الجيوب الداخلية في كيان الدولة، وتفجرت ثورات عنيفة في قرطبة، وفي فاس وغيرهما ساهمت في إضعاف الوحدة السياسية وإسقاط هيبة الدولة المرابطية.

٤- الضيق الفكري الذي أصاب فقهاء المرابطين وحجرهم على أفكار النّاس، ومحاولة إلزامهم بفروع مذهب الإمام مالك وحده، وعملوا على منع بقية المذاهب السنية تعصبًا لمذهبهم، وكان لفقهاء المالكية نفوذ كبير مما جعلهم يوسعون تعصبهم وتحجرهم الفكري.

ويرى بعض المؤرخين أن التعصب الأعمى عند فقهاء المرابطين في زمن الأمير علي ابن يوسف كان السبب الأول في سقوط دولة المرابطين( )، لقد أسهم فقهاء المالكية في دولة المرابطين بقسط وافر في تذمر الرعايا، وإضعاف شأن الإمارة، لقد استغل بعض الفقهاء نفوذهم من أجل جمع المال وبناء الدور، وامتلاك الأرض، وعاشوا حياة البذخ والرفاهية المفرطة، وكان ذلك سببًا في إيجاد ردة فعل عنيفة عند أفراد المجتمع المرابطي، وانبرى الشعراء في تصوير حال الفقهاء في تلك الفترة، فقال أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد المعروف بابن البني:

أهل الرياء لبستم ناموسكم

كالذئب أدلج في الظلام العاتم

فملكتم الدنيا بمذهب مالك

وقسمتم الأموال بابن القاسم

وركبتم شهب الدواب بأشهب

وبأصبغ صبغت لكم في العالم

٥- ومن أهم العوامل التي أسقطت دولة المرابطين: فقدها لكثير من قياداتها وعلمائها العظام أمثال سير بن أبي بكر، ومُحَمَّد بن مزدلي، ومُحَمَّد ابن فاطمة، ومُحَمَّد بن الحاج، وأبي إسحاق بن دانية، وأبي بكر بن واسينو.. فمن لم يستشهد من كبار رجال الدولة أدركه الموت الطبيعي، ولم يستطع ذلك الجيل أن يغرس المبادئ والقيم التي حملها في الجيل الذي بعده، فاختلفت قدرات الجيل الذي بعدهم واستعداداتهم، وهذا درس مهم لأبناء الحركات الإسلامية في أهمية توريث التجارب والخبرات المتنوعة والمتعددة للأجيال المتلاحقة.

٦- ومن أهم العوامل التي أنهكت دولة المرابطين، أنها مرَّت بأزمة اقتصادية حادة، نتيجة لانحباس المطر عدة سنوات، وحلول الجفاف والقحط بالأندلس والمغرب، وزاد من حدة الأزمة الاقتصادية أن أسراب الجراد هاجمت ما بقي من الأخضر على وجه البلاد مما هيأ الظروف لانتشار مختلف الأوبئة بين كثير من السكان، ووقعت هذه الأزمة في الفترة الواقعة ما بين أعوام ٥٢٤هـ-٥٣٠م.

٧- ومن أهم الأسباب الرئيسية في زوال دولة المرابطين- في نظري - صدامها المسلح مع جيوش المُوَحِّدين، ورأيت أن أفرد له مبحثًا مستقلاً.

دولة المرابطين.. الضعف ثم الانهيار

رابطون الهزيمة والانحدار.. وقفة متأنية

المرابطين على إثر قيام ثورة في المغرب في عقر دار المـرابطين، وعلى إثر هزيمتين متتاليتين لهم في الأندلس من قِبل النصارى، يحق لنـا أن نتساءل: لماذا تقوم الثورة في هذا الوقت في دولة المرابطين؟! ولمـاذا هـذا الانحدار وتلك الهزائم المتتالية؟!

وفي تحليلٍ موضوعيٍّ لهذه الأحداث نعود بالتاريخ إلى بداية نشأة دولة المرابطين وقيامها، فمنذ عام (٤٤٠هـ=١٠٤٨م) ولمدة سبعين عامًا تقريبًـا، وحتى عام (٥٠٩هـ= ١١١٥م) حيث الانتصارات المتتالية، وحيـث العلـو والارتفاع، وحيث الأموال والغنائم، والدنيا التي فُتِحَتْ على المسلمين، والتـي وصلوا فيها إلى درجة عالية من العزِّ والسلطان والتمكين، فما المتوقّـع بعـد ذلك، وما الأحداث الطبيعية التي من الممكن أن تحدث كما سبق ورأينا؟!

لا شكَّ أن الشيء الطبيعي والمتوقَّع حدوثه هو حصول انكـسار مـن جديد للمسلمين، وحدوث فتنة من هذه الدنيا التي فُتحت على المسلمين، وفتنـة من هذه الأموال التي كثرت في أيديهم.

وقد يتساءل البعض: هل من المعقول بعد انتصارات أبو بكر بن عمر اللمتوني، وانتصارات يوسف بن تاشفين وأعماله، وبعد الزلاقـة، هـل مـن المعقول بعد كل هذا أن يحدث انكسار للمسلمين؟!

وفي معرض الردِّ على هذا نقول: كيف نتعجَّبُ مـن حـدوث هـذا الانكسار الذي حدث بعد وفاة يوسف بن تاشفين، ولا نستغربه وقت أن حـدث بعد وفاة رسول الله متجسدًا في الردة الكبيرة التي حدثت بين المسلمين؟! وهو -بلا شكٍّ- أعظم تربية وأقوى أثرًا من يوسف بن تاشفين ومَنْ على شـاكلته؛ وخاصة إذا كانت هناك شواهد بَيِّنَة لهذا الانكسار وتلك الرجعة.

عوامل سقوط دولة المرابطين

دولة المرابطين كدورة طبيعية من دورات التاريخ، ومما لا يُعَدُّ أمـرًا غريبًا أو غير متوقَّع، كانت هناك شواهد بَيِّنَة لانكسار وتراجع دولة المرابطين عما كانت عليه قبل ذلك؛ نستطيع أن نُجملها فيما يلي:

فتنة الدنيا-وإن ظل أمر الجهاد قائما

بالرغم من عدم توقُّف الجهاد، وبالرغم من صولات وجولات علي بن يوسف بن تاشفين، التي كانت له مع النصارى وفي أكثر من موقعـة، إلاّ أن المرابطين كانوا قد فُتنوا بالدنيا، وهو يُعَدُّ شيئًا غريبًا جدًّا، وفي تحليل لمنـشأ هذا الشاهد وُجد أن سببه خطأ كبير كان قد ارتكبـه المـسلمون فـي دولـة المرابطين، وهم عنه غافلون، وليتنا نأخذ العظة والعبرة منه؛ فقد جعلوا جُـلَّ اهتمامهم التركيز على جانب واحد من جوانب الإسلام، وتركـوا أو أهملـوا الجوانب الأخرى، كما نرى من إغفال هذه الجوانب في كتب التـاريخ؛ فقـد انشغل المرابطون -في أرض الأندلس وفي بلاد المغرب ومـا حولهـا مـن البلاد- بالجهاد في سبيل الله عن إدارة الحُكم وعن السياسة داخل البلاد، شُغلوا بالأمور الخارجية عن الأمور الداخلية، والإسلام بطبيعته دين متوازن، ونظام شامل لا يُغلِّب جانبًا على جانب، وقد رأينا مثالاً واضحًا لهذا الأمر في تلـك الدولة المتوازنة التي أقامها عبد الرحمن الناصر -رحمه الله، في نواحي العلم والجهاد، والاقتصاد والقانون، والعمران والعبادة.. وكل شيء؛ حيـث الدولـة التي تسدُّ حاجات الروح والجسد، فسادت وتمكَّنت وظلَّت حينًا من الدهر.

ومثلها -أيضًا- كانت بداية دولة المرابطين وإقامة الجماعة المتوازنة على يد الشيخ عبد الله بن ياسين، تلك التي اهتم في قيامها بكل جوانب الحيـاة وعوامل ومقومات الدولة المتكاملة، التي تعطي كل جانب من مقوِّماتها قـدرًا مناسبًا من الجهد والوقت والعمل، فتعلَّمُوا أن يكونوا فرسانًا مجاهدين، ورهبانًا عابدين، كما تعلَّمُوا أن يكونوا سياسيين بارعين، ومتعاونين على منهج صحيح

من الإسلام وأصوله، لكن أن يُوَجِّه المسلمون كل طاقاتهم إلى الجهاد في سبيل الله في سَنَة ٥٠٠هـ وما بعدها، ثم يتركون أمور السياسة الداخلية وتثقيف الناس وتعليمهم أمور دينهم، فتلك هي قاصمة الظهر.

كثرة الذنوب رغم وجود العلماء

كثرت الذنوب والمعاصي في دولة المرابطين؛ سواء أكان ذلك في الأندلس أو في أرض المغرب، وهذا مع وجود العلماء الكثيرين في ذلك الوقت، وكثرة الذنوب كان أمرًا طبيعيًّا خاصَّة بعد أن فُتحت البلاد وكثرت الأموال؛ وذلك لأن معظم الذنوب تحتاج إلى أموال لاقترافها، وأصحاب النفوس الضعيفة، الذين كانوا يقطنون في دولة المرابطين (في المغرب) وكانوا يفكرون في الذنوب لكن لا يقدرون عليها، أما الآن وقد فُتحت الدنيا عليهم وكثرت الأموال في أيديهم، فتحرَّكت هذه النفوس الضعيفة ناحية الذنوب، وبدأت ترتكب من الذنوب والكبائر ألوانًا وأشكالاً.

ولا شكَّ أنه كان هناك الغني الشاكر، لكن الحق أن هذا هو الاستثناء وليس القاعدة، والأصل أن الناس جميعًا يُفتنون بالدنيا، ويقعون في الذنوب إذا كثر المال في أيديهم، يقول في معرض قصة نوح : ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]. والأراذل هم ضعاف الناس وبسطاء القوم وفقراؤهم، وهم الذين اتبعوا نوحًا ، واتبعوا الرسل من بعده، واتبعوا كل الدعاة إلى يوم القيامة؛ ومن هنا فإنَّ كثرة الذنوب أمر طبيعي ومتوقَّع كنتيجة مباشرة لكثرة الأموال، لكن أين العلماء الكثيرون المنتشرون في بلاد الأندلس وبلاد المغرب العربي في ذلك الوقت؟!

كيف يفتن الناس بالدنيا وراية الجهاد خفاقة، وكيف تكثر الذنوب رغم وجود العلماء الأجلاء؟!

واقع الأمر أن العلماء هم الذين يقع على عاتقهم العبء الأكبر من هذا التدني وذاك الانحدار؛ إذ نراهم وقد انشغلوا بفرعيات الأمور وأغفلوا أساسياتها؛ لقد طرقوا أمورًا وتركوا أمورًا أولى وأهمّ منها، أخذوا يؤلّفون المؤلفات، ويعقدون المناظرات، ويُقسّمون التقسيمات في أمور لا ينبني عليها كثير عمل، ولا كثير جدوى؛ بينما أغفلوا أمورًا ما يصحّ لهم أبدًا أن يتركوها أو يُغفلوها، يقول عبد الواحد المراكشي: «ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلاّ مَنْ عَلِمَ الفروع -أعني فروع مذهب مالك- فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعُمِلَ بمقتضاها، ونُبِذَ ما سواها، وكثر ذلك حتى نُسِيَ النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ؛ فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل مَنْ ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكراهة السلف له، وهجرهم مَنْ ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدّى أكثره إلى اختلال في العقائد في أشباه لهذه الأقوال، حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعَّد مَنْ وُجِدَ عنده شيء من كتبه، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي -رحمه الله- المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدّم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى مَنْ وُجِدَ عنده شيء منها، واشتد الأمر في ذلك»[١].

لقد أحرق علي بن يوسف بن تاشفين بالفعل كتب أبي حامد الغزالي، باعتبارها تخالف الإسلام الصحيح، وهو الإمام الذي لقب بحجة الإسلام، وكان سيد فقهاء المشرق، وهو الذي أفتى ليوسف بن تاشفين بحكم الشرع في ملوك الطوائف، فكانت فتواه أقوى ما استند إليه يوسف في إزالة ممالك الطوائف وتوسيع دولة المرابطين!

النتائج التي ترتبت على تعمق العلماء في الفروع دون الأصول

كان اتِّجاه العلماء في ذلك الوقت إلى التعمُّق في الفروع وإهمال الأصول، كمَنْ ترك لُجَّة البحر واتجه إلى القنوات الفرعية، فأنّى له الوصول؟! وأنّى لعمله الفائدة المرجوّة منه؟! فكان –ونتيجة طبيعية لذلك– أن نتج عن هذا القلب الخاطئ، وذاك التعمق في الفروع تلك الأمور الخطيرة التالية:

جدال عظيم عقيم بين العلماء والعامة

وذلك أن العلماء لم يفهموا أو لم يستطيعوا أن يتفهموا حاجة العامة، كما لم تعرف العامة ما يتنطّع به العلماء، وقد كان نبينا –وهو أعلم البشر، وأحكم الخلق– يتكلّم بالكلمة فيفهمه علماء الصحابة ويفهمه الأعرابي البسيط، كما كان يفهمه الرجل وتفهمه المرأة، والكبير والصغير، كلٌّ على حدٍّ سواء.

عزلة العلماء عن مجتمعاتهم

باتجاه العلماء إلى دقائق الأمور من الفروع لم يَعُدْ يشغلهم حال مجتمعاتهم، ولم يعودوا هم يعرفون شيئًا عمّا يدور فيها، وما يحلُّ بها من مصائب وذنوب، فتوسّعت الهوّة كثيرًا بينهم وبين مجتمعاتهم، وحدثت بذلك عزلة خطيرة لهم في العهد الأخير للمرابطين؛ فكانت الخمور تُباع وتُشترى، بل وتُصنّع في البلاد ولا يتكلّم أحد، وكانت الضرائب الباهظة تُفرض على الناس غير الزكاة وبغير وجه حقٍّ، ولا يتكلّم من العلماء أحد، وكان الظلم من الولاة لأفراد الشعب ولا يتكلم من العلماء أحد، وكانت هناك ملاهي الرقص لا تُستر، بل تُعلِن عن نفسها في سفور ولا يتكلم من العلماء أحد، وإنه لعجب والله! أن تحدث مثل هذه الأمور في هذا الزمن (من بعد سنة خمسمائة من الهجرة) وتلك الدولة المرابطية، فقد كانت النساء تخرج سافرات بلا حجاب، والعلماء لاهون بالحديث عن المرجئة والمعطِّلة، وغيرها من أمور الجدال

العقيمة والفُرقة المقيتة، ويعتقدون أن مثل هذه الأمور هي التي يجب أن يُشغَل بها المسلمون، وغيرها هي الأقل أهمية من وجهة نظرهم[٢].

أزمة اقتصادية حادة

كان من بين شواهد الانكسار الأخرى في نهاية دولة المرابطين، وبعد فتنة الدنيا والمال، وغياب الفهم الصحيح لتعاليم الإسلام، وكثرة الذنوب، وجمود الفكر عند العلماء وانعزالهم عن المجتمع، كان فوق كل هذه الأمور أن حدثت أزمة اقتصادية حادة في دولة المرابطين؛ ففي سنة (٥٣٢هـ) وقع السيل العظيم بطنجة، حمل الديار والجدر، ومات فيه خلق عظيم من الناس والدواب[٣]. وكذلك فتك الجراد بحقول الأندلس من سنة (٥٢٦هـ) وحتى سنة (٥٣١هـ)، فاشتدت المجاعة وانتشر الوباء في سنة (٥٢٦هـ) بأهل قرطبة، فكثر الموتى وبلغ مُدُّ القمح ١٥ دينارًا، وكان قد وقع قبل ذلك بسنة (٥٢٥هـ)، حريق ضخم في سوق الكتانين بقرطبة، واتصالها بسوق البز، كذلك حدث في سنة (٥٣٥هـ) حريق ضخم آخر في سوق مدينة فاس، فاحترقت سوق الثياب والقراقين وغير ذلك من الأسواق إلا البقالون، وأن ذلك كان في أول الليل فتلفت أموال جليلة، وافتقر فيه خلق كثير.

وبعض المصادر تتحدث -أيضًا- عن القحط الذي حلّ بالبلاد، فيبست الأرض وجفّ الزرع وهلكت الدواب.

وقد يرى البعض أن هذا من قبيل المصادفة البحتة والعجيبة في الوقت نفسه، لكنها والله! ليست مصادفة؛ بل هي في كتاب الله ومن سُنَنه الثوابت، يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وهذا كلام نوح في حديثه لقومه؛ حيث يقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ

﴿وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾

[نوح: ١٠- ١٣].

فالله I يبتلي المؤمنين دائمًا بالقحط وبالأزمات الاقتصادية الحادة عندما يبتعدون عن طريقه، وعن نهجه القويم الذي رسَمَهُ لهم، ومن هنا فلو لُوحظ تدهور في الحالة الاقتصادية لأحد البلدان أو المجتمعات، وبدأت الأموال تقِلُّ في أيدي الناس، وبدءوا يعملون لساعات وساعات ولا يحصل لهم ما يكفي لسدِّ رمقهم، أو ما يكفي لعيشهم عيشة كريمة، فاعلم أن هناك خللاً في العلاقة بين العباد وربهم I، وأن هناك ابتعادًا عن منهجه وطريقه المستقيم؛ إذ لو كانوا يُطيعونه لبارك لهم في أقواتهم وأرزاقهم.

هزائم المرابطين

هزيمة كتندة والقليعة

وبالطبع سبق وأعقب هذه الأحداث التي وقعت في بلاد المرابطين هزائم متعدِّدَة من قِبل النصارى، فكانت -كما ذكرنا- موقعة كتندة أو قتندة في سنة (٥١٤هـ=١١٢٠م)، والتي هُزم فيها المسلمون هزيمة منكرة[٧]، ومثلها وبعدها -أيضًا- كانت موقعة القليعة في سنة (٥٢٣هـ=١١٢٩م)، والتي مُني فيها المسلمون -أيضًا- بالهزيمة المنكرة.

الفصل الخامس

عصر السيطرة الموحدية ٥٤٠ - ٦٢٠هـ

محمد بن تومرت .. مؤسس دولة الموحدين

ابن تومرت (٤٧٣-٥٢٤ هـ - ١٠٨٠-١١٣٠م)

كانت دولة المرابطين تتّجه بقوّة نحو هاوية سحيقة وكارثة محقّقة، وكان لا بُدّ أن تتحقّق سُنّة الله تعالى بتغيير هؤلاء واستبدالهم بغيرهم، وهذا ما تمّ بالفعل؛ إذ قام سنة (٥١٢هـ = ١١١٨م) رجل من قبائل مصمودة الأمازيغية (البربرية) يُدعى محمد بن تومرت بثورة على المرابطين، وكان محمد بن تومرت صاحب منهج في التغيير والإصلاح مختلف بالكلية عن منهج الشيخ عبد الله بن ياسين -رحمه الله.

وقد وُلِدَ محمد بن تومرت هذا سنة (٤٧٣ هـ = ١٠٨٠ م) ، ونشأ في بيت متدين في قبيلة مصمودة، وقد نسب هو نفسه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، لكن غالبَ الأمر أنه من قبائل الأمازيغ (البربر) في هذه المنطقة، وقد ظلّ محمد بن تومرت في هذا البيت إلى سنة (٥٠٠هـ = ١١٠٧م)، وكان قد بلغ من العمر آنذاك ٢٧ سنة، وكان شغوفًا بالعلم، وكانت عادة الطلاب في ذلك الزمن أن يتجوّلوا في سائر البلاد الإسلامية؛ ليتعلموا من علماء المسلمين في مختلف الأقطار؛ ولهذا فقد سافر محمد بن تومرت في سنة (٥٠٠هـ = ١١٠٧م) إلى قرطبة وتلقّى العلم هناك، ولم يكتفِ بذلك بل عاد وسافر إلى بلاد المشرق، فذهب إلى الإسكندرية ثم إلى مكة، حيث أدّى فريضة الحج، وهناك تتلمذ على أيدي علماء مكة فترة من الزمان، ثم رحل إلى بغداد وقضى فيها عشر سنوات كاملة؛ يتلقّى العلم على أيدي علماء بغداد جميعهم، وكانت بغداد تموج آنذاك بتيارات مختلفة من علماء السنّة والشيعة والمعتزلة.. وغيرهم الكثير ممن أخذ وتلقّى على أيديهم العلم.

وذهب محمد بن تومرت بعد ذلك إلى المشرق، وتَذْكُر بعض المصادر أنه تلقّى العلم على الإمام أبي حامد الغزالي -رحمه الله- إلا أن هذا غير صحيح بيقين- وعاد بعدها إلى الإسكندرية ثم إلى بلاد المغرب العربي، ويصف ابنُ خلدون محمد بن تومرت بعد عودته تلك في سنة (٥١٢ هـ= ١١١٨م) وكان قد بلغ من العمر ٣٩ سنة، فيقول: أصبح محمد بن تومرت «بحرًا متفجرًا من العلم، وشهابًا واريًا من الدين». يعني أنه جمع علومًا كثيرة وأفكارًا جمّة من تيارات إسلامية مختلفة، وأصبح بالفعل من كبار علماء المسلمين في هذه الآونة.

منهج التغيير عند ابن تومرت

في طريق عودته من بلاد العراق والشام مكث محمد بن تومرت فترة في الإسكندرية يُكمل فيها تعليمه، وهناك بدأ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن خلال سيرته ورغم أنه -كما ذكرنا- كان عالمًا كبيرًا، إلاّ أنه كان شديدًا غاية الشِدّة في إنكار المنكر والأمر بالمعروف، شِدّة تصل إلى حدِّ التنفير، فكان يَنْفِرُ عنه كثير من الناس حينما يأمرهم بالمعروف أو ينهاهم عن المنكر، حتى إنه خرج من الإسكندرية مطرودًا منها، طرده واليها بعدما خشي منه، ثم ركب في سفينة متّجهة إلى بلاد المغرب العربي، وعلى السفينة -أيضًا- ظلّ ابن تومرت على حِدّته في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فمنع الخمور على ظهر السفينة، وأمر بقراءة القرآن.

واشتدّ على الناس واختلف معهم كثيرًا، فألقوه في عُرض البحر، وتركوه وساروا إلى بلاد المغرب، وهو يسبح بإزاء السفينة نصف يوم كامل، فلما رأوا ذلك اشفقوا عليه، وأنزلوا مَنْ أخذه من البحر وعظم في صدورهم، ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب[٧]، وفي تونس تنتهي رحلته فينزل إلى بلد تُسَمّى المهدية، ولما انتهى إلى المهدية نزل بمسجد مغلق،

وهو على الطريق، وجلس في طاق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة فلا يرى منكرًا من آلة الملاهي، أو أواني الخمر إلا نزل إليها وكسرها، فتسامع الناس به في البلد فجاءوا إليه وقرءوا عليه كتبًا من أصول الدين.

محمد بن تومرت .. مؤسس دولة الموحدينكان ابن تومرت يُريد تغيير المنكر كله تغييرًا جذريًّا ودفعة واحدة، والحقُّ أن هذا أمر مخالف لسُنَن الله تعالى؛ فحين بدأ الرسول بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مكة لم يأمر بهذا التغيير الجذري المفاجئ ولا سعى إليه، بل إن الأمور كانت تتنزل عليه من عند الله بصورة متدرِّجَة؛ فقد نزل أمر اجتناب الربا على درجات متسلسلة، ومراعية للتدرُّج مع الناس، وكذلك كان الأمر في تحريم الخمور وتجريمها، والناس قبل ذلك لم تكن تعرف لكليهما حرمة، حتى في أمر الجهاد والقتال في سبيل الله؛ فلم يتنزل هذا التكليف دفعة واحدة.

تلك الأمور التي فقهها جيدًا عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- حين تولَّى الخلافة الأموية؛ فقد كانت هناك كثير من المنكرات في دمشق وما حولها من البلاد، وكان ابن عمر بن عبد العزيز -رحمهما الله- شديدًا في الحقِّ، فأراد أن يُغَيِّرَ كل هذه المنكرات مستقويًا بسلطان أبيه، إلاَّ أنه وجد أباه عمر بن عبد العزيز يسير فيها بطريقة متدرِّجة فشقَّ ذلك عليه، فذهب إليه، وقال له: يا أبي؛ أنت تملك الأمور الآن، ولك هيمنة على بلاد المسلمين، فيجب أن تُغَيِّرَ هذا المنكر كله، وتُقيم الإسلام كما ينبغي أن يُقام. فقال له عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: يا بُنَيِّ؛ لو حملتُ الناس على الحقِّ جملةً واحدة تركوه جملةً واحدة.

لكن محمد بن تومرت لم يكن ينحو مثل هذا المنحى، إنما يُريد أن يُغَيِّرَ كل شيء تغييرًا جذريًّا، بل وبأسلوب فظٍّ شديد، وقد قال جلَّ شأنه يخاطب نبيّه الكريم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا

مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. خطابٌ لشخصه ؛ وهو المؤيَّد بالوحي، وأحكم الخلق، وأعلم البشر جميعًا: إن دعوتَ إلى الله بفظاظة وغلظة انفضَّ الناس عنك، فما البال بعموم الناس من دونه؟!

ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي

ولما كان ابن تومرت في بجاية قابل رجلاً، كان يُريد هو -أيضًا- ما كان يُرِيده ابن تومرت في أوّل رحلته في طلب العلم إلى الأقطار الإسلامية المختلفة، ذلك الرجل كان يُدعى عبد المؤمن بن علي، وفي أول لقاء له به سأله عن سبب تركه لبلاده وسياحته في البلاد، فأجابه بأنه يبحث عن العلم والدين، فردَّ عليه محمد بن تومرت بأن بضاعتك وما تبغيه لديَّ، فالتقيا كثيرًا، وقد أخذ محمد بن تومرت يُعَلِّمُه من علمه ما أعجب عبد المؤمن بن علي كثيرًا، وتآخيا في الله، وظلاّ معًا في طريقهما لم يفترقا حتى مات محمد بن تومرت على نحو ما سيأتي بيانه.

أخذ عبد المؤمن بن علي العلم من ابن تومرت مع الطريقة الفظّة في الدعوة إلى الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدأ الاثنان معًا يدعوان إلى الله في بلاد المغرب العربي، وقد انضمَّ إليهما خمسة آخرون، وأصبحوا بذلك سبعة أفراد بمحمد بن تومرت نفسه ، وعلى هذه الحال وجد محمد بن تومرت ومن معه أن المنكرات قد كثُرت بصورة لافتة في بلاد المرابطين، ووجد أن الخمور قد تفشّت حتى في مراكش، تلك العاصمة التي أسَّسها يوسف بن تاشفين -رحمه الله- من قبل، وكانت ثغرًا من ثغور الإسلام، كما رأى الولاة وقد بدءوا يظلمون الناس، ويفرضون عليهم الضرائب، ويأكلون أموال اليتامى، ووجد -أيضًا- ذاك السفور والاختلاط قد انتشر وصار شيئًا مألوفًا بين الناس؛ حتى إنه شاهد بنفسه امرأة سافرة وقد خرجت في فوج كبير، وعليه حراسة مما يماثل أفواج الملوك، وحينما سأل عن صاحبة هذا الفوج وتلك المرأة السافرة، علم أنها أخت أمير المسلمين علي

بن يوسف بن تاشفين، فأنكر ذلك عليها إنكارًا شديدًا؛ حتى إن بعض المصادر تثبت أنه وأصحابه كانوا يضربون وجوه مطاياها حتى أوقعوها من عليه.

بين علي بن يوسف بن تاشفين ومحمد بن تومرت

سمع علي بن يوسف بن تاشفين بمحمد بن تومرت وبدعوته، وبمنطق سليم فكَّرَ الخليفة في عقد مناظرة بين محمد بن تومرت وبين علماء دولة المرابطين، يكون مقرُّها قصر الخليفة نفسه، فقدم محمد بن تومرت على رأس أتباعه الستة، وأتى علماءُ دولة المرابطين، وكان على رأسهم كبير العلماء وقاضي القضاة مالك بن وهيب، وبدأ الفريقان في المناظرة.

ونظرة أولية إلى فكرة عَقْد مثل هذه المناظرة يُوحي بأن علي بن يوسف بن تاشفين كان رجلاً ما زال يحمل من الخير الكثير، وإلاّ فإنه -وعلى أقلِّ تقدير- كان من الممكن أن يفتعل مثل هذه المناظرة ويقوم بعدها بسجن محمد بن تومرت، أو قتله أو فعل أيِّ شيء آخر من هذا القبيل، خاصّة وهو ذلك الثائر على الحاكم، والذي يُريد قلب وتغيير نظام الحُكم، وهذا ما سيزداد تأكيدًا في نهاية هذه المناظرة في صالح الأمير على نحو ما سيأتي.

وفي هذه المناظرة تفوَّق محمد بن تومرت على علماء دولة المرابطين تفوّقًا ملحوظًا؛ فقد كان -كما ذكرنا- من كبار العلماء المتشبِّعين بالعلم، وكان كما وصفه ابن خلدون بحرًا متفجِّرًا من العلم وشهابًا في الدين، وهو الذي أمضى عشر سنين في بغداد يتعلَّم علم المجادلة، وفنون المحاورة على يد العقليين من المعتزلة وغيرهم، فاستطاع ابن تومرت أن يحاجَّ علماء دولة المرابطين جميعًا في كل القضايا التي أُثيرت بينه وبينهم، حتى بكى علي بن يوسف بن تاشفين في مجلسه ؛ لما رأى من كثرة المعاصي في دولته، وهو لا يدري عنها شيئًا، أو هو يدري عنها لكنه لم يُغيِّرْها، بكى من الخشية لَمَّا سمع حجج وأقاويل ابن تومرت، لكن ذلك لم يشفع له عنده، وظلّت الحِدّة واضحة جلية في كلامه وحديثه مع الأمير.

وكان علماء الدولة ووزراؤها يعلمون أنه يُحَرِّض الناس على الخروج على الحاكم، فأسَرَّ مالك بن وهيب قاضي القضاة في أُذنِ علي بن يوسف بن تاشفين؛ بأنَّ عليه أن يعتقل هذا الرجل، ويُنفق عليه دينارًا كل يوم في السجن، وإلا ستمرُّ عليك الأيام فتُنفق عليه كل خزائنك دون أن تقدر عليه؛ لكن الوزير أشار على علي بن يوسف بن تاشفين بعدم فعل ذلك؛ خاصَّة وأنه جلس في مجلسه وبكى من خشية الله حين سمع كلماته، فلا يُعقل أن تأتي بعد ذلك وتعتقله، فتَحْدُث بذلك بلبلة عند عموم الناس، كما أنه بمَنْ معه سبعة نفر فقط، أمَّا أنت فحاكم دولة ضخمة، وهي دولة المرابطين؛ فكيف تخشى من هذا الرجل؟!

وازن عليٌّ بن يوسف بن تاشفين بين رأي مالك بن وهيب قاضي القضاة وبين رأي الوزير، واستقرَّ أخيرًا على ترك محمد بن تومرت؛ خشية أن يأثم إن حبسه دون وجه حقٍّ؛ فالرجل ما زال به خير، وكان من الممكن أن يُصلح أمره إذا حاول معه محمد بن تومرت ومَنْ معه بالتي هي أحسن، لكنه لم يفعل

جماعة الموحدين

ما أن خرج محمد بن تومرت من مجلس الأمير علي بن يوسف بن تاشفين من مراكش حتى نزل على صديق له في بلد مجاور، وذهبوا بعدها إلى قرية في عمق الجبل اسمها تينملل، وهي التي ستكون عاصمة للدولة التي سوف يُؤَسِّسها محمد بن تومرت بعد ذلك.

وكان محمد بن تومرت زاهدًا أشدَّ الزهد، وكان لا يحمل في يده إلا عصا وركوة، ولا يأكل إلا القليل من الطعام، وكان -كما ذكرنا- صاحب علم غزير، فبدأ الناسُ في هذه القرية الصغيرة يلتفُّون حوله ويسمعون لكلامه، وبدأ يُؤَثِّر فيهم بشكل طبيعي؛ لِمَا كانوا عليه من المعاصي والمنكرات، تلك التي

انتشرت في بلاد المرابطين، ثم بدأ يُكَوِّن حوله جماعة بدأت صغيرة، وقد سمَّاها جماعة الموحدين، وهي تسمية خطيرة لما سنعلمه بعد قليل.

دعوة ابن تومرت وطريقة تربيته

ابن تومرت ومنهجه في التغييريذكر عبد الواحد المراكشي مراحل دعوة ابن تومرت وتربيته الناس في تينملل، فيقول: «من هذا الموضع قامت دعوته وبه قبره، ولما نزله اجتمع إليه وجوه المصامدة، فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير من غير أن يُظهر إمرة ولا طلبة ملك، وألّف لهم عقيدة بلسانهم، وكان أفصح أهل زمانه في ذلك اللسان، فلمَّا فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له، وأُشربت قلوبهم محبته، وأجسامهم طاعته، فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه؛ أولاً على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير، ونهاهم عن سفك الدماء، ولم يأذن لهم فيها، وأقاموا على ذلك مدة، وأمر رجالاً منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل، وجعل يذكر المهدي ويُشَوِّق إليه، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنفات، فلمَّا قَرَّر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته، ادعى ذلك لنفسه، وقال: أنا محمد بن عبد الله. ورفع نسبه إلى النبي وصرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروى في ذلك أحاديث كثيرة؛ حتى استقر عندهم أنه المهدي، وبسط يده فبايعوه على ذلك، وقال: أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسولِ الله رسولَ الله. ثم صنَّف لهم تصانيف في العلم منها: كتاب سماه (أعز ما يطلب)، وعقائد في أصول الدين، وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلا في إثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها، وفي مسائل قليلة غيرها، وكان يُبطن شيئًا من التشيُّع، غير أنه لم يَظهر منه إلى العامة شيء».

انحرافات ابن تومرت العقائدية والمنهجية

قويت شوكة محمد بن تومرت، وبمجرَّد أن قويت شوكته ظهرت عليه انحرافات عقائدية خطيرة؛ فقد كان لأخذه العلم من تيارات مختلفة تُمَثِّل سنة وشيعة ومعتزلة، وغيرهم في بلاد الشام وبغداد ومكة ومصر وغيرها من البلاد، كان من جرَّاء ذلك أن ظهر عليه خليط من العقائد المختلفة؛ والتي تمثّلت فيما يلي:

ادعى العصمة

وعند أهل السنة والجماعة أن العصمة لم تَثْبُت إلاّ للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ولم يقولوا بها لغيرهم، حتى لكبار الصحابة الذين خَصَّهم الله بالفضل؛ كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم؛ فابن تومرت بهذا النهج قد وافق الرافضة الاثني عشرية، الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم؛ حيث يقولون بوجوب عصمتهم من الكبائر والصغائر والنسيان، كما قالوا: إن الإمام كالنبي، يجب أن يكون معصومًا من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سنّ الطفولة إلى الموت، عمدًا وسهوًا، كما يجب أن يكون معصومًا من السهو والخطأ والنسيان.

وهكذا نرى محمد بن تومرت قد اشتطّ كثيرًا في القول بالعصمة لنفسه، وهذا -بلا شكّ- انحراف عقدي خطير؛ لأن الاعتراف بعصمته أو عصمة غيره يُوجب الإيمان بكل ما يقوله، فقد أعطاه ذلك معنى النبوة، وإن لم يُعطه لفظها.

ادعى أن المرابطين من المجسمة

كان المرابطون يُثبتون لله تعالى صفاته كما هي، لكن محمد بن تومرت أخذ فكر المعتزلة في نفي الصفات عن الله ، وهي قضية جدليّة طويلة لا نُريد الخوض في تفصيلاتها، وخلاصة الأمر في ذلك أنه لما أثبت أنّ

المرابطين يُثبتون الصفات لله ، ادَّعى أنهم من المجسمة؛ وتبعًا لهذا الادعاء فقد قال بكفر المرابطين، وادَّعى أن علي بن يوسف بن تاشفين ومَنْ معه من الولاة والعلماء، ومَنْ يعمل تحت حكمهم ومَنْ يَرضى بحُكمهم، هو من الكافرين.

وهذا منحى خطير؛ إذ إنه كفَّر حُكَّام الدولة التي كان يعيش فيها، وهي دولة المرابطين التي تشمل بلاد الأندلس وبلاد المغرب في ذلك الوقت.

فكان يقول لأتباعه: «واشتغلُوا بتعليم التوحيد فإنه أساس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق الشبيه والشريك والنقائص، والآفاق والحدود والجهات، ولا تجعلوه -سبحانه- في مكان أو جهة، فإنه تعالى موجُود قبل الأمكنة والجهات، فمن جعله في جهة ومكان فقد جسَّمه، ومَنْ جسمه فقد جعله مخلوقًا، ومن جعله مخلوقًا فهو كعابد وثن».

لقد تبنَّى ابن تومرت منهج المعتزلة في الأسماء والصفات؛ حيث نفى كل ما عساه أن يُوهم الشبه والمثلية لله سبحانه، حتى ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله تعالى في الكتاب والسُّنَّة؛ ولهذا سَمَّى أصحابه بالموحدين؛ لأنهم في رأيه هم الذين يُوَحِّدُون الله لنفيهم الصفات عنه ، كما كان يُسَمِّي أتباعه بالمؤمنين، ويقول لهم: «ما على وجه الأرض مَنْ يُؤمن إيمانكم».

استحل دماء المرابطين

وتبعًا لهذا التكفير السابق لغير الموحدين استحلّ محمد بن تومرت دماء المرابطين؛ ومِنْ ثَمَّ فقد أمر بالخروج عليهم وقتلهم، وأنه ليس هناك إثم في ذلك؛ بل إن في قتلهم إحرازًا لثواب عظيم، وهنا يَبْرز أحد أخلاق محمد بن تومرت فقد كان متساهلاً في الدماء، وهي خاصية من خصائص الخوارج، الذين تَعَلَّم على أيدي بعضهم -كما ذكرنا- أثناء رحلته لطلب العلم.

كان ابن تومرت يهدف إلى هدم دولة المرابطين من جذورها، وبناء دولة الموحدين على أنقاضها مهما كلّفه ذلك؛ وقد استباح في سبيل ذلك الدماء والأرواح والأموال، وكانت غايته تلك مبرِّرَة -من وجهة نظره- لكل وسيلة، فكان لا يتردَّد في قتل مَنْ يشكُّ في إيمانه بما يدَّعيه من مبادئ، حتى ولو كان من أتباعه؛ فقد قام ابن تومرت بما سمِّي التمييز؛ أي: تمييز أتباعه الصادقين من المداهنين والمنافقين والمخالفين، فيقتلهم على الفور ليظلّ صفّه قويًّا.

ومن المعلوم أنّ من أهمّ مقاصد الشريعة الإسلامية الحفاظ على النفس، وما فعله هذا الآثِم إنما هو اعتداء بغير حقٍّ على أنفسٍ حرّم الله إزهاقها، وفي فعله هذا انحراف واضحٌ عن الشرع، وارتكاب متعمَّد للكبائر، وقد قال الله تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٣].

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله؛ حيث يقول -سبحانه- في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًّا... منها: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ».

إن أمر القتل في غاية الخطورة ولا يستحلُّه إلاّ مَنْ تجرَّد من كل معاني الأخلاق والرحمة ومن كل المعاني الإنسانية.

وفي البخاري ومسلم أن رسول الله قال:"لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؛ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ".

يقول الأستاذ سيد قطب –رحمه الله: «إنها جريمة قتل لا لنفس فحسب –بغير حقٍّ– ولكنها –كذلك– جريمة قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة التي أنشأها الله بين المسلم والمسلم، إنها تنكُّر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها؛ ومن ثَمَّ قُرنت بالشرك في مواضع كثيرة؛ واتجه بعضهم –ومنهم ابن عباس– إلى أنه لا توبة منها.. ولكن البعض الآخر استند إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] [النساء: ١١٦]،، فرجّا للقاتل التائب المغفرة.. وفسَّر الخلود بأنه الدهر الطويل. والذين تربَّوا في مدرسة الإسلام الأولى، كانوا يَرَوْنَ قاتلي آبائهم وأبنائهم وإخوانهم –قبل إسلامهم– يمشون على الأرض –وقد دخلوا في الإسلام– فيهيج في نفوس بعضهم ما يهيج من المرارة، ولكنهم لا يُفَكِّرُون في قتلهم، لا يُفَكِّرُون مرَّة واحدة؛ ولا يخطر لهم هذا الخاطر في أشدِّ الحالات وجدًا ولذعًا ومرارة؛ بل إنهم لم يُفَكِّرُوا في إنقاصهم حقًّا واحدًا من حقوقهم، التي يُخَوِّلها لهم الإسلام».

كان لا بُدَّ لنا من هذا الوقفة مع هذا الأمر الخطير؛ أمر الدماء التي استحلَّها هذا الآثم المخادع، أمَّا عملية التمييز التي سبق الإشارة إليها فقد استعان فيها ابن تومرت برجل على شاكلته يُسَمَّى أبو عبد الله بن محسن الونشريشي، وكان يُلَقِّبه بالبشير؛ إمعانًا في خداع الناس وإضلالهم، وقد طلب ابن تومرت من هذا الفاسق أن يُخفي علمه وحفظه للقرآن، ويظهر أمام القبائل كأنه مجنون يسيل لعابه على وجهه.

قال الذهبي: «فلمَّا كان عام تسعة عشر وخمسمائة (٥١٩ هـ) خرج يومًا، فقال: تعلمون أن البشير –يُريد الونشريشي– رجل أُمِّيٌّ، ولا يثبت على دابَّة، فقد جعله الله مُبَشِّرًا لكم، مُطَّلِعًا على أسراركم، وهو آية لكم قد حفظ

القرآن، وتعلّم الركوب، وقال: اقرأ. فقرأ الختمة في أربعة أيام، وركب حصانًا وساقه، فبُهتوا، وعَدّوها آية لغباوتهم، فقام خطيبًا، وتلا: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وتلا: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهذا البشير مُطّلع على الأنفس مُلْهَم، ونبيكم يقول: «إِنَّ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مُحَدَّثِينَ، وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ».

وقد صَحِبَنَا أقوام أطلعه الله على سرِّهم، ولا بُدَّ من النظر في أمرهم، وتَيَمُّمِ العدل فيهم، ثم نودي في جبال المصامدة: مَنْ كان مطيعًا للإمام فليأت. فأقبلوا يهرعون، فكانوا يُعْرَضون على البشير، فيُخرج قومًا على يمينه، ويَعدُّهم من أهل الجنة، وقومًا على يساره، فيقول: هؤلاء شاكّون في الأمر. وكان يُؤْتَى بالرجال منهم، فيقول: هذا تائب رُدُّوه على اليمين تاب البارحة. فيعترف بما قال، واتفقت له فيهم عجائب، حتى كان يُطلق أهل اليسار، وهم يعلمون أن مآلهم إلى القتل، فلا يفرُّ منهم أحد، وإذا تجمَّع منهم عِدَّة، قتلهم قراباتُهم حتى يقتل الأخ أخاه!» .

وأورد ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) هذا الأمر فقال: «وكان الونشريشي يلزم الاشتغال بالقرآن والعلم في السرِّ؛ بحيث لا يعلم أحدٌ ذلك منه، فلمَّا كان سنُّه تسع عشرة، وخاف المهدي -ابن تومرت- من أهل الجبل، خرج يومًا لصلاة الصبح، فرأى إلى جانب محرابه إنسانًا حسن الثياب، طيب الريح، فأظهر أنه لا يعرفه، وقال: مَنْ هذا؟ فقال: أنا أبو عبد الله الونشريشي. فقال له المهدي: إن أمرك لعجبٌ! ثم صلّى، فلما فرغ من صلاته نادى في الناس فحضروا، فقال: إنَّ هذا الرجل يزعم أنه الونشريشي فانظروه، وحقِّقُوا أمره. فلما أضاء النهار عرفوه، فقال له المهدي: ما قِصَّتُك؟ قال: إنني أتاني الليلة مَلَكٌ من السماء، فغسل قلبي، وعلَّمَنِي الله القرآن والموطأ، وغيره من العلوم والأحاديث. فبكى المهدي بحضرة الناس، ثم قال له: نحن نمتحنك. فقال: افعل.

وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أيِّ موضع سُئِلَ، وكذلك الموطـأ، وغيره من كتب الفقه والأصول، فعَجِبَ الناسُ من ذلك، واستعظموه، ثم قـال لهم: إن الله تعالى قد أعطاني نورًا أعرف به أهل الجنة من أهل النار، وآمركم أن تقتلوا أهل النار، وتتركوا أهل الجنة، وقد أنزل الله تعالى ملائكة إلى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقِي.

فسار المهدي والناس معه وهم يبكون إلى تلك البئر، وصلّى المهـدي عند رأسها، وقال: يا ملائكة الله؛ إن أبا عبد الله الونشريشي قد زعـم كيـت وكيت. فقال مَنْ بها: صدق. وكان قد وضع فيها رجالاً يشهدون بذلك، فلمّـا قيل ذلك من البئر، قال المهدي: إن هذه مطهرة مقدسة قد نزل إليها الملائكة، والمصلحة أن تُطَمَّ لئلاّ يقع فيها نجاسة، أو ما لا يجـوز. فـألقَوْا فيهـا مـن الحجارة والتراب ما طَمَّهَا -وبهذا يكون قد قتل الرجال الذين اتّفق معهم على هذا القول؛ لئلاّ يُفْتَضح أمره- ثم نادى في أهل الجبل بالحـضور إلـى ذلـك المكان، فحضروا للتمييز، فكان الونشريشي يعمد إلى الرجـل الـذي يخـاف ناحيته، فيقول: هذا من أهل النار. فيُلْقَى من الجبل مقتولاً، وإلى الشاب الغـرِّ ومَنْ لا يخشى، فيقول: هذا من أهل الجنة. فيُتْرَك على يمينه، فكان عدة القتلى سبعين ألفًا، فلما فرغ من ذلك أَمِنَ على نفسه وأصحابه».

هذا فِعْلُ ابن تومرت بمَنْ معه، فكيف يكون فعله بالمرابطين؟!

ولقد رُويت عنه كثير من الأخبار التي احتال فيها؛ حتى ظهر وكأنـه يعلم الغيب، ولا نشك أن له عيونًا وأتباعًا، كما لا شك في أنه شخصية قويـة ذات بصر وخبرة وفراسة، يروي المراكشي واقعة منها فيقول: «أخبرني مَـنْ رآه -ممن أثق إليه- يضرب الناسَ على الخمر بالأكمـام والنعـال وعـسب النخل؛ متشبهًا في ذلك بالصحابة. ولقد أخبرني بعض مَنْ شهده وقد أتى برجل سكران، فأمر بحدِّه، فقال: رجلٌ من وجوه أصحابه يُسَمَّى يوسف بن سليمان: لو شدَدْنَا عليه حتى يُخبرنا من أين شربها لنَحْسم هـذه العلـةَ مـن أصـلها.

فأعْرَض عنه، ثم أعاد عليه الحديث، فأعرض عنه، فلما كان في الثالثة قال له: أرأيت لو قال لنا: شربتُها في دار يوسف بن سليمان. ما نحن صانعون؟ فاستحيا الرجل وسكت، ثم كُشف على الأمر، فإذا عبيدُ ذلك الرجل سقَوه، فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيمًا، إلى أشياءَ كان يُخبر بها فتقع كما يُخبر، ولم يزل كذلك وأحوالُه صالحة، وأصحابه ظاهرون، وأحوال المرابطين المذكورين تَختَلّ، وانتقاض دولتهم يتزيد، إلى أن تُوُفِّيَ ابن تومرتَ... بعد أن أسس الأمور، وأحكم التدبير، ورسم لهم ما هم فاعلوه».

كذلك يروي الذهبي في سير أعلام النبلاء: «وقد بلغني فيما يُقال: أن ابنَ تُومرت أخفى رجالاً في قبور دَوَارِسَ، وجاء في جماعة لِيُرِيهم آية، يعني فصاحَ: أيُّها الموتى أجيبوا. فأجابوه: أنتَ المهدي المعصومُ، وأنت وأنت.. ثم إنه خاف من انتشارِ الحيلة، فخسف فوقهم القبور فماتوا».

وقفة مع ابن تومرت وجماعته

كان محمد بن تومرت في جماعته الجديدة يقتل العشرات من المخالفين له، حتى من فرقته وجماعته (الموحدين)، فالذي يُخَالِفُه في الرأي ليس له من دواء إلاّ القتل، وهو أمر في غاية الغرابة؛ نظرًا لما عنده من العلم الغزير، وأغرب منه كان ادعاؤه بعض الخوارق، وأنه هو المهدي المنتظر!

ولا شكَّ في أنْ يعتقدَ صِدقَه وما يذهب إليه من أقواله تلك كثيرٌ من الناس؛ وذلك -كما ذكرنا- لانشغال علماء الدولة بالأمور الفرعية عن تعليم هؤلاء الناس أصول العقائد وأصول العبادات، فقد أقام العلماء جدارًا عازلاً بينهم وبين العامَّة، الذين لا يعرفون أين الحقّ وأين الباطل، والذين لا يستطيعون أن يُمَيِّزُوا بين الغثِّ والسمين.

ومن هنا حين رأى مثل هؤلاء الناس رجلاً مثل محمد بن تومرت في شخصُ العالم الكبير، وهو يروي من أحاديث رسول الله ﷺ عن فلان وفلان، ثم

هو يحفظ كتاب الله ، ويعلم سِيَرَ الصالحين والسابقين، ويعلم فقه كذا وكذا، حين رأوا ذلك ما كان منهم إلا أن يسمعوا ويطيعوا لما يقوله، وما يمليه عليهم عالمهم ومعلمهم، وقد اعتقدوا جميعًا بعصمته، واعتقدوا جميعًا بِحلِّ قتل المرابطين، بل والثواب الجزيل على قتلهم.

ولنا أن نتخيّل-مثل هذا الأمر في حقِّ المرابطين، الذين فتحوا البلاد، وأقاموا صرح الإسلام في بلاد المغرب والأندلس لسنوات وسنوات، الآن وبعد ظهور بعض المنكرات في بلادهم، وبعد انشغالهم بالجهاد عن التعليم، أصبحوا يُكَفّرون وتُحَلُّ دماؤهم، ويُقَاتَلون من قِبَلِ جماعة الموحِّدين، ذلك الاسم (الموحِّدين) الذي يُشير بقوَّة إلى أن غيرهم كفار وليسوا بموحدين أو مسلمين.

المواجهة بين المرابطين والموحدين

حمل محمد بن تومرت على عاتقه وعاتق جماعته -الموحدين- أمر مقاتلة المرابطين وسفك دمهم.

يقول ابن خلدون ملخصًا معارك المرابطين والموحدين: «ولما تمَّ له (ابن تومرت) خمسون من أصحابه سمَّاهم ايت الخمسين، وزحف إليهم عامل السوس أبو بكر بن محمد اللمتوني بمكانهم من هرغة، فاستجاشوا بإخوانهم من هنتاتة وتينملل، فاجتمعوا إليه، وأوقعوا بعسكر لمتونة، فكانت هزمة الفتح، وكان الإمام (أي: ابن تومرت) يَعِدُهم بذلك، فاستبصروا في أمره (أي تأكدوا من صدق ابن تومرت)، وتسابق كافتهم إلى الدخول في دعوته، وترددت عساكر لمتونة إليهم مرَّة بعد أخرى ففضُّوهم... وكانوا يُسَمّون لمتونة الحشم، فاعتزم على غزوهم، وجمع كافَّة أهل دعوته من المصامدة، وزحف إليهم فلقوه بكيك، وهزمهم الموحدون واتبعوهم إلى أغمات، فلقيهم هنالك زحوف لمتونة مع بكر بن علي بن يوسف، وإبراهيم بن تاعباشت، فهزمهم الموحدون...».

لقد استطاع ابن تومرت أن يتحصن في تينملل وأن يُخرج منها الجيوش التي تفتك بدولة المرابطين، ولقد استطاع بطبيعة الحال أن يُوَسِّع الأرض التي حوله والتي ينطلق منها، ولقد التقوا مع المرابطين في مواقع عديدة؛ كان منها تسع مواقع ضخمة، انتهت سبع منها بانتصارهم على المرابطين، وهُزموا في اثنتين.

وأكبر هزائمهم كانت حين استفحل خطرهم فجهز لهم علي بن يوسف بن تاشفين جيشًا كبيرًا، ثم خرج من الموحدين جيش كبير على قيادته عبد المؤمن بن علي، يروي عبد الواحد المراكشي كيف سارت المعركة فيقول: «ولما كانت سنة ٥١٧هـ جهز جيشًا عظيمًا من المصامدة، جُلُّهُم من أهل تينملل مع مَنِ انضاف إليهم من أهل سوس، وقال لهم: اقصدوا هؤلاء المارقين المبدِّلِينَ، الذين تسمَّوْا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف، وإزالة البدع، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم، فإن أجابوكم فهم إخوانكم، لكم ما لهم وعليهم ما عليكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم؛ فقد أباحت لكم السُّنَّة قتالهم. وأمَّر على الجيش عبد المؤمن بن علي وقال: أنتم المؤمنون، وهذا أميركم. فاستحقَّ عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين.

وخرجوا قاصدين مدينة مراكش، فلقيهم المرابطون قريبًا منها بموضع يدعى البحيرة، بجيش ضخم من سراة لمتونة، أميرهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين، فلمَّا تراءى الجمعان، أرسل إليهم المصامدة (من الموحدين) يدعونهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت، فردُّوا عليهم أسوأ ردٍّ، وكتب عبد المؤمن إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت، فردَّ عليه أمير المسلمين يُحَذِّره عاقبة مفارقة الجماعة، ويُذَكِّره الله في سفك الدماء وإثارة الفتنة، فلم يردع ذلك عبد المؤمن؛ بل زاده طمعًا في المرابطين، وحقَّق عنده ضعفهم، فالتقت الفئتان، فانهزم المصامدة وقُتِلَ منهم خلق كثير، ونجا

عبد المؤمن في نفر من أصحابه، فلمّا جاء الخبر لابن تومرت، قال: أليس قد نجا عبد المؤمن؟ قالوا: نعم. قال: لم يُفقد أحد».

وقفة مع تاريخ ابن تومرت

الحقيقة أن سيرة هذا الرجل فيها خلط كثير جدًّا، وتفاصيل كثيرة متشابكة في معظم الأحيان، وهي على تشابكها تتنافر وتتجاذب، فلا يدري المرء أي الأحداث أصدق، أو أيها أسبق، وبخاصة أن القدماء الذين كتبوا عن هذا الرجل لم يُؤَرِّخوا بدقّة له أو للأحداث في عهده، اللهم إلا في القليل جدًّا، وهذا أمر يُعذرون فيه؛ إذ إن الظروف التي أحاطت بالرجل، أو التي أحاط نفسه بها -عن قصد أو غيرِه- تَحُوْلُ دون الدقّة في الإخبار عنه؛ فلقد كان على غرابته ووحدته وصمته، دائم الترحال، ولم يستقرّ إلا في منطقة جبلية وعرة وحصينة؛ بل منهم مَن يقول: إنه استقر حينًا في منطقة وعرة، ثم ارتحل عنها بعد قليل (ثلاث سنوات تقريبًا) لمنطقة أخرى كانت أكثر حصانة منها ووعورة، وأشدَّ قسوة على أهلها ومَنْ راموهم بسوء، وهذا هو الأرجح، ولقد اعتمد على ساكني هذه المناطق في دعوته، ولنا أن نتوقّع حال مَنْ يسكن هذه المناطق وعقلياتهم، بل يكفينا أن نتذكّر أنهم ساروا خلفه رغم ادعائه الهدى والعصمة، ورغم ما فعله بهم يوم التمييز، ثم إنه قتل في يوم التمييز كلّ مَنْ كان يخافه على نفسه ودعوته وأتباعه من أهل الفهم بين هؤلاء القوم، وقتلهم بأيدي أهليهم، بل إن مِن المصادر مَن يذكر أن هؤلاء الذين قُتلوا لم يحاولوا الهرب، وانتظروا حتى قتلهم أهلوهم، وإن كان ثمة مصادر أخرى ذكرت ما يختلف عن هذا؛ فمنهم مَن قال: إنه متى ذُكر أن فلانًا من أهل النار يُكَتّف ثم يقتل. ومنهم من ذكر أنه كان يُلْقَى من أعلى الجبل في ساعتها، ومنهم.. ومنهم.. المهم أن أهل الفهم مِنْ هؤلاء لم يكونوا علماء، ولكنهم كانوا قومًا قد لا يصدقون كذبه وادعاءه، وينشرون ذلك بفطرتهم، فيُثَبِّطون به العزائم من حوله أو ما شابه؛ لهذا فإن المرء لا يَعْجَبُ إذا وجد أن كتاب

(أخبار المهدي ابن تومرت) لأبي بكر بن علي الصنهاجي الشهير بالبيذق - وقد كان من أتباع ابن تومرت المقربين، وسابع مَنْ بايعوه في تينملل- لم يكن يذكر تواريخ كثير من الأحداث، بل ولا حتى عام حدوثها، حتى معارك ابن تومرت نفسها لم يكن الرجل يذكر تواريخها ولا سنة وقوعها، اللهم إلا ما ذكره على سبيل الإجمال في نهاية كتابه عن أهم ما حدث من سنة ٥١٨هـ إلى سنة ٥٢٧هـ، فهذا رجل كان من كبار أتباع ابن تومرت، ولا يهتم أن يسوق الحدث ومعه تاريخ وقوعه؛ لذلك فإن المؤرخين معذورون في وقوع هذا الخلط.

معركة البحيرة

الصراع بين المرابطين والموحدين

كانت معركة البحيرة أو موقعة البستان سنة (٥٢٤هـ=١١٣٠م)، انتصر فيها المرابطون على الموحدين، وقُتِلَ فيها من الموحدين أربعون ألفًا، وهذه المعركة -البستان أو البحيرة- هي التي سُبقت بحادث التمييز؛ حيث قام ابن تومرت بقتل كلِّ مَنْ يشُكُّ في ولائه له، بل جعل أهلَهم وأقرباءهم هم الذين يقتلونهم، كما سبق الإشارة إلى هذا الأمر.

قال ابن الأثير: «فجهَّز المهدي -ابن تومرت- جيشًا كثيفًا يبلغون أربعين ألفًا، أكثرهم رجَّالة، وجعل عليهم الونشريشي، وسَيَّر معهم عبد المؤمن، فنزلوا وساروا إلى مراكش فحصروها، وضيَّقوا عليها، وبها أمير المسلمين علي بن يوسف، فبقي الحصار عليها عشرين يومًا، فأرسل أمير المسلمين إلى متولِّي سِجِلْمَاسة يأمره أن يحضر ومعه الجيوش، فجمع جيشًا كثيرًا وسار، فلما قارب عسكر المهدي خرج أهل مَرَّاكُش من غير الجهة التي أقبل منها، فاقتتلوا واشتدَّ القتال، وكثر القتل في أصحاب المهدي، فقُتِلَ الونشريشي أميرهم، فاجتمعوا إلى عبد المؤمن وجعلوه أميرًا عليهم. ولم يزل القتال بينهم عامَّة النهار، وصلَّى عبد المؤمن صلاة الخوف؛ الظهر والعصر،

والحربُ قائمة، ولم تُصلّ بالمغرب قبل ذلك، فلما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوّتهم، أسندوا ظهورهم إلى بستان كبير هناك -والبستان يُسمّى عندهم البحيرة؛ فلهذا قيل: وقعة البحيرة، وعام البحيرة- وصاروا يُقاتلون من جهة واحدة إلى أن أدركهم الليل، وقد قُتِلَ من المصامدة أكثرهم، وحين قُتل الونشريشي دفنه عبد المؤمن، فطلبه المصامدة، فلم يَرَوْه في القتلى، فقالوا: رفعته الملائكة. ولما جنّهم الليل سار عبد المؤمن ومَنْ سلم من القتلى إلى الجبل».

لم تَفُتّ هذه الهزيمة في عضد ابن تومرت، ولم يُصبه اليأس، وإن كان أصحابه قد بدءوا يَشُكّون في مهديّته المزعومة؛ فلجأ نتيجة لذلك إلى الحيلة والكذب؛ ليبعث الأمل من جديد في نفوس أصحابه، ويُوهمهم بأنهم على الحقّ، وأن هؤلاء الملثّمينَ على الباطل، ولا بُدّ أن يُهزموا.

يقول المراكشي في المعجب: «ولما رجع القوم إلى ابن تومرت، جعل يُهَوّن عليهم أمر الهزيمة، ويُقَرّر عندهم أن قتلاهم شهداء؛ لأنهم ذابُّون عن دين الله، مُظهرون للسُّنّة؛ فزادهم ذلك بصيرةً في أمرهم، وحرصًا على لقاء عدوِّهم، ومن حينئذٍ جعل المصامدة يشنُّون الغارات على نواحي مراكش، ويقطعون عنها موادّ المعايش وموصول المرافق، ويقتلون ويَسبُون، ولا يُبقُون على أحد ممن قَدروا عليه؛ وكثر الداخلون في طاعتهم والمُنحَاشون إليهم، وابن تومرت في ذلك كله يُكثر التزهّد والتقلّل، ويُظهر التشبّه بالصالحين، والتشدّد في إقامة الحدود؛ جاريًا في ذلك على السُّنّة الأُولى»[٤].

لم يلبث ابن تومرت أن تُوُفِّيَ بعد معركة البحيرة هذه، تاركًا أصحابه بعد أن أمّر عليهم عبد المؤمن بن علي، ولما مات كفّنه عبد المؤمن بن علي وصلّى عليه، ودفنه بمسجده.

وهكذا انتهت حياة ابن تومرت ومصير دعوته مجهول؛ بسبب هذه الهزيمة الشديدة التي نزلت بأتباعه في موقعة البحيرة، ولكنه قد نجح مع ذلك

في ترسيخ دعوته في قلوبهم، حتى صَدَّقُوه وآمنوا بمهديَّتِه، وأطاعوه ولو في قتل أبنائهم؛ كما حصل في حادثة التمييز التي تقشعر لها الأبدان؛ حيث قتلت كل قبيلة أبناءها دون أن يُصيبها التردُّد أو الحيرة.

البيعة لعبد المؤمن بن علي

ومن عجيب ما ينقل المراكشي في (المعجب) أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة استدعى هؤلاء المسمَّيْنَ بالجماعة، وأهل خمسين، وهم من قبائل متفرِّقة، لا يجمعهم إلا اسم المصامدة، فلمَّا حضروا بين يديه قام -وكان متكئًا- فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على محمد نبيه ، ثم أنشأ يترضَّى عن الخلفاء الراشدين -رضوان الله عليهم- ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم، والعزيمة في أمرهم، وأن أحدهم كانت لا تأخذه في الله لومة لائم، وذَكَر مِن حَدِّ عمر بن الخطاب -- ابنَه في الخمر، وتصميمه على الحقِّ في أشباهٍ لهذه الفصول، ثم قال: فانقرضت هذه العصابة - نضَّر الله وجوهها، وشكر لها سعيها، وجزاها خيرًا عن أمَّةِ نَبِيِّهَا- وخبطت الناس فتنةٌ تركت الحليم حيران، والعالم متجاهلاً مُداهنًا، فلم ينتفع العلماء بعلمهم، بل قصدوا به الملوك، واجتلبوا به الدنيا، وأمالوا وجوه الناس إليهم... ثم إنَّ الله - سبحانه وله الحمد - مَنَّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخَصَّكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده، وقيَّض لكم من أَلْفَاكُم ضُلاَّلاً لا تهتدون، وعُمْيًا لا تُبصرون؛ لا تعرفون معروفًا، ولا تُنكرون منكرًا، قد فَشَتْ فيكم البدع، واستهوتكم الأباطيل، وزَيَّنَ لكم الشيطان أضاليلَ وتُرَّهاتٍ أُنَزِّه لساني عن النطق بها، وأَرْبَأُ بلفظي عن ذِكْرِهَا، فهداكم الله به بعد الضلالة، وبَصَّرَكم بعد العمى، وجمعكم بعد الفُرقة، وأعزَّكم بعد الذِّلة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيُورثكم أرضَهم وديارهم، ذلك بما كسبته أيديهم، وأضمرته قلوبهم، وما ربك بظلام للعبيد؛ فجدِّدوا لله -سبحانه- خالصَ نيَّاتكم، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يُزَكِّي به سعيكم، ويتقبَّلُ أعمالكم وينشر أمركم، واحذروا الفُرقة والاختلاف

الكلمة وشتاتَ الآراء، وكُونُوا يدًا واحدة على عدوِّكم؛ فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس، وأسرعوا إلى طاعتكم، وكثر أتباعكم، وأظهر الله الحقّ على أيديكم، وإلاّ تفعلوا شَمِلَكم الذلُّ، وعَمَّكم الصَّغَارُ، واحتقرتكم العامَّة، فتَخَطَّفَتْكم الخاصَّة، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف، واعلموا مع هذا أنه لا يَصلح أمرُ آخرِ هذه الأُمَّة إلاّ على الذي صلح عليه أمرُ أوّلها، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميرًا عليكم، هذا بعد أن بَلَوناه في جميع أحواله، من ليله ونهاره، ومدخله ومخرجه، واختبرنا سريرته وعلانيته، فرأيناهُ في ذلك كله ثَبْتًا في دينه، مُتَبَصِّرًا في أمره، وإني لأرجو ألاّ يُخلف الظنّ فيه، وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن، فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعًا مطيعًا لربه، فإن بدّل أو نكص على عقبه، أو ارتاب في أمْرِه ففي الموحِّدين -أعزّهم الله- بركةٌ وخير كثير، والأمْرُ أمرُ الله يُقلِّده من شاء من عباده.

سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين

متابعةً للأحداث بصورة متسلسلة فقد كان لسقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين في عام (٥٤١هـ= ١١٤٦م) ومقتل ما يربو على الثمانين ألف مسلم في بلاد الأندلس؛ نتيجة الحروب بينهما - كان لهذه الأحداث العظام تداعيات خطيرة على كلِّ بلاد المغرب العربي والأندلس، وما يهمُّنا هنا هو ما حدث في الأندلس، فكان كما يلي:

سقوط ألمرية

بعد قيام دولة الموحدين بعام واحد وفي سنة (٥٤٢هـ= ١١٤٧م) سقطت ألمرية في أيدي النصارى، وهي تقع على ساحل البحر المتوسط في جنوب الأندلس؛ أي: هي بعيدة جدًّا عن ممالك النصارى، لكنها سقطت عن طريق البحر بمساعدة فرنسا.. وفي ألمريةِ استُشْهِدَ آلافٌ من المسلمين، وسُبِيَتْ أكثر من أربعة عشر ألف فتاة مسلمة، وفي هذا يقول المقري التلمساني: «وأُحْصِيَ عدد من سُبِيَ من أبكارها فكان أربعة عشر ألفًا».

سقوط طرطوشة ولاردة

بعد ذلك -أيضًا- بعام واحد وفي سنة (٥٤٣هـ= ١١٤٨م) سقطت طرطوشة ثم لارِدَة في أيدي النصارى، وهما في مملكة سرقسطة التي تقع في الشمال الشرقي، والتي كان قد حَرَّرها المرابطون قبل ذلك.

توسع مملكة البرتغال

وفي العام نفسه -أيضًا- توسَّعت مملكة البرتغال في الجنوب، وكانت من أشدِّ الممالك ضراوة وحربًا على المسلمين.

احتلال النصارى تونس

بدأ النصارى يتخطَّون حدود الأندلس ويُهاجمون بلاد المغرب العربي، فاحتُلَّت تونس في السنة ذاتها -أيضًا- من قِبل النصارى، وهي خارج بلاد الأندلس.

ولقد كانت مثل هذه التداعيات شيئًا متوقَّعًا نتيجة الفتنة الكبيرة، والحروب التي دارت بين المسلمين في بلاد المغرب العربي.

انجازات عبد المؤمن بن علي في المغرب

دولة الموحدين في الأندلسكان عبد المؤمن بن علي صاحب شخصية قوية، وصاحب فكر سياسي عالٍ؛ فبدأ وبطريقة عملية منظمة وشديدة في تأسيس وبناء دولته الفتيَّة الناشئة؛ فعمل على ما يلي:

إنشاء المساجد والمدارس

أنشأ الكثير من المدارس والمساجد، واهتم غاية الاهتمام بالتعليم والتثقيف، وكان -كما يقول عبد الواحد المراكشي- «مُؤْثِرًا لأهل العلم محبًّا لهم، محسنًا إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته، ويُجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويُظهر التنويه بهم، والإعظام لهم، وقسَّم

الطلبة طائفتين طلبة الموحدين وطلبة الحضر، هذا بعد أن تسمَّى المصامدة بالموحدين؛ لتسمية ابن تومرت لهم بذلك؛ لأجل خوضهم في علم الاعتقاد، الذي لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه».

إقران الخدمة العسكرية بالعلوم التثقيفية

عمل عبد المؤمن بن عليٍّ على إقران الخدمة العسكريَّة بالعلوم التثقيفية، وأنشأ معسكرًا بقصره لتدريس وتعليم وتخريج رجال السياسة والحُكم، وكان يمتحن الطلاب بنفسه، فأنشأ جيلاً فريدًا من قوَّاد الحروب والسياسيين البارعين في دولة الموحدين، وكان يُدَرِّبهم على كل فنون الحرب؛ حتى إنه أنشأ بحيرة صناعية كبيرة في بلاد المغرب لتعليم الناس كيف يتقاتلون في الماء، وكيف تكون الحروب البحرية، وكان -أيضًا- يختبر المقاتلين الموحدين بنفسه.

إنشاء مصانع للأسلحة

أقام مصانع ومخازن ضخمة وكثيرة للأسلحة؛ ليستعدَّ بذلك لحرب الصليبيين في الأندلس.

إعمال السيف في رقاب المخالفين

لكن هذا لم يكن ليغضَّ الطرف عن كون عبد المؤمن بن عليٍّ ذا فرديَّة في نظام الحُكم والإدارة؛ أي أنه كان -بلُغَة العصر- حاكمًا ديكتاتوريًّا، فرديَّ الرأي لا يأخذ بالشورى، ولقد كان سفَّاكًا للدماء، حتى أحصى له مؤرخ العهد الشهير بـ «البيذق» أكثر من ثلاثين ألف قتيل بدأ بها عهده لنشر الرعب وتثبيت أقدام الدولة بالسيف.

بل لما سُرق من تاجر بعض ماله، جمع عبد المؤمن أشياخ القبيلة التي وقع فيها السرقة، فأخرج للتاجر ماله منهم، ثم أمر بقتل الجميع «فأقبلوا يتضرَّعون ويبكون، وقالوا: تؤاخذ -سيدنا- الصلحاء بالمفسدين؟ فقال: يُخرج

كلُّ طائفة منكم مَنْ فيها من المفسدين. فصار الرجل يُخرج ولده، وأخاه، وابن عمه، إلى أن اجتمع نحو مائة نفسٍ، فأمر أهلهم أن يَتَوَلّوْا قتلهم، ففعلوا. فخرجتُ (والكلام للتاجر) من المغرب إلى صقلّية خوفًا على نفسي من أهل المقتولين».

وكان يتمثل ببيت الشعر الذي يقول: [البسيط]

وَحَكِّمِ السَّيْفَ لا تَعْبَأْ بِعَاقِبَةٍ *** وَخَلِّهَا سيرَةً تَبْقَى عَلَى الْحِقَبِ

فَمَا تُنَالُ بِغَيْرِ السَّيْفِ مَنْزِلَةٌ *** وَلا تُرَدُّ صُدُورُ الْخَيْلِ بِالْكُتُبِ

هذا كله في بلاد المغرب العربي، ولم تكن بلاد الأندلس قد دخلت بعدُ في حسابات عبد المؤمن بن عليٍّ في ذلك الوقت، إلا ما كان منه في إرسال الجيوش إليها؛ لتحوزها بعد انتصاره على المرابطين، وكان ذلك بعد استيلائه على مراكش، وفي بعض المصادر بعد استيلائه على فاس وتلمسان؛ إلا أنه أولى اهتمامه أكثر للمغرب؛ لأنه كان يعمل على أن يستقرَّ له الأمر أولاً في بلاد المغرب العربي حيث أنصار المرابطين في كل مكان، فلقد كانت المغرب حاضرة الدولة.

عبد المؤمن بن علي في الأندلس

بعد تساقط المرابطين في المغرب أمام الموحدين، تبعهم الموحدون في الأندلس، واستولوا على المدن الأندلسية التي كانت في يد المرابطين، وفي سنة (٥٤٣هـ= ١١٤٨م) وبعد استيلاء الموحدين على كثير من البلاد الأندلسية، قدم القاضي ابن العربي إلى بلاد المغرب، وبايع عبد المؤمن بن علي، وطلب النجدة لأهل الأندلس، وإن مبايعة القاضي ابن العربي لعبدِ المؤمن بن علي قد تُعطي إشارة إلى أن عبد المؤمن بن علي لم يكن يعتقد أو يدعو إلى أفكار ضالّة كما في الدعوة إلى العصمة أو المهديّة، أو غيرها مما كان يَدِينُ به محمد بن تومرت وبعضٌ من أتباعه.

قَبِلَ عبد المؤمن بن علي الدعوة من القاضي ابـن العربـي، وجَهَّـزَ جيوشه، وانطلق إلى بلاد الأندلس، وهناك بدأ يحارب القوّات الصليبية، حتـى ضمَّ معظم بلاد الأندلس الإسلامية، التي كانت في أملاك المرابطين إلى دولـة الموحدين، وكان ممن قاتله هناك بعض أنصار دولة المرابطين، إلا أنه قاتلهم وانتصر عليهم وذلك في سنة (٥٤٥هـ= ١١٥٠م).

وفي سنة (٥٥٢هـ= ١١٥٧م) استطاع أن يستعيد ألمَرِيَّة، وفي سـنة (٥٥٥هـ= ١١٦٠م) استعاد تونس من يد النصارى، وبعدها بقليـل - ولأول مرة - استطاع أن يضمَّ ليبيا إلى دولة الموحدين، وهي لم تكن ضمن حـدود دولة المرابطين.

وبهذا يكون قد وصل بحدود دولة الموحدين إلى ما كانت عليه دولـة المرابطين، إضافة إلى ليبيا، وقد اقتربت حدود دولته من مصر كثيرًا، وكـان يُفَكِّر في أن يُوَحِّد كل أطراف الدولة الإسلامية تحت راية واحدة تكون لدولـة الموحدين.

أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي (٥٥٤-٥٩٥هـ=١١٦٠-١١٩٩م)

المنصور الموحديبعد وفاة يوسف بن عبد المؤمن بن علي تولّى مـن بعده ابنه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، وقد لُقـب بالمنـصور، وكان له ابن يُدعى يوسف، فعُرف بأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي.

يُعَرِّفه ابن خلكان فيقول: أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي، القيسي الكومي، صاحب بلاد المغرب... كان صافي السمرة جدًّا، إلى الطول ما هو، جميل الوجه، أَفْوَه أَعْيَنَ شديد الكحـل، ضخم الأعضاء، جَهْوَرِيَّ الصوت، جَزْلَ الألفاظ، من أصدق النـاس لهجـة، وأحسنهم حديثًا، وأكثرهم إصابة بالظنِّ، مجربًا للأمور، ولـي وزارة أبيـه، فبحث عن الأحوال بحثًا شافيًا، وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة

أفادته معرفة جزئيات الأمور، ولما مات أبوه اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديمه، فبايعوه وعقدوا له الولاية، ودَعَوْهُ أمير المؤمنين كأبيه وجدِّه، ولقَّبوه بالمنصور، فقام بالأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أبهة ملكهم، ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، ونظر في أمور الدين والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين، كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات.

ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبير المملكة من هناك، وأول ما رتَّب قواعدُ بلاد الأندلس، فأصلح شأنها وقرَّر المقاتلين في مراكزها، ومهَّد مصالحها في مدة شهرين، وأمر بقراءة البسملة في أول الفاتحة في الصلوات، وأرسل بذلك إلى سائر بلاد الإسلام التي في مملكته، فأجاب قومٌ وامتنع آخرون.

وقد تولَّى المنصور الموحدي حُكم دولة الموحدين خمس عشرة سنة متصلة؛ من سنة (٥٨٠هـ= ١١٨٤م) وحتى سنة (٥٩٥هـ= ١١٩٩م)، وكان أقوى شخصية في تاريخ دولة الموحدين، ومن أعظم الشخصيات في تاريخ المسلمين بصفة عامَّة، وقد عُدَّ عصره في دولة الموحدين بالعصر الذهبي.

المنصور الموحدي الرجل الإنسان

مثل عبد الرحمن الداخل ومِنْ بعده عبد الرحمن الناصر، وغيرهم ممن فعلوا ما لم يفعله الشيوخ والكبار، تولَّى أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي وكان عمره ستًّا وعشرين سنة فقط، وقد قام بالأمر على أحسن ما يكون، ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، ونظر في أمور الدين والوعظ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتي هي أحسن.

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي أن يُغيِّر كثيرًا من أسلوب السابقين له ؛ فكانت سمته الهدوء والسكينة والعدل والحلم؛ حتى إنه كان يقف ليقضي حاجة المرأة وحاجة الضعيف في قارعة الطريق، وكان يَؤُمّ الناس في الصلوات الخمس، وكان زاهدًا؛ يلبس الصوف الخشن من الثياب، وقد أقام الحدود حتى في أهله وعشيرته؛ فاستقامت الأحوال في البلاد، وعظمت الفتوحات.

بَلَغَتْ أعمال أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي الجليلة في دولته أوجها، فحارب الخمور، وأحرق كتب الفلاسفة، واهتمَّ بالطب والهندسة، وألغى المناظرات العقيمة، التي كانت في أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحدين، وزاد كثيرًا في العطاء للعلماء، «وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت، وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس، ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد ويكتب إليهم يسألهم الدعاء، ويصل مَنْ يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة»، ومال هو إلى مذهب ابن حزم الظاهري؛ وأحرق الكثير من كتب الفروع، وأمر بالاعتماد على كتاب الله وعلى كتب السُّنَّة الصحيحة.

وفي دولته اهتمَّ -أيضًا- أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي بالعمران، وقد أكمل إنشاء مدينة الرباط التي كان قد اختطها ورسم حدودها أبوه يوسف، وسمَّاها رباط الفتح ، وأقام فيها المستشفى الكبير الذي يصفه عبد الواحد المراكشي مبهورًا بقوله: «وبنى بمدينة مراكش بيمارستانًا ما أظن أن في الدنيا مثله؛ وذلك أنه تخيَّر ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهًا كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادةً على أربع بِرَكٍ في وسطه، إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفُرُش

النفيسة من أنواع الصوف والكتّان والحرير والأديم وغيره بمـا يزيـد علـى الوصـف، ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارًا في كـل يـوم برسـم الطعام، وما يُنْفَقُ عليه خاصة خارجًا عما جَلَب إليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعدّ فيه للمرضـى ثيـابَ ليـلٍ ونهار... من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نَقَهَ المريض فإن كان فقيرًا أمر لـه عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقلُّ، وإن كان غنيًا دفع إليه ماله وتُـرِكَ وسببه، ولم يَقْصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كلُّ مَنْ مرض بمَرّاكُش من غريب حُمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت. وكان في كل جمعـة بعـد صلاته يركب ويدخله، يعودُ المرضى ويسأل عن أهلِ بيتٍ أهل بيت، يقـول: كيف حالكم؟ وكيف القُوَمَةُ عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج، لم يزل مستمرًّا على هذا إلى أن مات -رحمه الله».

وكان -أيضًا- يجمع الزكاة بنفسه ويُفَرِّقُها على أهلها، وكـان كريمًـا كثير الإنفاق؛ حتى إنه وزّع في يوم عيدٍ أكثر من سبعين ألـف شـاة علـى الفقراء.

المنصور الموحدي يتبرأ من أباطيل ابن تومرت

ويتبدى هذا في خطاب ابنه المأمون لما أبطل القول بالمهديـة، وأزال رسومها فكان مما قال: «وقد كان سيدنا المنصور -رحمه الله- هَمَّ أن يصدع بما به الآن صَدَعْنَا، وأن يرقع للأمة الخرق الذي رقعنا، فلم يُـساعده لـذلك أمله، ولا أجّلَه إليه أجله، فقدم على ربِّه بصدق نية، وخالص طويّة، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة، فما الظنُّ بمن لم يَدْرِ بأي يـدٍ يأخـذ كتابه...».

وكان مجلس المنصور الموحـدي عـامرًا بالعلمـاء وأهـل الخيـر والصالحين، وقد ذكر الذهبي -رحمه الله- في السِّيَرَ أنه كان يُجيد حفظ القرآن

والحديث، ويتكلّم في الفقه ويناظر، وكان فصيحًا مهيبًا، يرتدي زي الزهّاد والعلماء، ومع ذلك عليه جلالة الملوك.

وعدم اعتراف المنصور الموحدي بأفكار ابن تومرت المخالفة للكتاب والسُّنّة يجعله من أهل السُّنّة والجماعة، ومن الفئة الصالحة المصلحة، التي يُحقِّق الله بها النصر والتمكين لدينه والعزّة والمنعة لأهله -تعالى- وقد أورد المراكشي ما يُفيد براءة المنصور الموحدي من أفكار ابن تومرت الضالّة، فقال: أخبرني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري ونحن بحجر الكعبة، قال: قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف: يا أبا العباس؛ اشهد لي بين يدي الله أنّي لا أقول بالعصمة. - يعني: عصمة ابن تومرت - قال (أبو العباس): وقال لي يومًا وقد استأذنتُه في فعل شيء يفتقر إلى وجود الإمام: يا أبا العباس؛ أين الإمام؟ أين الإمام؟

ويقول أيضًا: أخبرني شيخ ممن لقيته من أهل مدينة جيّان من جزيرة الأندلس يُسَمَّى أبا بكر بن هانئ مشهور البيت هناك، لقيته وقد علَتْ سِنُّه، فرويت عنه قال لي: لما رجع أمير المؤمنين - يعني: المنصور الموحدي - من غزوة الأرك، وهي التي أوقع فيها بالأذفنش وأصحابه، خرجنا نتلقّاه فقدّمنيْ أهل البلد لتكليمه، فرفعت إليه، فسألني عن أحوال البلد وأحوال قضاته وولاته وعماله على ما جرت عادته، فلما فرغتُ من جوابه سألني كيف حالي في نفسي، فتشكّرتُ له، ودعوتُ بطول بقائه، ثم قال لي: ما قرأتَ من العلم؟ قلتُ: قرأت تواليف الإمام. - أعني: ابن تومرت - فنظر إليَّ نظرة المغضب، وقال: ما هكذا يقول الطالب، إنما حكمك أن تقول: قرأتُ كتاب الله، وقرأتُ شيئًا من السُّنّة. ثم بعد هذا قُلْ ما شئتَ.

وكان يقعد للناس عامّة، لا يحجب عنه أحد من صغير ولا كبير، حتى اختصم إليه رجلان في نصف درهم، فقضى بينهما، وأمر الوزير أبا يحيى صاحب الشرطة أن يضربهما ضربًا خفيفًا؛ تأديبًا لهما، وقال لهما: أما كان في

البلد حُكّام قد نُصبوا لمثل هذا. فكان هذا -أيضًا- مما حمله على القعود في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا يُنفذها غيره.

وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين؛ يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم، وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمالهم وقضاتهم وولاتهم، فإذا أثنوا خيرًا؛ قال: اعلموا أنكم مسئولون عن هذه الشهادة يوم القيامة، فلا يقولنّ امرؤ منكم إلا حقًا. وربما تلا في بعض المجالس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

المنصور الموحدي وبلاد الأندلس

إضافة إلى أعماله السابقة في دولة الموحدين -بصفة عامّة- فقد وَطّد أبو يوسف يعقوب المنصور الأوضاع كثيرًا في بلاد الأندلس، وقَوّى الثغور هناك، وكان يُقاتل فيها بنفسه، وقد كانت أشدَّ الممالك ضراوة عليه مملكة البرتغال، ثم مِنْ بعدها مملكة قشتالة، وقد كان له في الأندلس ما يلي:

الموحدون وبنو غانية

الموحدون و بنو غانية وبنو غانية: هم أبناء محمد بن علي من قبيلة مسوفة، وكان علي بن يوسف بن تاشفين قد أرسل محمدَ بن علي وأخاه يحيى إلى الأندلس قبل ظهور ابن تومرت، و«غانية» هو اسم أمّ هذين الرجلين (يحيى ومحمد ابني علي)، دُعيا به جريًا على عادة أهل هذه البلاد من نسبة الرجال في أحايين كثيرة لأمهم، وبعدما مات يحيى أخو محمد بن علي (ابن غانية) وظهرت دعوة الموحدين، وبدأت تنتشر على حساب دولة المرابطين، انتقل محمد ابن غانية إلى جزر البليار، وأقام فيها دولة له ولأبنائه من بعده، وساعده على ذلك قيام ابن مردنيش في شرق الأندلس؛ وهذا ما حمى جانب بني غانية من سطوة الموحدين، فلما دان شرق الأندلس للموحدين، بدأ إسحاق

بن محمد ابن غانية، يُلاطف الموحدين، ويُرسل لهم من وقت لآخر بهدايا من غنائمه وسبيه من النصارى، وكان الموحدون -في أول الأمر- لا يعبئون بهذه الجزر، ولكنهم مع مرور الوقت سَعَوْا لإدخالها في طاعتهم، فأرسلوا إلى إسحاق بذلك، فماطل قدر استطاعته، ثم استُشهد في إحدى غزواته قبل أن يَرُدَّ عليهم، فخلفه ابنه عليٌّ على الحُكم، ثم مات بعد قليل يوسف بن عبد المؤمن في غزوة شنترين، فقويت نفوس بني غانية، وأعلنوا صراحة رفضهم الدخول في طاعة الموحدين، ثم زادوا فسعوا لاستغلال موت الأمير الموحدي على هذا النحو، واتصلوا ببعض أعيان بجاية (في شمال دولة الجزائر الآن)، واتفقوا معهم على نصرتهم، ثم خرجوا بأساطيلهم في أوائل عهد المنصور يعقوب بن يوسف الموحدي سنة (٥٨٠هـ) واستولوا عليها، وبدأ بينهم وبين الموحدين في الأندلس وإفريقيا صراع طويل.

وفي سنة (٥٨٥هـ= ١١٨٩م) حاربهم المنصور أبو يعقوب، واستطاع أن يسيطر على جزيرتين من جزر البليار الثلاث، ثم واجه تمردهم كذلك في المغرب، وكان من جرَّاء ذلك أن ضعفت كثيرًا قوَّة الموحدين في الأندلس.

استغلّ ملك البرتغال انشغال المنصور الموحدي في هذه المواجهات، واستغلّ الضعف الذي كان نتيجة طبيعية لذلك، واستعان بجيوش ألمانيا وإنجلترا البريِّة والبحريِّة، ثم حاصر إحدى مدن المسلمين هناك، واستطاع أن يحتلّها ويُخْرِجَ المسلمين منها، وقد فعل فيها من الموبقات ما فعل، ثم استطاع أن يُوَاصل تقدُّمَه إلى غرب مدينة إشبيلية في جنوب الأندلس[٢٠]، وهنا أضحى الوضع في غاية الخطورة.

سياسة المنصور الموحدي في الحروب

تُعتبر السنوات ١٥ التي حكمها المنصور الموحدي -ثالث الخلفاء الموحدين- العصر الذهبي للدولة الموحدية، والذروة التي وصل إليها التطوُّر

السياسي في المغرب نحو التوحيد وإقامة الدولة الموحدية، ولقد كان العصر الذهبي قصيرًا، لا يتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف، غزيرة الثروة والموارد مثل دولة الموحدين؛ فإن خلفاء الموحدين حكموا بلادًا تُضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوّتهم، وكان تحت إمارتهم حشود من الجند القوي القادر على كسب المعارك، لم يتيسر للكثير من الدول في التاريخ الإسلامي؛ فقد كانت جيوش الموحدين تعجُّ بحشود من أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً، ثم من بقية الصنهاجيين والزناتيين ممن استمالتهم الدولة الموحدية بقوتها وهيبتها، ثم أُضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين، الذين انضووا تحت لواء الدولة الكبيرة، ولم يَخلُ الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة. ورغم وجود هذه القوّات، إلاّ أن هذه القوة العسكرية الموحدية كانت دائمًا مُفَكّكة، تنقصها القيادة الحازمة، التي تقبض على الجيش قبضة محكمة، وتُوَجّه الأعمال وَفق خطة واحدة مرسومة، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من زعماء الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة حكيمة، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلاً حازمًا موهوبًا في شئون الإدارة والقيادة، وكان شديد الإيمان؛ فانتقل إيمانه إلى رجاله، وأصبحت جيوش الموحدين في أيامه قوّة ضاربة كبرى.

المنصور الموحدي وملك قشتالة

معركة الأرك المعركة الخالدة بعد القضاء على ثورات بني غانية أخذ المنصور الموحدي يُفَكِّر في كيفية إعادة الوضع إلى ما كان عليه، وإيقاف أطماع النصارى في بلاد الأندلس، علم أوّلاً أن أشدّ قوّتين عليه هما قوّة قشتالة وقوة البرتغال، لكنه استقبل رسالة من ملك قشتالة يسعى فيها إلى الصلح والمهادنة، بل ويعرض عليه أن يُحالفه ضدّ مَنْ يشاء من أعداء أبي يوسف وأبناء ملّة ملك قشتالة، وذكر أبو يوسف في رسالته أنه بعد أن روّى في الأمر

واستخار عزم على إجابة مطلب ملك قشتالة فقبِلَ مسالمته، بما لا يتعارض مع عزّة الإسلام والمسلمين.

المنصور الموحدي وملك البرتغال

وفي سنة (٥٨٥هـ)، جاء عدوانُ ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز؛ يروي عبد الواحد المراكشي فيقول: «قَصَدَ بطرو بن الريق -لعنه الله- مدينة شلب من جزيرة الأندلس فنزل عليها بعساكره، وأعانه من البحر الإفرنج بالبطس والشواني، وكان قد وَجَّه إليهم يستدعيهم إلى أن يُعِينُوه على أن يجعل لهم سبي البلد، وله هو المدينة خاصة، ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملكوها، وسبوا أهلها، وملك ابن الريق -لعنه الله- البلد، وتجهَّز أمير المؤمنين في جيوش عظيمة، وسار حتى عبر البحر، ولم يكن له هَمٌّ إلا مدينة شلب المذكورة، فنزل عليها، فلم تطق الروم دفاعه، وخرجوا عنها وعما كانوا قد ملكوه من أعمالها، ولم يكفِهِ ذلك حتى أخذ حصنًا من حصونهم عظيمًا يقال له: طرش».

الأرك .. المعركة الخالدةثم عاد يعقوب المنصور إلى عاصمته مراكش في المغرب العربي بعد هذا النصر المؤزر على البرتغال، والهدنة مع قشتالة، وبقيت طائفة أخرى لم تصالح المنصور، وهي التي ستكون السبب في الحرب القادمة.

هجمات الممالك النصرانية

بعد أقل من خمس سنوات «جمعت تلك الطائفة (التي لم تصالح) جمعًا من الفرنج وخرجوا إلى بلاد الإسلام، فقتلوا وسبوا، وغنموا وأسروا، وعاثوا فيها عيثًا شديدًا»، ثم ما لبث أن اجتمع معهم ألفونسو الثامن بعد انقضاء مدة الهدنة التي كانت بينه وبين المنصور الموحدي، فبعث إلى جميع الثغور الإسلامية يُنذر بانتهاء الهدنة -وكان المنصور منشغلاً بمعاركه في المغرب ضد الخارجين عليه من بني غانية وغيرها- ثم بعث بقادته إلى مختلف أنحاء

الأندلس يُغيرون عليها ويُثخنون فيها، وقد مال المنصور إلى الانتهاء من أمر المتمردين أولاً، لولا أن توالت كتب أهل الأندلس عليه تُشير باشتداد وطأة العدو إلى ما لا يطاق، فعدل عن عزمه وبدأ في التفكير صوب العبور إلى الأندلس.

إعلان الجهاد في الأندلس

وقبل هذا الوقت بسنوات قلائل كان المسلمون في كل مكانٍ يعيشون نشوة النصر الكبير الذي حقّقه صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في موقعة حطين الخالدة في سنة (٥٨٣هـ= ١١٨٧م)؛ أي: قبل هذه الأحداث بسبع سنوات فقط، وما زال المسلمون في المغرب يعيشون هذا الحدث الإسلامي الكبير، ويتمنّونَ ويُريدون أن يُكَرِّرُوا ما حَدث في المشرق؛ خاصّة بعد أن قام المنصور الموحدي بتحفيزهم في الخروج إلى الجهاد، فتنافسوا في ذلك ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

كان ثمة جيش جاهز لمواجهة المتمردين على المنصور، ولكن لما تغيرت الوجهة أقبل المجاهدون المتطوعة، وقد بدأ هذا الاستنفار في سنة (٥٩٠هـ=١١٩٤م)، وبعدها بعام واحد وفي سنة (٥٩١هـ=١١٩٥م) انطلقت الجيوش الإسلامية من المغرب العربي والصحراء وعبرت مضيق جبل طارق إلى بلاد الأندلس؛ لتلتقي مع قوّات الصليبيين الرابضة هناك في موقعة ما برح التاريخ يذكرها ويُجلُّها.

معركة الأرك

الأرك: حصن على بُعْدِ عشرين كيلو مترًا إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي آنة، ومحلُّها اليوم: (Sta Maria de Alarcos) غرب المدينة الإسبانية الحديثة (giadad real) «المدينة الملكية»، والأرك نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه.

معركة الأرك بين الموحدين والنصارىوفي التاسع من شهر شـــعبان سنة (٥٩١هـــ=١١٩٥م) وعند هذا الحصن الكبير الذي يقع في جنوب طليطلة على الحدود بين قشتالة ودولة الأندلس، في ذلـــك الوقـــت التقـــت الجيـــوش الإسلامية مع جيوش النصارى هناك[١٠]، وكان ألفونسو الثامن قد أعدَّ جيشه بعد أن استعان بمملكتي ليون ونافار، في قوَّة يبلغ قوامها خمسة وعشرين ألفًا ومائتي ألف نصراني، وقد أحضروا معهم بعض جماعات من اليهود لـــشراء أسرى المسلمين بعد انتهاء المعركة لصالحهم؛ ليتمَّ بيعهم بعد ذلك في أوربا .

وعلى الجانب الآخر فقد أعدَّ أبو يوسف يعقوب المنصور الموحـــدي جيشًا كبيرًا، بلغ قِوَامه مائتي ألف مسلم من جرَّاء تلك الحمية، التي كانت فـــي قلوب أهل المغرب العربي وأهل الأندلس على السواء؛ خاصة بعد انتصارات المسلمين في حطين (٥٨٣هـــ= ١١٨٧م) في الشرق.

المجلس الاستشاري

في منطقة الأرك وفي أول عمل له عقد المنصور الموحـــدي مجلـــسًا استشاريًّا يستوضح فيه الآراء والخطط المقترحة في هذا الشأن، ولقد كان هذا على غير نسق كل القادة الموحدين السابقين له، والذين غلب عليهم التفرُّد في الرأي، فسار على منهج رسول الله في ذلك الأمـــر، وفـــي هـــذا المجلـــس الاستشاري استرشد أبو يوسف يعقوب المنصور بكل الآراء؛ حتى إنه استعان برأي أبي عبد الله بن صناديد في وضع خطَّة الحرب، وهـــو مـــن الزعمـــاء الأندلسيين وليس من قبائل المغرب البربرية، وكان هذا -أيضًا- أمرًا جديـــدًا على دولة الموحدين، التي كانت تعتمد على جيوش المغرب العربي فقط، فضمَّ أبو يوسف يعقوب المنصور قوَّة الأندلسيين إلى قوَّة المغاربة والبربر القادمين من الصحراء.

الاستعداد ووضع الخطط

في خُطّة شبيهة جدًّا بخطّة معركة الزلاقة قَسّم المنصور الموحدي الجيش إلى نصفين، فجعل جزءًا في المقدمة، وأخفى الآخر خلف التلال، وكان هو على رأسه، ثم اختار أميرًا عامًّا للجيش، هو كبير وزرائه أبو يحيى بن أبي حفص، وقد ولّى قيادة الأندلسيين لأبي عبد الله بن صناديد؛ وذلك حتى لا يُوغر صدور الأندلسيين وتضعف حماستهم حين يتولّى عليهم مغربي أو بربري.

وإتمامًا لهذه الخطة فقد جعل الجزء الأول من الجيش النظامي الموحدي ومن الأندلسيين، «فجعل (أميرُ الجيش أبو يحيى) عسكر الأندلس في الميمنة، وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب في الميسرة، وجعل المتطوعة والأغزاز (المماليك المصريون) والرماة في المقدمة، وبقي هو في القلب في قبيلة هنتاتة».

وعند اكتمال الحشد وانتهاء الاستعداد للقتال أرسل الأميرُ الموحدي رسالة إلى كل المسلمين، يقول فيها: إن الأمير يقول لكم: اغفروا له؛ فإنّ هذا موضع غفران، وتغافروا فيما بينكم، وطَيِّبُوا نفوسكم، وأخلصوا لله نيّاتكم. فبكى الناس جميعهم، وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص، وعلموا أنه موقفُ وداعٍ، ثم قام الخطباء يخطبون عن الجهاد ويُذَكِّرون بفضله وشرفه ومكانته ويُحَمِّسون الجند له ، «فنشط الناس، وطابت النفوس، ومن الغد صدع بالنداء، وبأخذ السلاح والبروز إلى اللقاء».

اللقاء المرتقب

في تلك الموقعة كان موقع النصارى في أعلى تلٍّ كبير، وكان على المسلمين أنْ يُقَاتِلوا من أسفل ذلك التلِّ، لكن ذلك لم يَرُدّ المسلمين عن القتال، وقد بدأ اللقاء ونزل القشتاليون كالسيل الجارف..

ولنترك ابن أبي زرع يروي قصة المعركة، يقول:

«تحرّك من جيش العدوِّ – دمَّره الله تعالى- عقدة كبيرة من سبعة آلاف فارس إلى ثمانية آلاف فارس، كلهم قد احتجب بالحديد والبيضات والزَّرَد النظيف النضيد، فدُفعت نحو عسكر المسلمين... فوصلت تلك العقدة التي دفعت بأجمعها حتى لطمت أطرافُ رماح المسلمين في صدور خيلهم أو كادت، ثم تقهقروا قليلاً، ثم عادوا بالحملة. فعلوا ذلك مرتين، ثم تهيئوا للدفعة الثالثة، والقائد ابن صناديد والزعيم العربي يناديان برفع أصواتهما: اثبتوا معشر المسلمين؛ ثبَّت الله أقدامكم بالعزمة الصادقة.

فدفَع النصارى على القلب الذي فيه أبو يحيى؛ قاصدين إليه يظنون أنه أمير المؤمنين، فقاتل –رحمه الله- قتالاً شديدًا وصبر صبرًا جميلاً، حتى استشهد واستشهد معه جماعة من المسلمين من هنتاتة والمطوعة، وغيرهم ممن ختم الله تعالى له بالشهادة، وسبقت له من الله تعالى السعادة.

وصبر المسلمون صبرًا جميلاً، ورجع النهار بالغبار ليلاً، وأقبلت قبائل المطوعة والعرب والأغزاز والرماة، وأحاطوا بالنصارى الذين دفعوا من كل جانب، ودفع القائد ابن صناديد بجيوش الأندلس وحشودها، وزحفت معه قبائل زناتة والمصامدة وغمارة وسائر البربر إلى الربوة التي فيها ألفونسو الثامن –لعنه الله- يُقاتلون مَنْ فيها من جيش الروم.

وكان ألفونسو –لعنه الله- فيها مع جيوش الروم وجميع عساكره وأجناده فيما يزيد على ثلاثمائة ألف، ما بين فارس وراجل، فتعلّق المسلمون بالربوة وأخذوا في قتال مَنْ بها فاشتدَّ القتال، وعظمت الأهوال، وكثر القتل في النصارى الذين دفعوا في الحملة الأولى، وكانوا نحو العشرة آلاف زعيم، انتخبهم اللعين ألفونسو الذميم، وصلّتْ عليه الأقسة صلاة النصر، ورَشُّوا عليهم ماء المعمودية في الطهر، وتحالفوا بالصلبان ألاّ يفروا حتى لا يتركوا من المسلمين إنسانًا، فصدق الله U وعده، ونصر جنده.

فلمّا اشتد القتال على الكفار، وأيقنوا بالفناء والبوار، ولّـوُا الأدبـار، وأخذوا في الفرار، إلى الربوة التي فيها ألفونسو ليعتـصموا بهـا، فوجـدوا عساكر المسلمين قد حالوا بينهم وبينها، فرجعوا على أعقابهم ناكـصين فـي الوطاء، فرجعت عليهم العرب والمطوعة وهنتاتة والأغزاز والرماة فطحنـوهم طحنًا، وأفنوْهم عن آخرهم، وانكسرت شوكة ألفونسو بفنائهم؛ إذ كان اعتماده عليهم، وأسرعت خيل من العرب إلىٰ أمير المؤمنين، وأطلقوا أعِنّتهم نحـوه، وقالوا له: قد هزم الله تعالى العدو.

فضربت الطبول، ونشرت الرايات، وارتفعت الأصـوات بالـشهادة، وخفقت البنود، وتسابقت لقتال أعداء الله الأبطالُ والجنـودُ، وزحـف أميـر المؤمنين بجيوش الموحدين، قاصدًا لقتال أعداء الله الكافرين، فتسابقت الخيـل وأسرعت الرجال، وقصدوا نحو الكفرة، للطعان والنزال، فبينما ألفونسو الثامن -لعنه الله- قد همّ وعزم أن يحمل على المسلمين بجميع جيوشـه، ويـصدهم بجنوده وحشوده؛ إذ سمع الطبول عن يمينه قد ملأت الأرض، والأبـواق قـد طبقت الرُّبَا والبطاح، فرفع رأسه لينظر فيها، فرأى رايات الموحدين قد أقبلت، واللواء الأبيض المنصور في أولها عليه: لا إله إلا الله، محمد رسـول الله، لا غالبَ إلى الله. وأبطال المسلمين قد تسابقت وجيوشهم قد تناسـقت وتتابعـت، وأصواتهم بالشهادة ارتفعت، فقال: ما هذا؟ فقيل له: هذا أمير المـؤمنين قـد أقبل، وما قاتلك اليوم كله إلاّ طلائع جيوشه، ومُقَدِّمات عـساكره، فقـذف الله الرعب في قلوب الكافرين، وولّوُا الأدبار منهزمين، وعلى أعقابهم ناكصين.

وتلاحقت به فرسان المجاهدين، يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقتفون آثارهم، ويُحكمون فيهم رماحهم وشفارهم، ويروون مـن دمـائهم الـسيوف، ويُذيقونهم مرارة الحتوف، وأحاط المسلمون بحصن الأراك، وهم يظنـون أن ألفونسو -لعنه الله- قد تحصّن فيه، وكان عدو الله قد دَخل فيـه مـن بـاب، وخرج منَ الناحية الأخرى، فدخل المسلمون الحصن بالسيف عَنوة، وأضرموا

النيران في أبوابه، واحتووا على جميع ما كان فيه وفي محلة النصارى من الأموال والذخائر والأرزاق، والأسلحة والعدد، والأمتعة والدواب، والنساء والذرية، وقُتل في هذه الغزاة من الكفرة ألوف لا تُعَدّ ولا تُحْصَى، ولا يَعلم لها أحدٌ عددًا إلاّ الله تعالى.

وأخذ في حصن الأراك من زعماء الروم أربعة وعشرون ألف فارس أسارى، فامتنّ عليهم أمير المؤمنين، وأطلقهم بعدما ملكهم؛ ليكون له بذلك يد الامتنان ويدٌ عُلْيَا عليهم، فعزّ فعله ذلك على الموحدين وعلى كافّة المسلمين، وحُسِبَتْ له تلك الفعلة سقطة من سقطات الملوك».

حصن الأرك وبجانبه وقعت المعركةطارت أخبار النصر في كل مكان، ودوت أخبار ذلك الانتصار العظيم على منابر المسلمين في أطراف دولة الموحدين الشاسعة؛ بل وصلت هذه الأخبار إلى المشرق الإسلامي، وكانت سعادةً لا تُوصف؛ خاصّة وأنها بعد ثمانية أعوام فقط من انتصار حطين العظيم.

قال المقري: وكان عدة مَنْ قُتل من الفرنج - فيما قيل - مائة ألف وستّة وأربعين ألفًا، وعدة الأسارى ثلاثين ألفًا، وعدة الخيام مائة ألف وستّة وخمسين ألف خيمة، والخيل ثمانين ألفًا، والبغال مائة ألف، والحمير أربعمائة ألف، جاء بها الكفّار لحمل أثقالهم؛ لأنّهم لا إبل لهم، وأمّا الجواهر والأموال فلا تُحصى، وبِيع الأسير بدرهم ، والسيف بنصف درهم، والفرس بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقَسّم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع، ونجا ألفونسو ملكُ النصارى إلى طليطلة في أسوأ حال، فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه، وآلى أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرسًا ولا دابّة؛ حتى يأخذ بالثأر، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعدّ، ثم لقيه يعقوب وهزمه، وسار خلفه إلى طُلَيْطِلَة وحاصره، ورمى عليها بالمجانيق، وضيّق عليها، ولم يبقَ إلا فتحُها، فخرجت إليه والدة ألفونسو وبناته

ونساؤه وبَكَيْنَ بين يديه، وسألنه إبقاء البلد عليهن، فرقّ لهن ومَنَّ عليهن بهـــا، ووهب لهنَّ من الأموال والجواهر ما جلّ، وردَّهُنَّ مكرماتٍ، وعفا بعد القدرة، وعاد إلى قُرْطُبَة، فأقام شهرًا يُقَسِّم الغنائم.

نتائج انتصار الأرك

تمخّض عن انتصار الأرك الكبير آثار ونتائج عظيمة؛ أهمُّها ما يلي:

الهزيمة الساحقة لقوات النصارى

كان من أهمِّ آثار انتصار الأرك تَبَدُّدُ جيش النصارى بين القتل والأسر؛ فقد قُتِلَ منهم في اليوم الأول فقط -على أقل تقدير- ثلاثون ألفًا، وقد جاء في نفح الطيب للمقري أن عدد قتلى النصارى وصل إلى ستة وأربعين ألفًا ومائة ألف قتيل، من أصل خمسة وعشرين ألفًا ومائتي ألف مقاتل، وكان عدد الأسرى بين عشرين وثلاثين ألف أسير، وقد مَنَّ عليهم المنصور الموحدي بغير فداء؛ إظهارًا لعظمة الإسلام ورأفته بهم، وعدم اكتراثه بقوّة النصارى.

النصر المادي

رغم الكسب المادي الكبير جدًّا، إلاّ أنه كان أقلّ النتائج المترتبة على انتصار المسلمين في موقعة الأرك؛ فقد حصد المسلمون من الغنائم ما لا يُحصى، وقد بلغت -كما جاء في نفح الطيب- ثمانين ألفًا من الخيول، ومائة ألفٍ من البغال، وما لا يُحصى من الخيام.

وقد وزّع المنصور الموحدي -رحمه الله- هذه الأموال الضخمة وهذه الغنائم كما كان يفعل رسول الله ؛ فوزّع على الجيش أربعة أخماسها، واستغلّ الخمس الباقي في بناء مسجد جامع كبير في إشبيلية؛ تخليدًا لذكرى الأرك، وقد أنشأ له مئذنة سامقة يبلغ طولها مائتي متر، وكانت من أعظم المآذن في الأندلس في ذلك الوقت، إلاّ أنها - وسبحان الله! - حين سقطت إشبيلية بعد ذلك في أيدي النصارى تحوّلت هذه المئذنة -والتي كانت رمزًا للسيادة الإسلامية- إلى برج نواقيس للكنيسة، التي حلّت مكان المسجد الجامع، وهي موجودة إلى الآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

النصر المعنوي

كان من نتائج موقعة الأرك -أيضًا- ذلك النصر المعنوي الكبير الذي ملأ قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؛ فقد ارتفع نجم دولة الموحدين كثيرًا، وارتفعت معنويات الأندلسيين، وهانت عليهم قوّة النصارى، وارتفعت -أيضًا- معنويات المسلمين في كل بلاد العالم الإسلامي؛ حتى راحوا يعتقون الرقاب، ويُخْرِجُون الصدقات فرحًا بهذا الانتصار.

وكان من جرَّاء ذلك -أيضًا- أن استمرَّت حركة الفتوح الإسلامية، واستطاع المسلمون فتح بعض الحصون الأخرى، وحاصروا طليطلة إلاّ أنها -كما ذكرنا من قبل- كانت من أحصن المدن الأندلسية؛ فلم يستطيعوا فتحها[.

صراعات شتى بين ممالك النصارى

نتيجةً لموقعة الأرك -أيضًا- حدثت صراعات شتّى بين ليون ونافار من ناحية، وبين قشتالة من ناحية أخرى.. فقد ألقى عليهم ألفونسو الثامن (ملك قشتالة) مسئولية الهزيمة، وكان من نتائج ذلك -أيضًا- أن وقعت لهم الهزيمة النفسية، وترتّب على هذا -أيضًا- أن أتت السفارات تطلب العهد والمصالحة مع المنصور الموحدي.

معاهدة جديدة بين قشتالة والمسلمين

أيضًا كان من نتائج موقعة الأرك أن تمت معاهدة جديدة بين قشتالة والمسلمين على الهدنة ووقف القتال مدَّة عشر سنوات، أراد المنصور أن يُرَتِّبَ فيها الأمور من جديد في بلاد الموحدين

الأندلس بعد موقعة العقاب

سقوط قرطبة .. نهاية دولة الموحدينفي موقف مدٌ في عُمر الإسلام في بلاد الأندلس بضع سنوات ظهرت بعض الأمراض في الجيــوش القــشتالية، وهذا الذي اضطرهم إلى العودة إلى داخل حدودهم.

ظهور دولة بني مرين

وفي سنة (٦١٣هـــ=١٢١٧م) وبعد موقعة العقاب بــأربع ســنوات، ونظرًا لتردِّي الأوضاع في بلاد المغرب العربي، وتولِّي المستنصر بالله أمور الحُكم، وهو بعدُ طفل لم يبلغ الرشد، ظهرت حركة جديدة من قبيلة زناتة فـــي بلاد المغرب واستقلّت عن حكم دولة الموحدين هناك، وأنشأت دولة سنية هي دولة بني مرين، والتي سيكون لها شأن كبير فيما بعدُ في بلاد الأندلس.

سقوط ميورقة وبياسة

وفي سنة (٦٢٦هـــ) سقطت جزيرة ميورقة، أكبــر وأفــضل جــزر البليار، وبعد قليل تبعها سقوط بياسة، وهي صغرى جــزر البليــار، وبقيــت الجزيرة الوسطى (جزيرة منورقة) دهرًا تحت حكم المسلمين لكن تحت طاعة النصارى وفي حكمهم.

ظهور دولة الحفصيين

وفي العام التالي (٦٢٧هـــ) استقلّ بنو حفص بتونس، وانفصلوا بهــا عن دولة الموحدين.

الصراع داخل الموحدين

وقد دار صراع شديد على السلطة بعد وفاة المستنصر بالله؛ حيث لــم يكن قد استخلف بعدُ، فتولّى عمٌّ أبيه عبد الواحد من بعده، إلاّ أنه خُلع وقُتل، ثم

تولّى من بعده عبد الله العادل، وعلى هذا الحال ظلّ الصراع، وأصبح الرجل يتولّى الحُكم مدّة أربع أو خمس سنوات فقط ثم يُخلع أو يُقتل، ويأتي غيره وغيره، حتى سارت الدولة نحو هاوية سحيقة.

استقلال ابن هود

وفي سنة (٦٢٥هـ=١٢٢٨م) استقلّ رجل يُسَمّى ابن هود بشرق وجنوب الأندلس، وكان كما يصفه المؤرخون: مفرطًا في الجهل، ضعيف الرأي، لم يُنصر له على النصارى جيش.

وفي سنة (٦٣٣هـ=١٢٣٦م) حدث حادث خطير ومروع، إنه حادث سقوط قرطبة حاضرة الإسلام.

سقوط قرطبة

في موقف لا نملك حياله إلاّ التأسُّف والندم، في سنة (٦٣٣هـ=١٢٣٦م) وبعد حصار طال عدّة شهور، وبعد استغاثة بابن هود الذي كان قد استقلّ بدولته جنوب وشرق الأندلس، والذي لم يُعِرِ اهتمامًا لهذه الاستغاثات؛ بسبب كونه منشغلاً بحرب ابن الأحمر، ذلك الأخير الذي كان قد استقلّ -أيضًا- بجزء آخر من بلاد الأندلس، في كل هذه الظروف سقطت قرطبة، سقطت حاضرة الإسلام في بلاد الأندلس.

سقوط قرطبة وكان أمرًا غاية في القسوة حين لم يجد أهل قرطبة بُدًّا من الإذعان والتسليم والخروج من قُرْطُبَة، وكان الرهبان مصرِّين على قتلهم جميعهم، لكن فرناندو الثالث ملك قشتالة رفض ذلك؛ خشية أن يُدَمِّرَ أهلُ المدينة كنوزها وآثارها الفاخرة، وبالفعل خرج أهلها متّجهين جنوبًا تاركين كل شيء، وتاركين حضارة ومنارة ومجدًا عظيمًا كانوا قد خلّفوه.

سقطت قرطبة التي أفاضت على العالم أجمع خيرًا وبركة، وعلمًا ونورًا، سقطت قرطبة صاحبة ثلاثة آلاف مسجد، وصاحبة ثلاثة عشر ألف

دار، سقطت قرطبة عاصمة الخلافة لأكثر من خمسمائة عام، سقطت قرطبة صاحبة أكبر مسجد في العالم، سقطت جوهرة العالم قرطبة.

سقطت قرطبة في ٢٣ من شهر شوال لسنة ٦٣٣هـ. سقطت وفي يوم سقوط قرطبة تحوّل مسجدها الجامع الكبير إلى كنيسة، وما زال كنيسة إلى اليوم، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله!

سقوط ممالك الأندلس

موقعة أنيشة وسقوط بلنسية

بعد سقوط قرطبة وفي سنة (٦٣٥هـ=١٢٣٧م) استقلّ بنو الأحمر بغرناطة بعد موت ابن هود في السنة نفسها، وسيكون لهم شأن كبير في بلاد الأندلس على نحو ما سنُبَيِّنه، وفي سنة (٦٣٦هـ=١٢٣٧م) وبعد استقلال ابن الأحمر بغرناطة بسنة واحدة، وبعد حصار دام خمس سنوات متصلة سقطت بلنسية على يد ملك أراجون بمساعدة فرنسا، وكان حصارًا شديدًا كاد الناس أن يهلكوا جوعًا، وكان خلاله عدَّة مواقع؛ أشهرها موقعة أنيشة سنة (٦٣٤هـ=١٢٣٧م) التي هلك فيها الكثير من المسلمين من بينهم الكثير من العلماء.

وكان بنو حفص في تونس قد حاولوا مساعدة بلنسية بالمؤن والسلاح، لكن الحصار كان شديدًا، حتى اضطروا لترك البلد تمامًا في سنة (٦٣٦هـ=١٢٣٩م) وهُجِّر خمسون ألفًا من المسلمين إلى تونس، وتحوَّلت للتوِّ كلُّ مساجد المسلمين إلى كنائس، وكانت هذه سياسة مُتَّبَعة ومشهورة للنصارى في كل البلاد الإسلامية التي يُسيطرون عليها، إمَّا القتل وإمَّا التهجير.

سقوط دانية وجيان

سقطت دانية ٦٤١هـ وسقطت جيان ٦٤٣هـ ولم يبق من بلاد الأندلس سوى ولاية غرناطة وولاية إشبيليةوفي سنة (٦٤١هـ=١٢٤٣م) سقطت دانية بالقرب من بلنسية، وفي سنة (٦٤٣هـ=١٢٤٥م) سقطت جيان، وهكذا لم يبقَ في بلاد الأندلس إلاّ ولايتان فقط؛ ولاية غرناطة في الجنوب الشرقي من البلاد، وولاية إشبيلية في الجنوب الغربي، تمثلان حوالي ربع بلاد الأندلس.

هذا مع الأخذ في الاعتبار أن كل ولايات إفريقيا قد استقلّت عن دولة الموحدين، فسقطت بذلك الدولة العظيمة المهيبة المتسعة البلاد المترامية الأطراف.

دولة الموحدين.. أسباب السقوط

دولة الموحدين.. أسباب السقوطقد يُفاجأ البعض ويتعجَّب لهول هذا السقوط المريع لهذا الكيان الكبير بهذه الصورة السريعة المفاجئة، فيسعى للبحث عن علله وأسبابه، وحقيقةُ الأمر أن هذا السقوط لم يكن مفاجئًا؛ فدولة الموحدين كانت تحمل في طياتها بذور الضعف وعوامل الانهيار؛ وكانت كثيرة؛ نذكر منها ما يلي:

الظلم والقتل مع دولة المرابطين

تعاملها بالظلم مع دولة المرابطين، وقتلها الآلاف ممن لا يستحقّون القتل؛ وإن طريق الدم لا يمكن أبدًا أن يُثمر عدلاً، يقول ابن تيمية: «إن الله يُقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يُقيم الظالمة وإن كانت مسلمة».

إن عاقبة الظلم وخيمة، وربما تتأخّر عقوبة الظلم؛ لكنها -بلا شكّ- تقع على الظالم؛ فالله تعالى يُمْهِلُ ولا يُهْمِل، وقد أسرف الموحدون كثيرًا في إراقة دماء مَنْ خالفهم من المسلمين، بل في سفك دماء مَنْ يشكّون في ولائه لهم ممن كانوا معهم -كما رأينا في أمر التمييز الذي قام به ابن تومرت قبل وقعة البحيرة أو البستان، التي عجّل الله لهم العقاب فيها وقتل منهم الكثير، فقد جعل ابن تومرت الأهل يقتلون أبناءهم، بعدما أقنعهم أنهم من أهل النار، وذلك بحيلة ماكرة شاركه فيها أحد الخبثاء ممَّنْ هو على شاكلته -وهذا أمر في غاية الخطورة- لقد حذّر النبي كثيرًا من العداء بين المسلم وأخيه المسلم، ومن التدابر والتحاسد والتناجش والتباغض، روى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو

الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا -وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ- بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ».

العقيدة الفاسدة وتكفير المرابطين

العقائد الفاسدة التي أدخلها ابن تومرت على منهج أهل السنة، وبالرغم من أن المأمون قاومها وأبطلها، إلاّ أنّ أشياخ الموحدين ظلّوا يعتقدون في عصمة محمد بن تومرت وفي صدق أقواله، حتى ذلك العهد؛ وهو ما جعل هذا الإصلاح كأنه ترقيع في ثوب مهلهل عقائديًا.

وثمة أمر آخر لا يقل خطورة عن هذا الأمر، ألا وهو تكفير المرابطين، وقد بنى ابن تومرت على هذه الفكرة جواز قتلهم وحرقهم، وسبي نسائهم، وهدم دولتهم، وتقويض بنيانها من القواعد.

إن تكفير المسلم قضية في منتهى الخطورة، لا ينبغي لعاقلٍ بحال من الأحوال أن يقع فيها، ففي البخاري بسنده عن أبي هريرة أنّ رسول الله قال: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا». وعند مسلم: «أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ».

وقال أبو حامد الغزالي: «والذي ينبغي أن يميل المسلم إليه الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلاً؛ فإن استباحة الدماء والأموال من المصلّين إلى القبلة، المصرِّحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة (قارورة) من دم مسلم».

وقال ابن تيمية: «مَنْ ثبت إيمانه بيقين لم يزل عنه بالشكّ، بل لا يزول إلاّ بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة».

الثورات الداخلية

كان من عوامل سقوط دولة الموحدين -أيضًا- الثورات الداخلية الكثيرة التي قامت داخل دولة الموحدين، وكان أشهرها ثورة بني غانية، والتي كانت في جزر البليار، وفي تونس.

همة النصارى وفتور المسلمين

الإعداد الجيد من قِبَلِ النصارى في مقابل الإعداد غير المدروس من قِبَل الناصر لدين الله ومَنْ تبعه بعد ذلك.

انفتاح الدنيا على دولة الموحدين

وهو أمر مهمٌّ وجدُّ خطير، وهو انفتاح الدنيا على دولة الموحدين، وكثرة الأموال في أيديهم، وهذا ما أدى إلى الترف والبذخ الشديد ثم التصارع على الحُكم.

بطانة السوء

بطانة السوء المتمثِّلة في أبي سعيد بن جامع وزير الناصر لدين الله ومَنْ كان على شاكلته بعد ذلك.

ويُعلِّق على ذلك الدكتور شوقي أبو خليل بقوله: «لقد كان الناصر ألعوبة في يد وزيره ابن جامع، الذي لم يكن مسئولاً عن هزيمة العقاب فقط، بل عن مصير الموحدين بعد الناصر أيضًا، لقد وضع ابن جامع الأسباب القوية التي أدَّت إلى تصدُّع سلطان الموحدين من أساسه.

لقد كُتب لأسرة ابن جامع التي تولّى كثير منها الوزارة، وعلى رأسها أبو سعيد بن جامع أن تُؤَدِّي أخطر دور في تحطيم دولة الموحدين، بمشاركة الأعراب البدو، وأشياخ الموحدين.. لقد تصرف ابن جامع - الذي يمثِّل بطانة

السوء – بدولة الموحدين، فكان له أثره الخطير، ليس في ميدان السياسية الداخلية والخارجية للدولة فحسب، بل على وجود دولة الموحدين نفسه.

إهمال الشورى

إهمال الشورى من قِبَلِ الناصر لدين الله ومَنْ بعده من الأمراء، وإنها لمخالفة صريحة للقرآن الكريم؛ فالله يقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال الله تعالى في صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله– في تفسيره: لا يُبرمون أمرًا حتى يتشاوروا فيه؛ ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب، وما جرى مجراها.

فهذه العوامل وغيرها اجتمعت لتُسقط هذا الكيان الكبير، والذي لم يبقَ منه في بلاد الأندلس إلاّ ولايتان فقط؛ هما غرناطة وإشبيلية، ومع ذلك ظلّ الإسلام في بلاد الأندلس لأكثر من ٢٥٠ سنة من هذا السقوط المروِّع لدولة الموحدين!

وهذه قائمة بأسماء خلفاء دولة الموحدين:

١- عبد المؤمن بن علي (٥٢٤-٥٥٨هـ=١١٢٩-١١٦٣م).

٢- أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي (٥٥٨-٥٨٠هـ=١١٦٣-١١٨٤م).

٣- أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ=١١٨٤-١١٩٩م).

٤- أبو محمد عبد الله الناصر (٥٩٥-٦١٠هـ=١١٩٩-١٢١٣م).

٥- أبو يعقوب يوسف المستنصر (٦١١-٦٢٠هـ=١٢١٣-١٢٢٤م).

٦- عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (٦٢٠-٦٢١هـ=١٢٢٤م).

٧- أبو عبد الله بن يعقوب المنصور (العادل) (٦٢١-٦٢٤هـ=١٢٢٤-١٢٢٧م).

٨- يحيى بن الناصر (٦٢٤-٦٢٧هـ=١٢٢٧-١٢٣٠م).

٩- المأمون بن المنصور (٦٢٧-٦٣٠هـ=١٢٣١-١٢٣٢م).

١٠- الرشيد بن المأمون بن المنصور (٦٣٠-٦٤٠هـ=١٢٣٢-١٢٤٢م).

١١- السعيد علي أبو الحسن (٦٤٠-٦٤٦هـ=١٢٤٢-١٢٤٨م).

١٢- أبو حفص عمر المرتضى (٦٤٦-٦٦٥هـ=١٢٤٨-١٢٦٦م).

١٣- أبو دبوس الواثق بالله (٦٦٥-٦٦٨هـ=١٢٦٦-١٢٦٩م).

الفصل السادس

حكم بني الأحمر ٦٣٥ - ٨٩٧هـ

الصراع بين بني الأحمر وبني مرين

المنصور المريني يدخل مالقة

الدولة المرينية في المغرب والأندلس في أثناء رجوع يعقوب المريني –رحمه الله– يموت حاكم مالقة –وهو من بني أشقيلولة الذين كانوا يسيطرون عليها– فيتولى عليها ابنه من بعده، إلا أن هذا الابن شرع في النـزول عـن مالقة لأبي يعقوب المنصور المريني ؛ نكاية في خاله ابن الأحمر، بل إلى الحد الذي قال فيه للمنصور: إن لم تحزها أعطيتها للفرنج ولا يتملكها ابن الأحمر، وكان من الطبيعي –والحال هذا– أن يسارع المنصور لأخذها والاستجابة لبني أشقيلولة.

ولا شكّ أن موقفه كان في غاية الصعوبة؛ إذ هو الحريص دائمًا على طمأنة محمد الفقيه واسترضائه؛ فلقد كان هذا الأخير لديه من البطانة مثل مـا كان للمعتمد بن عباد من قبله، وهم ممن يرضى بالنزول للنصارى ولا يرضى أن ينزل إلى الجزيرة، أمثال يوسف بن تاشفين ويعقوب المريني!

ولا شكّ –أيضًا– في أن المنصور المريني لم يشأ أن تضيع جهـوده في الجهاد سدى، ولا بُدَّ أنه فكر في ضرورة أن يكون لبني مرين قوات فـي أرض الأندلس يمكنها ردع المحاولات النصرانية، كما يمكنها شلّ الأفكار التي قد تجول في رأس ابن الأحمر حول التحالف مع النصارى، أو النزول لهم عن مزيد من الأراضي.

ولقد كان للمنصور المريني قوات في جزيرة طريف على الساحل الجنوبي لبلاد الأندلس، اشترط نزول ابن الأحمر عنها لدى استدعائه له للغوث والإنجاد؛ وذلك حتى تكون هذه القوات مددًا قريبًا لبلاد الأندلس إذا احتاجوا إليهم في حربهم ضد النصارى، وسبيلاً سهلاً للعبور المغربي إلى الأندلس.

ابن الأحمر والخيانة العظمى

وهنا كرر ابن الأحمر (محمد بن الأحمر الفقيه) سيرة المعتمد بن عباد، وخشي أن تتكرر قصة يوسف بن تاشفين حينما ساعد ملوك الطوائف ثم حاز الأندلس بعدئذٍ وأدخلها في حكم المرابطين، ففكر عازمًا على أن يقف حائلاً وسدًّا منيعًا حتى لا تُضم بلاد الأندلس إلى دولة بني مرين.

ويا لهول! هذا الفكر الذي كان عليه ذلك الرجل الذي لُقب بالفقيه الذي ما هو بفقيه! فماذا يفعل إذًا لكي يمنع ما تكرر في الماضي، ويمنع ما جال بخاطره؟ بنظرة واقعية وجد أنه ليست له طاقة بيعقوب المنصور المريني، فماذا يفعل؟!

كرر سيرة الخيانة ذاتها؛ ومثلما أرسل المعتمد بن عباد من قبل إلى ألفونسو السادس، فعل محمد بن الأحمر الفقيه (!!) مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة، واستعان به في طرد يعقوب المريني من جزيرة طريف.

ولم يكتفِ بهذا، بل سارع ابن الأحمر «الفقيه» (!!) في مراسلة الأمير المغربي يغمراسن بن زيان –ملك المغرب الأوسط، والعدو اللدود للسلطان يعقوب المريني– للمحالفة على المنصور المريني.

ابن الأحمر يدخل مالقة على حراب الصليبيين

وعلى موعد مع الزمن يأتي ملك قشتالة بجيشه وأساطيله ويحاصر جزيرة طريف، وما أن يسمع بذلك يعقوب المنصور المريني –رحمه الله– حتى يُريد أن يعبر من توه إلى الأندلس، إلا أن حوادث المغرب ومضايقات

يغمراسن تمنعه وتعوقه، حتى لقد بلغ الحال بالمسلمين المحاصرين في الأندلس أنهم «قتلوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفـر»[٦]، فأغمـه هذا، فأرسل ابنه الأمير أبا يعقوب على رأس أسطول ضخم في أوائـل سـنة (٦٧٨هـ=١٢٧٩م)، وتُحَدِّثنا مصادر التاريخ عن فقيه من سبتة اسـمه أبـو حاتم العزفي أبلى البلاء الحَسن في حشد الناس، واستنفارهم للجهـاد؛ حتـى ركب أهل سبتة جميعًا للجهاد من الفتى الذي بلغ الحلم فما فوقه، وتوفرت همم المسلمين على الجهاد وصدقت عزائمهم على الموت.

واستطاع ابن الأحمر في ظل هذه الكوارث التي أثارهـا للمـارينيين بالمغرب والأندلس أن يأخذ مالقة ويستولي عليها ويُدخلها في حكمه، وعندئـذ تكون الأمور قد عادت إلى ما كان يحب ويرغب من إخراج المـرينيين مـن مالقة.

بين الأسطول الإسلامي والأسطول النصراني

ثم بدا لابن الأحمر -مما وصل إليه حال المسلمين المحاصرين مـن جيوش النصارى- أن النصارى يستعدون لأخذها، وليس فقط إخراج المرينيين منها، وأنها على وشك أن تقع بأيديهم بالفعل، فندم على ما صنع ونبـذ عهـده وأعد أساطيله وجعلها مددًا للمسلمين، واجتمعت الأساطيل بميناء سبتة تنـاهز السبعين، فنشبت بين الأسطول الإسلامي وبين الأسطول النـصراني معركـة هائلة هُزم فيها النصارى، واستولى المسلمون على سفنهم، ونزلوا بـالجزيرة، ففرَّ منها النصارى في الحال.

أمَا كان ابن الأحمر يعتبر بالتاريخ حتى نهايته، فيُبصر فيـه نـصر يوسف بن تاشفين على المعتمد بن عباد ومعه الفرنج، ولو فعل ذلك لاكتملـت له مسيرة القصة فيعتبر بها كلها، بدل أن يخشى من أحد فصولها فيكرر سيرة الخيانة!! إنه نموذج للحاكم الذي تضيع على يديه الممالك والـبلاد، وتُمْحَـى بسيرته أمجاد سطرها العظماء والفاتحون والمجاهدون الكبار.

وللنقمة التي ملأت قلب الأمير أبي يعقوب -ابن المنصور المريني، وقائد النصر البحري- على ابن الأحمر، فكّر في أن يتحالف مع النصارى ضد ابن الأحمر حتى يُذهب ملكه في غرناطة، وأرسل بهذا إلى أبيه في المغرب، فأنكر عليه المنصور ذلك ورفضه تمامًا.

وفي هذا الوقت نفسه ينقلب النصارى على ابن الأحمر، ويتحالفون مع بني أشقيلولة ويهاجمون غرناطة، إلا أن ابن الأحمر استطاع ردهم عنها.

المنصور المريني يعرض الصلح ثانية

ورغم خطورة الموقف الذي أوقع ابن الأحمر نفسه فيه؛ إذ جعل الكل أعداءه، فتحالف على نصيره الوحيد وهم بنو مرين، فجعلهم عدوًّا جديدًا يضاف إلى النصارى وإلى بني أشقيلولة رغم خطورة هذا الموقف ودقته إذا به يستقبل الرسالة التي تنزل على قلبه بردًا وسلامًا، وهي رسالة من السلطان يعقوب المنصور المريني، يُجَدِّد فيه الرغبة في الصلح والتحالف، ويحذر من خطورة انفصام هذا التحالف على المسلمين في الأندلس ومصيرهم.

وما كان أمام ابن الأحمر الفقيه إلا أن يقبل ويستجيب أمام هذا الخلق الإسلامي الكريم، فيكسب قومًا طالما جاهدوا معه، ونصروه وأعزوه، وعاداهم هو بحماقته، فلم يلبث إلا أن دارت عليه الدوائر.

المنصور المريني والصلح مع النصارى

هدأت العلاقات وصَفَت بين المنصور وبين ابن الأحمر لفترة من الزمن، ثم انقلب الحال في قشتالة نفسها؛ إذ ثار سانشو بن ألفونسو العاشر على أبيه، فلجأ ألفونسو العاشر إلى المنصور المريني، الذي جاز إلى الأندلس معاونةً لألفونسو، واستغلالاً لهذه الفرصة في ضرب بعضهم ببعض، ثم جاز مرة ثانية بعد أن مات ألفونسو العاشر، فصالحه النصارى وعقدوا معه عقدًا للهدنة والموادعة.

ثم وَفَد سانشو بعد ذلك على أمير المسلمين، وفيها سأل المنصور سانشو أن يرسل إليه من الكتب التي أخذوها من بلاد المسلمين في الأندلس، فأرسل إليه بعد عودته إلى بلاده ١٣ حملاً .

تكرار الخيانة من ابن الأحمر

بعد الموقعة السابقة بعام واحد وفي سنة (٦٨٥هـ= ١٢٨٦م) يموت المنصور المريني -رحمه الله- ويخلفه على إمارة بني مرين ابنه يوسف بن المنصور، ومن حينها يذهب ابن الأحمر (الفقيه) إليه ويعرض عليه الولاء والطاعة، وكان قد تم اتفاق بينهما فيما مضى حينما نزل الجيش المغربي إلى الأندلس وهزم الأساطيل النصرانية، وفيه أن ينزل الأمير يوسف بن يعقوب لابن الأحمر عن كل الثغور الأندلسية التابعة لبلاد العدوة المغربية، عدا الجزيرة وطريف، وتفرق الملكان وهما على أكمل حالات المصافاة، ثم كذلك نزل السلطان يوسف المريني لابن الأحمر عن وادي آش بعد ذلك سنة (٦٨٦هـ) .

في هذه الأثناء وبعدها نقض سانشو المعاهدة التي كان أبرمها مع المرينيين؛ مستغلاً انشغال السلطان المغربي بشئون المغرب واضطراباته، فهاجموا البلاد الإسلامية، فعبر إليه السلطان، وغزا بلاده وهزمه، وهنا أرسل سانشو إلى ابن الأحمر يُخَوِّفه السلطان المريني على ملكه، ويسأله محالفته حتى يتمكنوا من منع بني مرين من العبور إلى الأندلس ثانية، وأن ليس إلى ذلك من سبيل إلا أن يستولوا على جزيرة طريف.

سقوط جزيرة طريف بيد النصارى

مملكة غرناطة في ظل حكم بني الأحمرومن جديد اعتملت الوساوس في قلب ابن الأحمر، ووقع في الفخ النصراني القاتل، وما درىٰ المسكين أنه يخنق نفسه بيده، فوافق على التحالف مع النصارى شريطة أن يأخذ هو طريف إن استُولي عليها، أما ملك قشتالة فإنه يحصل على ستة حصون من

ابن الأحمر، وبالفعل حاصر ملك قشتالة طريف، وكان ابن الأحمر يمده بالمؤن والأقوات، واستمرّ الحصار حتى أنهك أهلها تمامًا، وسلموا لملك قشتالة على شروط.

وكسابقة وعلى موعد أيضًا مع الزمن يأتي بالفعل جيش النصارى ويحاصر طريف كما فعل في السابق، لكن في هذه المرة يستطيعون أن يسقطوا طريف.

لكن النصارى بعد أن استولوا عليها لم يُعيدوها إليه، وإنما أخذوها لأنفسهم؛ وبذلك يكونون قد خانوا العهد معه، وتكون قد حدثت الجريمة الكبرى والخيانة العظمى وسقطت طريف.

وكان موقع طريف هذه في غاية الخطورة؛ فهي تطل على مضيق جبل طارق، ومعنى ذلك أن سقوطها يعني انقطاع بلاد المغرب عن بلاد الأندلس، وانقطاع العون والمدد من بلاد المغرب إلى الأندلس تمامًا.

أبو عبد الله بن الحكيم وأمور يندى لها الجبين

في سنة (٧٠١هـ= ١٣٠٢م) يموت ابن الأحمر الفقيه ويتولى من بعده محمد الثالث، والذي كان يلقب بالأعمش، ويُعرف بالمخلوع، وكان رجلاً ضعيفًا جدًّا، وقد تولى الأمور في عهده الوزير أبو عبد الله بن الحكيم -الذي ما هو بحكيم- حيث كانت له السيطرة على الأمور في بلاد غرناطة، و«انصرف عن موالاة سلطان المغرب إلى موالاة ملك قشتالة»

لم يكتفِ أبو عبد الله بن الحكيم بذلك، لكنه زاد على السابقين له في هذه المحالفات وغيرها بأن فعل أفعالاً يندى لها الجبين، فأوعز أبو عبد الله المخلوع إلى ابن عمه حاكم مالقة بمداخلة أهل سبتة في خلع طاعة السلطان يوسف المريني، والدخول في طاعة ابن الأحمر، ثم جهّز جيشًا وذهب ليقاتل، تُرى من يقاتل؟! أيقاتل النصارى الذين هم على حدود ولايته، أم من يقاتل؟!

كانت الإجابة المخزية أنه ذهب بجيشه واحتلّ سبتة في بلاد المغرب، ذهب إلى دولة بني مرين واحتلّ مدينة سبتة حتى يقوي شأنه في مضيق جبل طارق، وتم احتلال سبتة بالفعل وأعلن أبو عبد الله بن الحكيم الأمان لأهل سبتة، وإرساله حكام سبتة المخلوعين إلى غرناطة.

وفي سبيل لزعزعة الحُكم في بني مرين، انطلق رجل مغربي كان من المرينيين الذين يقيمون في الأندلس ويُدعى عثمان بن أبي العلاء، انطلق من سبتة إلى البلاد المغربية المحيطة في محاولة للسيطرة عليها؛ أملاً في أن يتمكن من السيطرة على المغرب، وساعده على ذلك مشاكل المغرب الداخلية، ثم ما كان من مقتل السلطان يوسف المريني، وما أدى إليه من فتنة بين ولديه أبي سالم وأبي ثابت، انتهت بانتصار أبي ثابت واستيلائه على العرش، ثم مات أبو ثابت بعد ذلك بقليل، وخلفه أخوه أبو الربيع سليمان، وهو الذي هزم عثمان بن أبي العلاء بعد ذلك فارتد إلى الأندلس من جديد.

وإنه -بلا شكٍّ- غباء منقطع النظير، أمر لا يقرُّه عقل ولا دين، لكن هذا ما حدث، فكانت النتيجة أنه بعد ذلك بأعوام قليلة استغل النصارى الثورة التي قامت على أبي عبد الله المخلوع وتولية أخيه أبي الجيوش نصر بدلاً منه، فزحفوا بجيوشهم نحو جبل طارق حتى سقط في أيديهم في سنة (٧٠٩هـ= ١٣٠٩م)، فعُزلت -بهذا- بلاد الأندلس عن بلاد المغرب، وتركت غرناطة لمصيرها المحتوم.

سقوط غرناطة

غرناطة كان مقتل موسى بن أبي غسان وتسليم أبو عبد الله محمد الثاني عشر غرناطة إيذانًا بانتهاء عصر الدولة الإسلامية في غرناطة.

أعطى أبو عبد الله محمد الثاني عشر أو محمد الصغير الموافقة بالتسليم للملكين فرناندو الخامس وإيزابيلا، ولم ينسَ أن يرسل إليهما بعضًا من

الهدايا الخاصة، وبعد التسليم بأيام يدخل الملكان في خيلاء قصر الحمراء الكبير ومعهما الرهبان، وفي أول عمل رسمي يقومون بتعليق صليب فضي كبير فوق برج القصر الأعلى، ويُعلن من فوق هذا البرج أن غرناطة أصبحت تابعة للملكين الكاثوليكيين ، وأن حكم المسلمين قد انتهى من بلاد الأندلس.

خروج آخر ملوك المسلمين من الأندلس

وفي نكسة كبيرة وفي ظلِّ الذل والصغار يخرج أبو عبد الله محمد بن الأحمر الصغير آخر ملوك المسلمين في غرناطة من القصر الملكي، ويسير بعيدًا في اتجاه بلدة أندرش، حتى وصل إلى ربوة عالية تُطل على قصر الحمراء يتطلع منها إليه، وإلى ذاك المجد الذي قد ولّى، وبحزن وأسى قد تبدّى عليه لم يستطع فيه الصغير أن يتمالك نفسه، انطلق يبكي حتى بللت دموعه لحيته، حتى قالت له أمه «عائشة الحرة»: أجل؛ فلتبك كالنساء مُلْكًا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال.

وإلى هذه اللحظة ما زال هذا التل -الذي وقف عليه أبو عبد الله محمد الصغير- موجودًا في إسبانيا، وما زال الناس يذهبون إليه، يتأمّلون موضع هذا الملِك الذي أضاع مُلكًا أسسه الأجداد، ويُعرف (هذا التل) بـ زفرة العربي الأخيرة، وهو بكاء أبي عبد الله محمد الصغير حين ترك ملكه.

وقد تم ذلك في الثاني من شهر ربيع الأول، سنة ٨٩٧هـ = ٢ من يناير سنة ١٤٩٢م.

وقد هاجر بعدها أبو عبد الله محمد الصغير إلى بلاد المغرب، ويذكر المقري أنه استقر بفاس، وبنى بها قصورًا على طراز الأندلس، وأن المقري نفسه قد تجوّل في هذه القصور، ورأى ذريته في فاس سنة (١٠٢٧م) يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويعدون من جملة الشحاذين.

فلعنة الله على هذا الذُلّ! ولعنة الله على هذا التَّرك للجهاد! اللذَيْن يوصلان إلى هذا المثوى وتلك المنزلة.

وما كان من أمر، فقد اندثرت حضارة ما عرفت أوربا مثلها من قبل؛ إنها حضارة الدنيا والدين، وقد انطوت صفحة عريضة خسر العالم أجمع بسببها الكثير والكثير، وقد ارتفع علم النصرانية فوق صرح للإسلام المغلوب، وأفل وإلى الآن نجم دولة الإسلام في بلاد الأندلس.

وليت شعري، أين موسى بن نصير؟!

أين طارق بن زياد؟!

أين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر؟!

أين المنصور بن أبي عامر؟!

أين يوسف بن تاشفين؟!

أين أبو بكر بن عمر اللمتوني؟!

أين يعقوب المنصور الموحدي؟!

أين يعقوب المنصور المريني؟!

أين كل هؤلاء؟!

غابوا وانقطعت آثارهم وإمداداتهم، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله!

أسباب سقوط غرناطة

كانت عوامل انحدار وسقوط وضياع الأمم قد تشابهت إلى حدٍّ كبير في كل فترات الضعف في تاريخ الأندلس، وهذه العوامل نفسها قد زادت وبشدّة في فترة غرناطة؛ ولذلك كان السقوط كاملاً وحاسمًا؛ وكان من هذه العوامل ما يلي:

حب الدنيا والإغراق في الترف

كان الإغراق في الترف، والركون إلى الدنيا وملذاتها وشهواتها، والخنوع والدعة والميوعة، هي أولى العوامل التي أدّت إلى تلك النهاية المؤلمة، وقد ارتبطت كثيرًا فترات الهبوط والسقوط بكثرة الأموال والانغماس في الملذاتِ، والميوعة الشديدة في شباب الأمة، والانحطاط الكبير في الأهداف؛

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١١- ١٣].

وهكذا يا أهل غرناطة، أين ستذهبون؟ وإلى أين ستركضون؟ ارجعوا إلى قصر الحمراء، وارجعوا إلى مساكنكم وما أترفتم فيه، وسلموا هذه البلاد إلى النصارى، وتذوقوا الذُلّ كما لم تعملوا للعزة وللكرامة!

ترك الجهاد في سبيل الله

وهو أمر ملازم لمن أُغرق في الترف؛ فالجهاد سنة ماضية إلى يوم القيامة، وقد شرعه الله ليعيش المسلمون في عزّة ويموتون في عزّة، ثم يدخلون بعد ذلك الجنة ويُخلّدون فيها.

وإن الناظر إلى عهد الأندلس ليتساءل: أين أولئك الذين كانوا يجاهدون في حياتهم مرة أو مرتين كل عام، وبصفة مستمرة ودائمة؟! أين يوسف بن تاشفين، وأين أبو بكر بن عمر اللمتوني؟ وأين الحاجب المنصور؟ وأين عبد الرحمن الناصر وغيرهم؟

وإنها لعبرة وعظة حين ننظر إلى ملوك غرناطة، ومَنْ كان على شاكلتهم حين ذَلّوا وأهينو لَمّا تركوا الجهاد في سبيل الله؛ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة: ٣٨- ٣٩].

وقد يظن البعض أنه يجب على الملتزمين بالمنهج الإسلامي أن يضحوا بأرواحهم، ويظلوا يعيشون حياة الضنك والتعب والألم في الدنيا؛ وذلك حتى يصلوا إلى الآخرة، وإن حقيقة الأمر على عكس ذلك تمامًا؛ إذ لو عاش المسلمون الملتزمون بمنهج الإسلام على الجهاد لعاشوا في عزة ومجد، وفي سلطان ومُلك من الدنيا عريض، ثم لهم في الآخرة الجنة خالدين فيها بإذن الله.

الإسراف في المعاصي

يتبع العاملَيْن السابقين عامل الإسراف في المعاصي؛ فجيش المسلمين لا يُنصَر بالقوة ولا بالعدد والسلاح، لكنه يُنصر بالتقوى.

فإذا بعُد المسلمون عن دين ربهم، وإذا هجروا نهج رسولهم كُتب عليهم الهلكة والذلّة والصغار، يقول رسول الله : «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ».

وإذا كان هذا حال محقّرات الذنوب، تلك التي يستحقرها العبد من فرط هوانها، فلا تزال تجتمع عليه حتى تهلكه، فما البال.وما الخطب بكبائر الذنوب من ترك الصلاة، والزنا، والتعامل بالربا، وشرب الخمور، والسب واللعن، وأكل المال الحرام؛ فأي نصر يُرجى ويُتَوقّع بعد هذا؟!

كانت هذه هي أهم عوامل السقوط في دولة الأندلس، وهناك غيرها الكثير مثل:

- الفرقة والتشرذم
- موالاة النصارى واليهود والمشركين

وقد قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وآيات غيرها كثير.

توسيد الأمر لغير أهله

وكان ذلك واضحًا جدًّا خاصة في ولاية هشام بن الحكم، وولاية الناصر بعد أبيه يعقوب المنصور الموحدي، وأيضًا ولاية جميع أبناء الأحمر في ولاية غرناطة.

الجهل بالدين

وقد وضح جيدًا قيمة العلم والعلماء في زمن عبد الله بن ياسين، وزمن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، وما حدث في عهدهما من قوّة بعد هذا العلم، ووضح -أيضًا- أثر الجهل في نهاية عهد المرابطين، وفي عهد دولة الموحدين، حيث انتشر الجهل بين الناس، وسادت بينهم آراء ومعتقدات غريبة وعجيبة، كان من ذلك -أيضًا- ما حدث من الجهل بأمر الشورى، وهو أصل من الأصول التي يجب أن يحكم بها المسلمون، وكيف اعتدّوا بآرائهم، وكيف قبل الناس ذلك منهم؟!

الفصل السابع

محنة المسلمين بعد سقوط غرناطة ومحاكم التفتيش

مآسي المسلمين بعد سقوط غرناطة

كالعادة ولطبيعة جُبلت نفوسهم عليها -بعد أن ترك أبو عبد الله محمد الثاني عشر البلاد- لم يوف النصارى بعهودهم مع المسلمين، بل تنكّروا لكلامهم والتزامهم بالحفاظ على الحريات الدينية في غرناطة، وحماية الأماكن المقدسة للمسلمين، وما إلى ذلك مما ورد في شروط تسليم المدينة، فقد أهانوا المسلمين بشدة، وصادروا أموالهم؛ وكان ذلك مصداق قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨].

وبعد تسع سنوات من سقوط غرناطة، وفي سنة (١٥٠١م) أصدر الملكان فرناندو الخامس وإيزابيلا أمرًا كان خلاصته أنه لَمَّا كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة (المسلمين)، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، فإذا كان بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم؛ خوفًا من أن يتأخر تنصيرهم، أو بأولئك الذين تنصروا لئلاّ يفسدوا إيمانهم، ويعاقب المخالفون بالموت أو بمصادرة الأموال.

ومن هذا المنطلق قام النصارى بعدة أمور؛ كان منها:

التنصير

تعميد نساء المسلمين جبراً بعد سقوط غرناطةولكي يعيش آخرون في بلاد الأندلس في ظل حكم النصارى الإسبان، تَنَصَّر من المسلمين بعضهم[٢]، وهؤلاء لم يرتضِ لهم النصارى الإسبان حتى بالنصرانية، فلم يتركـوهم دون إهانة، وقدِ سمَّوْهم بالموريسكيين؛ احتقارًا لهم، وتصغيرًا من شأنهم، فلم يكـن الموريسكي نصرانيًّا من الدرجة الأولى؛ لكنه كان تصغيرًا لهـذا النـصراني الأصيل.

وقد نقل إلينا الدون لورنتي مؤرِّخ ديوان التحقيق الإسباني وثيقة مـن أغرب الوثائق القضائية؛ تضمنت طائفة من القواعـد والأصـول التـي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها العرب المتنصرين في تهمـة الكفـر والمـروق، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة:

«يعتبر الموريسكي أو العربي المتنصر قد عاد إلى الإسلام: إذا امتدح دين محمد، أو قال: إن يسوع المسيح ليس إلهًـا، ولـيس إلا رسـولاً. أو أنَّ صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يُبَلِّغَ عن ذلك، ويجب عليه -أيضًا- أن يُبَلِّغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحدًا من الموريسكيين يُباشر بعض العادات الإسلامية؛ ومنها أن يأكل اللحم فـي يـوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثيابًا أنظف من ثيابه العادية، أو يستقبل المشرق قائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها امرأة، أو يختن أولاده، أو يسميهم بأسماء عربية، أو يُعرب عن رغبته في اتباع هذه العـادة، أو يقـول: يجب ألا يعتقد إلاَّ في الله وفي رسوله محمد، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان، ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتنـاول الطعام قبل الفجر -السحور- أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمـر، أو يقوم بالوضوء والصلاة؛ بأن يُوَجِّه وجهه نحو الشرق، ويركـع ويـسجد،

ويتلو سورًا من القرآن، أو أن يتزوج طبقًا لرسوم الشريعة الإسلامية، أو ينشد الأغاني العربية، أو يُقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية، أو أن يستعمل النساء الخضاب – الحناء – في أيديهن أو شعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيده على رءوس أولاده أو غيرهم؛ تنفيذًا لهذه القواعد، أو يغسل الموتى ويكفنهم في أثواب جديدة، أو يدفنهم في أرض بكرٍ، أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة واصفًا إياه بالنبي ورسول الله، أو يقول: إن الكعبة أول معابد الله، أو يقول: إنه لم ينصَّر إيمانًا بالدين المقدس، أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله؛ لأنهم ماتوا مسلمين... إلخ.

التهجير

طرد الموريسكيين من الأندلس لم تخل البلاد الإسلامية من ثورات شعبية ومواجهات محدودة الإمكانيات بمنطق «حرب العصابات»، وكان المجاهدون يختبئون في الجبال والأودية والمناطق البعيدة، ثم يشنُّون غاراتهم على القوات الإسبانية، وقد نجحوا كثيرًا في إنزال خسائر مؤثرة بالإسبان، وقد اشتدت هذه الحركات لا سيما بعد قرار التنصير الذي اعتمدته إسبانيا، فزاد عدد الثائرين والمنحازين للمجاهدين، وقد عزم الإسبان في البداية على القضاء على الثوار، إلا أنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعًا، فلما يئسوا من القضاء عليهم، أصدروا عفوا عامًّا عنهم، وسمحوا لهم بالهجرة.إلى بلاد المغرب، دون أن يأخذوا معهم غير الثياب التي كانت عليهم، أما الباقون فقد كان ثمة أمر ملكي بمنع الهجرة، ثم صدر الأمر بعد ذلك عام (١٦٠٩م) –أي بعد مائة سنة تقريبًا– بنفي الموريسكيين.

شهادة الكولونيل ليموتسكي

كتب الكولونيل ليموتسكي أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا قال: «كنت سنة ١٨٠٩م ملحقًا بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في إسبانيا، وكانت

فرقتي بين فرق الجيش الذي احتل (مدريد) العاصمة، وكان الإمبراطور نابليون أصدر مرسومًا سنة ١٨٠٨م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية، غير أن هذا الأمر أهمل العمل به للحالة والاضطرابات السياسية التي سادت وقتئذٍ.

وصمم الرهبان الجزويت أصحاب الديوانِ الملغى على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم انتقامًا من القرار الصادر، وإلقاءً للرعب في قلوب الفرنسيين؛ حتى يضطروا إلى إخلاء البلاد فيخلوا لهم الجو.

وبينما أسير في إحدى الليالي أجتاز شارعًا يقل المرور فيه من شوارع مدريد؛ إذ باثنين مسلحين قد هجما عليَّ؛ يبغيان قتلي فدافعت عن حياتي دفاعًا شديدًا، ولم ينجني من القتل إلا قدوم سرية من جيشنا مكلفة بالتطواف في المدينة، وهي كوكبة من الفرسان تحمل المصابيح، وتبيت الليل ساهرة على حفظ النظام، فما أن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهرب، وتبين من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش، فأسرعتُ إلى (المارشال سولت) الحاكم العسكري لمدريد، وقصصت عليه النبأ وقال: لا شك بأن مَنْ يُقتل من جنودنا كل ليلة إنما هو من صنع أولئك الأشرار، لا بد من معاقبتهم وتنفيذ قرار الإمبراطور بحل ديوانهم، والآن خذ معك ألف جندي وأربع مدافع، وهاجم دير الديوان، واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة..».

حدث إطلاق نار من اليسوعيين حتى دخلوا عَنْوة، ثم يتابع قائلاً: «أصدرتُ الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعًا وعلى جنودهم الحراس توطئة لتقديمهم إلى مجلس عسكري، ثم أخذنا نبحث بين قاعات وكراسٍ هزازة، وسجاجيد فارسية، وصور ومكاتب كبيرة، وقد صنعت أرض هذه الغرفة من الخشب المصقول المدهون بالشمع، وكان شذى العطر يعبق أرجاء الغرف، فتبدو الساحة كلها أشبه بأبهاء القصور الفخمة، التي لا يسكنها إلا ملوك قصروا حياتهم على الترف واللهو، وعلمنا بعد أنَّ تلك الروائح

المعطرة تنبعث من شمع، يوقد أمام صور الرهبان، ويظهر أن هذا الشمع قد خلط به ماء الورد.

وكادت جهودنا تذهب سدى، ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب، إننا فحصنا الدير وممراته وأقبيته كلها، فلم نجد شيئًا يدل على وجود ديوان للتفتيش، فعزمنا على الخروج من الدير يائسين، كان الرهبان أثناء التفتيش يقسمون ويؤكدون أن ما شاع عن ديرهم ليس إلا تهمًا باطلة، وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه بصوت خافت، وهو خاشع الرأس، توشك عيناه أن تطفر بالدموع، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير، لكن اللفتنانت «دي ليل» استمهلني قائلاً: أيسمح لي الكولونيل أن أخبره أن مهمتنا لم تنتهِ حتى الآن؟! قلت له: فتشنا الدير كله، ولم نكتشف شيئًا مريبًا؛ فماذا تريد يا لفتنانت؟! قال: إنني أرغب أن أفحص أرضية هذه الغرف؛ فإن قلبي يحدثني بأن السرَّ تحتها.

عند ذلك نظر الرهبان إلينا نظرات قلقة، فأذنت للضابط بالبحث، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاجيد الفاخرة عن الأرض، ثم أمرهم أن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة -وكنا نرقب الماء- فإذا بالأرض قد ابتلعته في إحدى الغرف. فصفق الضابط «دي ليل» من شدة فرحه، وقال: ها هو الباب، انظروا. فنظرنا فإذا بالباب قد انكشف، كان قطعة من أرض الغرفة، يُفتح بطريقة ماكرة، بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جانب رجل مكتب رئيس الدير.

أخذ الجنود يكسرون الباب بقحوف البنادق، فاصفرت وجوه الرهبان، وعلتها الغبرة.

محاكم التفتيش .. أهوال تشيب لها الولدان

محاكم التفتيش ضد مسلمي الأندلسوفُتح الباب، فظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض، فأسرعتُ إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر، كانت تضيء أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين، ولما هممت بالنزول، وضع راهب يسوعي يده على كتفي متلطفًا، وقال لي: يابني؛ لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال، إنها شمعة مقدسة.

قلت له: يا هذا؛ إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بدم الأبرياء، وسنرى من النجس فينا، ومن القاتل السفاك؟!

وهبطت على درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود، شاهرين سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج، فإذا نحن في غرفة كبيرة مرعبة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها.

وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء، ثم توجهنا إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية، التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض.

رأيتُ فيها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى القشعريرة والتقزز طوال حياتي.

رأينا غرفًا صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الغرف العمودية واقفًا على رجليه مدة سجنه حتى يموت، ويبقى سجين الغرف الأفقية ممدًا بها حتى الموت، وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذة صغيرة إلى الفضاء الخارجي.

وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت في أغلالها.

كان السجناء رجالاً ونساءً، تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والسبعين، وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم ، وهم في الرمق الأخير من الحياة.

كان بعضهم قد أصابه الجنون من كثرة ما صبُّوا عليه من عذاب، وكان السجناء جميعًا عرايا، حتى اضطر جنودنا إلى أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء.

أخرجنا السجناء إلى النور تدريجيًا حتى لا تذهب أبصارهم، كانوا يبكون فرحًا، وهم يُقبِّلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الرهيب، وأعادوهم إلى الحياة، كان مشهدًا يُبكي الصخور.

ثم انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، كانوا يبدءون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيًا، حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين، ثم عثرنا على صندوقٍ في حجم جسم رأس الإنسان تمامًا، يُوضع فيه رأس الذي يُريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال؛ حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام في كل دقيقة نقطة، وقد جُنَّ الكثيرون من هذا اللون من العذاب، ويبقى المعذَّب على حاله تلك حتى يموت.

وآلة أخرى للتعذيب على شكل تابوت تُثَبَّت فيه سكاكين حادة.

كانوا يلقون الشاب المعذب في هذا التابوت، ثم يطبقون بابه بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مُزِّق جسم المعذب المسكين، وقطعه إربًا إربًا.

أدوات تعذيب محاكم التفتيشكما عثرنا على آلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشدُّ ليخرج اللسان معها، ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس في أثداء النساء وتسحب بعنفٍ؛ حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين.

وعثرنا على سياط من الحديد الشائك، يُضرب بها المعذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم، وتتناثر لحومهم.

وصل الخبر إلى مدريد فهب الألوف ليروا وسائل التعذيب، فأمسكوا برئيس اليسوعيين ووضعوه في آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقًا، وسحقها سحقًا، وأمسكوا كاتم سرِّه وزفوه إلى السيدة الجميلة وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين شرَّ ممزق، ثم أخرجوا الجثتين وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك، ولم تمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على حياة ثلاثة عشر راهبًا ثم أخذ ينهب ما بالدير.

محاكم التفتيش الإسبانية كانت مؤسسة تأسست في ١٤٧٨ من قبل الملوك الكاثوليك، كبديل لمحكمة التفتيش البابوية التي كانت سائدة في القرون الوسطى، كمؤسسة لم يسبق لها مثيل في المؤسسات المماثلة في أوروبا في القرن الثالث عشر (انظر مادة محاكم التفتيش)، وكانت تحت السيطرة المباشرة للملكية، ولم يتم إلغاؤها حتى ١٨٣٤. وقد تم التأسيس في ١ نوفمبر تشرين الثاني من عام ١٤٧٨ بموافقة البابا سيكستوس الرابع.

تمت محاكمة ما لا يقل عن ١٥٠،٠٠٠ حالة طوال فترة محاكم التفتيش منذ القرن الثاني عشر. وبلغت عدد حالات الإعدام الموثقة ما قبل ١٥٣٠ حوالي ٢،٠٠٠ حالة وحوالي ١،٠٠٠ ما بين ١٥٣٠-١٦٣٠ و ٢٥٠ ما بعد ١٦٣٠.

في القرن السادس عشر أصبحت إسبانيا أكبر قوة كاثوليكية في العالم آنذاك. وتم إجبار كل المسلمين في قشتالة على التنصر في عام ١٥٠٢، ثم تم

إجبار المسلمين في أراغون على التنصر عام ١٥٢٦. وكانت إسبانيا نموذجًا لدولة دينية سلطوية، فتتحكم وتعين الكنيسة فيها الملوك والأباطرة الذين يحكمون بحاكميه تسمى ظل الله في الأرض أو قانون الحق الإلهي. وللقضاء على ما سموه وقتها بالفساد فقد قامت بتأسيس محاكم تفتيش، واستهدفت من ثم إجبارهم على التنصر من المسلمين واليهود ثم استهدفت المعتقدات المسيحية الأخرى وخاصة البروتستانتية.

أهدافها

كانت محاكم التفتيش في إسبانيا منذ القرن الثاني عشر موجهة ضد الكاثاريون الذين حوكموا كهراطقة. وفي ١٤٧٧ أقنع رئيس الرهبنة الدومنيكي الملكة إيزابيلا بأن بعض اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية لا يزال يمارس اليهودية سراً فقامت بتشكيل محاكم خاصة للنظر في مصداقية هذا الإدعاء. كما شملت هذه المحاكمات المسلمين المتنصرين الذين اجبروا على اعتناق المسيحية عام ١٥٠٢. وبحلول سنة ١٥٧١ أصبح ٨٢% من المحاكمين من الموريسكو.

وكان القس "توماس دي تركيمادا"، يرأس هيئة التفتيش للبحث عن هؤلاء الهراطقه، فيقوم بوعظهم وتعذيبهم وقتلهم إن لم يعودوا إلى كنف الكنيسه الكاثوليكيه، وكان يسمى بالمفتش العظيم أو جراند إنكويستر، وكان يعدم واحدًا على الأقل من كل عشرة أشخاص يمثلون أمام محكمته وكان ذلك بأسلوب خجلت منه الكنيسه الكاثوليكيه واعتذرت عنه للعالم. ويكفي أن ننقل ما سطره غوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب" حيث يقول عن محاكم التفتيش: «يستحيل علينا أن نقرأ دون أن ترتعد فرائصنا من قصص التعذيب والاضطهاد التي قام بها المسيحيون المنتصرين على المسلمين المنهزمين، فلقد عمدوهم عنوة، وسلموهم لدواوين التفتيش التي أحرقت منهم ما استطاعت من الجموع. واقترح القس "بليدا" قطع رؤوس كل العرب دون أي استثناء ممن لم

يعتنقوا المسيحية بعد، بما في ذلك النساء والأطفال، وهكذا تم قتل أو طرد ثلاثة ملايين عربي». وكان الراهب بيلدا قد قتل في قافلة واحدة للمهاجرين قرابة مئة ألف في كمائن نصبها مع أتباعه..[ادعاء غير موثق منذ ١٨٤ يوماً] وكان بيلدا قد طالب بقتل جميع العرب في أسبانيا بما فيهم المتنصرين، وحجته أن من المستحيل التفريق بين الصادقين والكاذبين فرأى أن يقتلوا جميعاً بحد السيف، ثم يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى، فيدخل النار من لم يكن صادقاً منهم. يقول د. لوبون: «الراهب بليدي أبدى ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة مؤلفة من ١٤٠ ألف مهاجر مسلم، حينما كانت متجهة إلى إفريقي

كانت محاكم التفتيش وسيلة ملوك أسبانيا الصليبيين لتطهير أسبانيا من المسلمين. وذلك برغم المعاهدة الموقعة منهم عندما سقطت غرناطة –آخر قلاع المسلمين في إسبانيا– سنة (٨٩٨ هـ \ ١٤٩٢م). حيث نصت المعاهدة بين أبي عبد الله الصغير والملوك الكاثوليك وضمنها البابا وأقسم عليها: "تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال إبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وإقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كما كذلك وألا يدخل نصراني دار المسلم ولا يغصبوا أحدا....و ألا يؤخذ أحد بذنب غيره وألا يُكره من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ولا ينظر نصراني على دور المسلمين ولا يدخل مسجدا من مساجدهم ويسير في بلاد النصارى آمنا في نفسه وماله... ولا يمنع مؤذن ولا مصلي ولا صائم ولا غيره في أمور دينه".[ادعاء غير موثق منذ ٧٨٩ يوماً]

تم نقض المعاهدة كلياً. وتم حظر اللغة العربية، وأحرق الكردينال "أكزيمينيس" عشرات الآلاف من كتب المسلمين.[ادعاء غير موثق منذ ١٨٤ يوماً] يقول غوستاف لوبون: "ظن رئيس الأساقفة أكزيمينيس أنه بحرقه مؤخرا ما قدر على جمعه من كتب أعدائه العرب (أي ثمانين ألف كتاب) محا ذكراهم

من الأندلس إلى الأبد. فما نرى أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد إسبانية يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد". وفي عام ١٥٠٠ أجبر المسلمون في غرناطة على تسليم أكثر من ١٥ مليون كتاب تتميز بتجليدات زخرفية لا تقدر بثمن، فقد تمّ حرقها وبقي منها بعض الكتب الطبية فقط.[ادعاء غير موثق منذ ٧٨٩ يوماً]

ثم تم إجبار المسلمين على التنصُّر. إلا أن معظم هذا الاعتناق الديني كان بالاسم فقط: إذ كان المسلمون يمارسون الطقوس الدينية المسيحية، إلا أنهم استمروا في تطبيق الدين الإسلامي سراً. وكانت هناك محظورات كثيرة منها: حظر الختان، وحظر الوقوف تجاه القبلة، وحظر ارتداء الملابس العربية. وإذا وجدوا رجلا لابساً للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام. وكذلك لو وجدوا في بيته مصحفا، أو امتنع عن الطعام في رمضان، أو امتنع عن شرب الخمر وأكل الخنزير. وكانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم، فإذا وجدوه مختوناً أو كان أحد عائلته كذلك فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته. وتعتبر المحكمة الكاثوليكية والرأي العام أن تصرفات مثل تناول "الكوسكس"، واستخدام الحناء عادات غير مسيحية، يجب معاقبة فاعلها.[ادعاء غير موثق منذ ٧٨٩ يوماً]

وكان الإمبراطور شارل الخامس حينما أصدر قراره بتنصير المسلمين، وعد بتحقيق المساواة بينهم وبين المسيحيين في الحقوق والواجبات، ولكن هذه المساواة لم تتحقق قط، وشعر هؤلاء أنهم ما زالوا موضع الريب والاضطهاد، ففرضت عليم ضرائب كثيرة لا يخضع لها المسيحيون، وكانت وطأة الحياة تثقل عليهم شيءًا فشيئًا، حتى أصبحوا أشبه بالرقيق والعبيد، ولما شعرت السلطات بميل الموريسكيين إلى الهجرة، صدر قرار في سنة (٩٤٨ هـ=١٥١٤م)، يحرم عليهم تغيير مساكنهم، كما حرم عليهم النزوح إلى بلنسية التي كانت دائمًا طريقهم المفضل إلى الهجرة. وأصدر الملك شارل كانت

قراراً أن كل شخص يطمح لشغل وضيفة في أسبانيا عليه إثبات عدم وجود أي عضو يهودي أو مسلم في عائلته منذ أربعة أجيال على الأقل.[ادعاء غير موثق منذ ٧٨٩ يوماً]

ولكن حتى هذا الحل لم ينجح كليا في حل المشكلة الإسلامية في إسبانيا فكان اللجوء إلى الطرد الجماعي في القرن السابع عشر، أما الخسائر التي ستترتب عن الطرد فتم تعويضها بشكل كبير بالأرباح الناتجة عن مصادرة أملاك المورسكيين. حيث أصدر الملك فيليب الثالث قراراً بطرد مئات الآلاف من الموريكسيين بعد أن اقتنع بفشل محاكم التفتيش في إجبار المسلمين على ترك دينهم، على أن يبقى الأطفال الذين كانت أعمارهم بين العاشرة أو أقل في إسبانيا ليقوم الرهبان أو أي أشخاص آخرين موثوق بهم بتعليمهم مع إبقائهم عبيداً بغير زواج. فما بين عامي ١٦٠٩-١٦١٤ تم طرد ما لا يقل عن ٥٠٠ ألف شخص إلى البلدان الإسلامية المجاورة كالمغرب وتونس والجزائر بل وبعض البلدان المسيحية الأخرى، بعد نهب ومصادرة ثرواتهم وأملاكهم. وكان سكان إسبانيا حوالي ٨ ملايين نسمة. وقد تمت إبادة كثير منهم أثناء هذا الترحيل حيث تلقيهم السفن بالبحر ليموتوا غرقاً. وقد أشار "هنري تشارلز لي" بعد دراسة المصادر المعاصرة أن نسبة وفاة المسلمين تقع ما بين ثلثي وثلاثة أرباع مجموع عددهم.[ادعاء غير موثق منذ ٧٨٩ يوماً]

وقد أدى هذا النفي لإدخال إسبانيا في أحلك فترة في تاريخها، حيث أن الكثير من الأراضي الخصبة أصبحت أراضي موات، واندثرت أكثر الحرف ازدهاراً (كالبناء وتنظيم السقاية والنقل). لم يبق من الموريكسيين بعد الطرد إلا القليل مختفين بدينهم. أخر ذكر لهم في السجلات كان تقريرا رُفع إلى الملك سنة ١٧٦٩ يتضمن شكوكا حول أشخاص متهمين بالإسلام سرّا. ولعل من المفيد أن نذكر أن رجلاً أسبانيّا يدعى "بدية" توجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة (١٢٢٢هـ=١٨٠٧م) أي بعد ٣٢٩ سنة من قيام محاكم

التحقيق. وانتهت محاكم التفتيش رسمياً في ١٥ حزيران ١٨٣٤. رغم بقاء العديد من يؤيدها إلى يومنا الحالي، حتى أنه تقرر في نهاية عام ١٩٦٠ وجوب إضافة اسم "جوان دو ريبيرا" (مخطط عملية الطرد والإبادة وخطف الأطفال) إلى قائمة القديسيين

طرق التعذيب

التعذيب من سمات محاكم التفتيش الإسبانية

مورست في هذه المحاكم معظم أنواع التعذيب المعروفة في العصور الوسطى، وأزهقت آلاف الأرواح تحت وطأة التعذيب. ومن أنواع التعذيب: إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وربط يدى المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ورفعه وخفضه معلقا سواء بمفرده أو مع أثقال تربط به، والأسياخ المحمية على النار، وتمزيق الأرجل، وفسخ الفك. وكثيراً ما كانت تصدر أحكام إعدام حرقاً، وكانت احتفالات الحرق جماعية، تبلغ في بعض الأحيان عشرات الأفراد، وكان الملك فرناندو الخامس من عشاق هذه الحفلات. وكان لهم توابيت مغلقة بها مسامير حديدية ضخمة تنغرس في جسم المعذب تدريجيا، وأيضا أحواض يقيّد فيها الرجل ثم يسقط عليه الماء قطرة قطرة حتى يملأ الحوض ويموت. كانوا أيضا يقومون بدفنهم أحياء، ويجلدونهم بسياط من حديد شائك، وكانوا يقطعون اللسان بآلات خاصة.[ادعاء غير موثق منذ ٧٨٩ يوماً]

وكان دستور محاكم التفتيش فيجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتنبش قبورهم. كما يتم حرمان أقاربهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة

محاكم التفتيش

هدف الإسبان إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قُطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي أسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع، ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف، وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم نصارى الإسبان ثوارًا وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم، وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمُزِّقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة.

لم يقف الأمر عند حدِّ التهجير والتنصير، وإنما أعقب ذلك أن قام الكردينال الإسباني كمينس -وكان صليبيًا حاقدًا- بحرق ثمانين ألف كتاب جُمعت من غرناطة وأرباضها في يوم واحد.

ثم أنشأ الإسبان بعد ذلك ما سُمِّي في التاريخ بمحاكم التفتيش؛ وذلك للبحث عن المسلمين الذين ادَّعوا النصرانية وأخفوا الإسلام.

إبادة المسلمين في الأندلس

إحراق المصاحف والكتب الإسلامية من قبل أعضاء محاكم التفتيش في أسبانياكان الصليبيون الحاقدون إذا وجدوا رجلاً يدَّعي النصرانية ويُخفي إسلامه، كأن يجدوا في بيته مصحفًا، أو يجدوه يُصلِّي، أو كان لا يشرب خمرًا، أقاموا عليه الحدود المغلظة، فكانوا يلقون بهم في السجون، ويعذبونهم عذابًا لا يخطر على بال بشر، فكانوا يملأون بطونهم بالماء حتى الاختناق، وكانوا يضعون في أجسادهم أسياخًا محمية، وكانوا يسحقون عظامهم بآلات ضاغطة، وكانوا يمزقون الأرجل، ويفسخون الفك، وكان لهم توابيت مغلقة بها مسامير حديدية ضخمة تنغرس في جسم المعذب تدريجيًا، وأيضًا أحواض يُقيَّد فيها الرجل، ثم يسقط عليه الماء قطرة قطرة حتى يملأ الحوض ويموت،

وكانوا -أيضًا- يقومون بدفنهم أحياء، ويجلدونهم بسياط من حديد شائك، وكانوا يقطعون اللسان بآلات خاصة.

كل هذه الآلات الفتاكة وغيرها شاهدها جنود نابليون حين فتحوا إسبانيا بعد ذلك، وقد صوَّروها في كتاباتهم، وعبَّروا عن شناعتها بأنهم كانوا يُصابون بالغثيان والقيء، بل والإغماء من مجرد تخيل أن هذه الآلات كان يُعذَّب بها بشر، وقد كان يُعذَّب بها مسلمون، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله! .

ومما يُذكر.. أن هناك عذابًا اختص به النساء العنيدات اللائي كن يشتمن رجال المحكمة؛ وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويُجلسونها على قبر من القبور، يضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيجللها، وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنِّيَّة، لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتُترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجنَّ، أو تموت جوعًا ورعبًا.

لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبقَ فيها من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. إلا مَنْ يقولها في قلبه وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين! وكم فيها من الضعفاء والمعذورين! لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل نارًا، ودموعهم تسيل سيلاً غزيرًا، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم، ومَنْ فعل ذلك عوقب بأشدِّ العقاب، فيا لها من فجيعة ما أمرَّها! ومصيبة ما أعظمها! وطامة ما أكبرها!.

إحراق المسلمين في الأندلس من قبل محاكم التفتيشلقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب، كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين؛ حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان، فإذا عُلم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكم بالموت، وإذا وجدوا رجلاً لابسًا للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام، لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين؛ حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم فإذا وجدوه مختونًا، أو كان أحد عائلته كذلك؛ فيعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته.

وكان دُستور ديوان التحقيق (الاسم الرسمي لمحاكم التفتيش) يجيز محاكمة الموتى والغائبين، وتصدر الأحكام في حقهم، وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء، فتصادر أموالهم، وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق، أو نبش قبورهم وتستخرج رفاتهم؛ لتحرق في موكب «الأوتودافي»، وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده، فيقضى بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة.

وبعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس، أرسل نابليون حملته إلى إسبانيا وأصدر مرسومًا سنة (١٨٠٨م) بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية.

أسباب سقوط غرناطة

كانت عوامل انحدار وسقوط وضياع الأمم قد تشابهت إلى حدٍّ كبير في كل فترات الضعف في تاريخ الأندلس، وهذه العوامل نفسها قد زادت وبشدّة في فترة غرناطة؛ ولذلك كان السقوط كاملاً وحاسمًا؛ وكان من هذه العوامل ما يلي:

حب الدنيا والإغراق في الترف

كان الإغراق في الترف، والركون إلى الدنيا وملذاتها وشهواتها، والخنوع والدعة والميوعة، هي أولى العوامل التي أدّت إلى تلك النهاية المؤلمة، وقد ارتبطت كثيرًا فترات الهبوط والسقوط بكثرة الأموال والانغماس في الملذات، والميوعة الشديدة في شباب الأمة، والانحطاط الكبير في الأهداف؛ قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١١- ١٣].

وهكذا يا أهل غرناطة، أين ستذهبون؟ وإلى أين ستركضون؟ ارجعوا إلى قصر الحمراء، وارجعوا إلى مساكنكم وما أترفتم فيه، وسلموا هذه البلاد إلى النصارى، وتذوقوا الذُلّ كما لم تعملوا للعزة وللكرامة!

ترك الجهاد في سبيل الله

وهو أمر ملازم لمن أُغرق في الترف؛ فالجهاد سنة ماضية إلى يوم القيامة، وقد شرعه الله ليعيش المسلمون في عزّة ويموتون في عزّة، ثم يدخلون بعد ذلك الجنة ويُخلّدون فيها.

وإن الناظر إلى عهد الأندلس ليتساءل: أين أولئك الذين كانوا يجاهدون في حياتهم مرة أو مرتين كل عام، وبصفة مستمرة ودائمة؟! أين يوسف بن تاشفين، وأين أبو بكر بن عمر اللمتوني؟ وأين الحاجب المنصور؟ وأين عبد الرحمن الناصر وغيرهم؟

وإنها لعبرة وعظة حين ننظر إلى ملوك غرناطة، ومَنْ كان على شاكلتهم حين ذُلّوا وأُهينو لَمّا تركوا الجهاد في سبيل الله؛ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ

﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[التوبة: ٣٨- ٣٩].

وقد يظن البعض أنه يجب على الملتـزمين بـالمنهج الإسـلامي أن يضحوا بأرواحهم، ويظلوا يعيشون حياة الضنك والتعب والألم في الدنيا؛ وذلك حتى يصلوا إلى الآخرة، وإن حقيقة الأمر على عكس ذلك تمامًا؛ إذ لو عـاش المسلمون الملتزمون بمنهج الإسلام على الجهاد لعاشوا في عزة ومجد، وفـي سلطان ومُلك من الدنيا عريض، ثم لهم في الآخرة الجنة خالدين فيها بإذن الله.

الإسراف في المعاصي

يتبع العاملَيْن السابقين عامل الإسراف في المعاصي؛ فجيش المسلمين لا يُنصَر بالقوة ولا بالعدد والسلاح، لكنه يُنصر بالتقوى.

فإذا بعُد المسلمون عن دين ربهم، وإذا هجروا نهج رسـولهم كُتـب عليهم الهلكة والذلّة والصغار، يقول رسول الله : «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّـرَاتِ الـذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ».

وإذا كان هذا حال محقّرات الذنوب، تلك التي يستحقرها العبد من فرط هوانها، فلا تزال تجتمع عليه حتى تهلكه، فما البال وما الخطب بكبائر الذنوب من ترك الصلاة، والزنا، والتعامل بالربا، وشرب الخمور، والسـب واللعـن، وأكل المال الحرام، فأي نصر يُرجى ويُتَوقّع بعد هذا؟!

كانت هذه هي أهم عوامل السقوط في دولة الأندلس، وهناك غيرهـا الكثير مثل:

- الفرقة والتشرذم

- موالاة النصارى واليهود والمشركين

وقد قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وآيات غيرها كثير.

توسيد الأمر لغير أهله

وكان ذلك واضحًا جدًّا خاصة في ولاية هشام بن الحكم، وولاية الناصر بعد أبيه يعقوب المنصور الموحدي، وأيضًا ولاية جميع أبناء الأحمر في ولاية غرناطة.

الجهل بالدين

وقد وضح جيدًا قيمة العلم والعلماء في زمن عبد الله بن ياسين، وزمن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، وما حدث في عهدهما من قوّة بعد هذا العلم، ووضح -أيضًا- أثر الجهل في نهاية عهد المرابطين، وفي عهد دولة الموحدين، حيث انتشر الجهل بين الناس، وسادت بينهم آراء ومعتقدات غريبة وعجيبة، كان من ذلك -أيضًا- ما حدث من الجهل بأمر الشورى، وهو أصل من الأصول التي يجب أن يحكم بها المسلمون، وكيف اعتدُّوا بآرائهم، وكيف قبل الناس ذلك منهم؟!

المراجع الرئيسية

- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢٥٧/٧.
- المصدر السابق، ٢٦٠/٧.
- وهي البلدة التي كان قد قرر الإقامة فيها، أو أراد له فرناندو ذلك، انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢٦٤/٧.
- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢٦٧/٧.
- المصدر السابق، ٢٦٧/٧.
- نبذة العصر، ص ١٢٥، والمقري: نفح الطيب، ٥٢٥/٤، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢٥٨/٧- ٢٦٧.
- المقري: نفح الطيب، ٥٢٩/٤.
- أحمد ٣٨١٨، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. والطبراني: المعجم الكبير ٤٤٩/٥، والبيهقي: شعب الإيمان ٧٠١٧، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع ٢٦٨٧.

مراجع اخري

- ابن جزي ومنهجه في التفسير، علي محمد الزبيري، دار القلم ، الطبعة الاولى، ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م.

- ابن خلدون ، ابو زيد عبدالرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ الأكبر، مؤسسة جمال، بيروت-لبنان.

- اعز ما يطلب لابن تومرت، تقديم وتحقيق عمار الطالبي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة ١٩٨٥م.

- ابن ماجة للامام أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني ، حققه محمد فؤاد عبدالباقي، دار التراث العربي.

- اشراط الساعة للوابل، يوسف عبدالله الوابل، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ،١٩٩١م ، دار ابن الجوزي.

- إلجام العوام عن علم الكلام، لأبي حامد محمد محمد الغزالي الطوسي.

- البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط١٩٨٣،٣م.

- المغرب الكبير، د. السيد عبدالعزيز سالم، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٨١م.

- البيذق أخبار المهدي بن تومرت، أبوبكر الصنهاجي، تحقيق لبقي بروفسنال، باريس ١٩٢٨م.

- الدعوة الموحدية بالمغرب، عبدالله علي علام، دار المعرفة بالقاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٦٤م.

- المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣م.
- النهاية، الفتن والملاحم ، للحافظ اسماعيل بن كثير ، تحقيق د.طه زيني، دار النصر للطباعة ، الناشر دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٣٩٩هـ.
- المنار المنيف لابن القيم، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن ابي بكر ابن القيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبدالفتاح ابو غدة، مكتب المطبوعات الاسلامية ، حلب، ١٣٩٠هـ.
- النبوة والانبياء، لمحمد علي الصابوني.
- الملل والنحل للشهرستاني، للعلامة ابي الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.
- الحموية، لشيخ الاسلام أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية.
- اخبار المهدي، تحقيق عبدالحميد حاجيات، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بتونس ١٣٩٥هـ.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير، لعزالدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم، دار احياء التراث العربي ، بيروت، لبنان الطبعة الاولى ١٤٠٨هـ، ١٩٨٩م.
- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف مجهول، اعتنى بنشره السيد بشير الفورتي، تونس ١٣٢٩هـ.

- ابن صاحب الصلاة، عبدالملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم الباجي، المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، دار الاندلس بيروت الطبعة الاولى ١٩٨٣م.
- الدور الفكري للأندلس والمغاربة في المشرق، د.علي احمد ، دار شمأل دمشق ، ١٩٩٥م.
- النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة ، ليوسف بن تغري الآتابكي، وزارة الثقافة والارشاد القومي في مصر.
- المغرب في تاريخ الاندلس والمغرب، د. عبادة كحيلة ، الطبعة الاولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- التكملة ، لكتاب الصلة ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبّار.
- العقاب، شوقي ابوخليل ، دار الفكر، تصوير ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م عن ط١ ١٩٧٩م.
- الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس ، نجيب زبيب، دار الامير، الطبعة الاولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
- السنن الالهية ، د. عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الاولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الاسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح الدين المنجد.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام أبي الحسن علي الشنتريني.
- الاعلام للزركلي، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.

- الامام مالك بن أنس، عبدالغني الدقر، دار القلم، الطبعة الثانية ، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.
- الآراك، د. شوقي ابوخليل، دار الفكر، الطبعة الاولى ١٩٧٩م.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى: الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصري.
- الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، للسيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري، طبع دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٩٩هـ.
- ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص٤٥، وتاريخ ابن خلدون ١٩٧/٧.
- ابن الخطيب: الإحاطة،٥٦٤/١، وأعمال الأعلام، القسم الثالث، ص٢٨٨، والسلاوي: الاستقصا، ٤٨/٣.
- تاريخ ابن خلدون، ١٩٨/٧.
- انظر: لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٩، وتاريخ ابن خلدون، ٢٠٠/٧.
- بل إن يغمراسن هو الأمير الذي منعت معاركه المرينيين من سرعة الاستجابة لغوث الأندلسيين من قبل؛ حتى إنه رفض رسالة المنصور المريني بعقد هدنة بينهما لأنه سيتوجه إلى الأندلس التي تستغيث من بلاد النصارى، فما أمكن المنصور المريني أن يتوجه للجهاد مع الأندلسيين إلا بعد أن انتصر على يغمراسن هذا في معارك قوية، وبعد وقت ثمين ذهبت فيه من المسلمين الأندلسيين بلاد وأرواح وسبايا.. نسي ابن الأحمر هذا وأرسل ليغمراسن ليحالفه ضد المنصور المريني.
- تاريخ ابن خلدون ٢٠٢/٧.

- المصدر السابق.
- تاريخ ابن خلدون، ٢٠١/٧-٢٠٤، وابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم الثالث، ص٢٨٩، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ١٠٢/٧، ١٠٣.
- تاريخ ابن خلدون، ٢٠٥/٧، ٢٠٦.
- المصدر السابق، ٢٠٩/٧.

الفهرس

تاريخ المغرب والاندلس فى عصر المرابطين والموحدين حتى سقوط دولة بني الاحمر
رقم الإيداع /٥٨٦١
الترقيم الدولى ٩٧٨-٩٧٧-٧٣٣-٠٢٨-٢

في التاريخ الأندلسي (٢)

تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين والموحدين

وحتى سقوط دولة بني الأحمر

تأليف

د/ إيناس حسني البهيجي

كلية الآداب - جامعة الخرطوم - سابقاً



دار التعليم الجامعي

١٢ش شادى عبد السلام - برج زهرة الأنوار - ميامى - الإسكندرية - ج.م.ع

تليفاكس: ٠٠٢-٠٣/٥٥٦٣٩٦١ موبايل: ٠٠٢/٠١٠٠١٨٣١٧٩٦

٠٠٢/٠١١١٩٩٩٥٠٠٩

Email:dartalemg@yahoo.com